تأليف : جوناثان كللر

فردينان دوسوسير

تأصيل علم اللغة الحديث وعلم العلامات



المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومي للترجمة

211

مراجعة :
محمود فهمى حجازى

ترجمة وتقديم :
محمود حمدى عبد الغنى

المشروع القومى للترجمة

فردينان دوسوسير

(تأصيل علم اللغة الحديث وعلم العلامات)

تأليف
چوناثان كللر

ترجمة وتقديم
محمود حمدى عبد الغنى

مراجعة
محمود فهمى حجازى



٢٠٠٠

هذه ترجمة

Jonathan Culler, Saussure,

Fontana / Collins, Great Britain 1976

الإهداء

إلى أول من درست على يديه
إلى أبي رحمه الله ورضي عنه

م . ح

المحتويات

تقديم المترجم

دوسوسير واستطلاع

مقومات الحضور اللغوى للإنسان داخل المجتمع

مع وفاة فردينان دوسوسير **F. de Saussure** فى أوائل هذا القرن فقدت جامعة جنيف **Geneva** أحد مؤرخى اللغات الهندية الأوروبية المرموقين الذين أنفقوا معظم حياتهم الأكاديمية فى تدريس الفيلولوجيا التاريخية والمقارنة. ومع ذلك لم يشتهر هذا «الأستاذ» أو يذاع صيته بعد وفاته من هذا المنظور الفيلولوجى الأكاديمى الضيق، وإنما بوصفه العقل المبدع الذى ظفر عن استحقاق برسم معالم الطريق الإبستمولوجى الخصيب الذى سار فيه علم اللغة الحديث، بالشكل الذى احتفظ له بموقع الريادة والمبادأة بين مختلف فروع المعارف الإنسانية، بلا استثناء، تلك الفروع التى لم تجد مفراً من اتخاذ هذا العلم مصدراً للإلهام والإنارة، والبدء بطريقة موازية لتحديد هويتها العلمية الخاصة.

والمثير فى الأمر أن هذا الاعتراف الحار الذى تحقق لدوسوسير بعد وفاته، والذى لم يكن يحلم به فى حياته قد قام على «نص» لم يكتبه بقلمه قط، فالمعروف عنه أنه لم يكن مؤلفاً غزير الإنتاج (حيث لم يتعد عدد الصفحات التى نشرها فى حياته الستمائة صفحة)، والمعروف أيضاً أنه لم يترك أى مخطوطات نظرية يمكن أن يكون لها قيمة عامة، إنه فقط فى عام ١٩٠٧ وعقب تقاعد ڤيرثيمر **Wertheimer** (أستاذ علم اللغة بجامعة جنيف) عهدت إدارة الجامعة إليه بمهمة تدريس مقرر «علم اللغة العام»، وقد قام دوسوسير بتدريس هذا المقرر لمدة ثلاثة أعوام، وعقب وفاته المفاجئة فى عام ١٩١٣ قرر زملاؤه الاحتفاظ بالدروس التى ألقاها فى هذا المقرر، وطبعها فى كتاب ظهر فى عام ١٩١٦ بعنوان: محاضرات فى علم اللغة العام **Cours de Linuistique Générale**.

إنه على الرغم من كل مايمكن أن يقال عن نبوغ دوسوسير أو نفاذ بصيرته وجرأته فى الخروج بالدرس اللغوى من حصار الميتافيزيقا التاريخية أو الفيلولوچيا الكلاسيكية إلى رحاب المعرفة السيميولوجية الحية المقيدة بقيود الزمان والمكان، فإنه لايمكن الادعاء بأى حال أن هذا الإجلال الفائق الذى تحقق لاسمه بعد وفاته كان يمكن أن يتحقق لولا القرار الجرئ الذى اتخذته جامعة جنيف فى شأن طبع المحاضرات والحفاظ عليها، وبدون هذا المثال الأكاديمى المهيب الذى ضربه بالى **Ch. Bally** وسيشيهاى **A. Sechehaye** زميلا دوسوسير اللذان تحملا فى عزم وإخلاص مسئولية إحياء الأفكار من كراسات الطلاب والانتقال بها من مدرجات الجامعة إلى حلقات العلم والعلماء، كى يخرجا إلى النور هذا المجلد القيم الذى كان المصدر الرئيسى لكل التأثير المتأجج الذى مارسه دوسوسير فى شتى فروع المعارف الإنسانية وشهرته الأكاديمية على حد سواء.

* * *

فى عام ١٩١٦ كان كتاب « محاضرات فى علم اللغة العام » هو المرجع الوحيد المنشور فى علم اللغة الحديث. وعلى الرغم من عدم شرعية إعطاء أية فرضيات نظرية الاعتراف الكامل، فإن الفرضية النظرية المهمة التى احتواها هذا الكتاب وصادفت الاعتراف الكامل، كانت دراسة اللغة **la langue** بوصفها الموضوع الرئيسى لعلم اللغة. وكما تقول المحاضرات : « كى ينشأ علم اللغة بوصفه علماً حقيقياً يجب عليه تحديد الموضوع الملائم للدراسة، فبدون القيام بهذه الخطوة الأولية لن يكون بمقدور هذا العلم تطوير المناهج الملائمة لدراسة هذا الموضوع». كانت قاعدة تصنيف الظواهر اللغوية والفهم الصحيح لترتيباتها الطبيعية تمثل فى الواقع نقطة الانطلاق الأولى فى بلورة الموضوع الملائم الذى تصوره دوسوسير لعلم اللغة، فقد كان يدرك أن الظواهر اللغوية ظواهر متغايرة الخواص ولا تخضع للتصنيف، حيث إنها متعددة الوجوه وتفتقر إلى التجانس ولا يمكن التنبؤ بسلوكها، وحيث كانت تنتمى بطبيعتها إلى مجالات معرفية متباينة (فيزيائية وفسيولوجية وتاريخية واجتماعية ونفسية)، وقد كان من المستحيل – فى رأيه – تصنيف الظواهر اللغوية ضمن أى من التصنيفات الشائعة التى يمكن أن تقدمها تلك المجالات، وكما نصت المحاضرات: «كى يصبح علم اللغة علماً حقيقياً فإن عليه عدم دراسة حقائق التاريخ أو الاجتماع أو النفس التى تعبر اللغة الإنسانية عنها عادة، وإنما دراسة اللغة بحد ذاتها ولذاتها».

لقد مهد دوسوسير بنفسه الطريق لإرشاد الدارسين إلى كيفية تحديد الموضوع الملائم لهذا العلم، وقد كانت الخطوة البارعة التى قام بها فى هذا الشأن هى التفرقة بين اللغة **la langue** وأفعال الكلام **le parole**، فقد كان يدرك أن من السهل الانزلاق فى التفكير فى اللغة بوصفها مجموعة من التعبيرات الكلامية. ولأن تعلم اللغة الحية لا يتطلب أن يحفظ المرء عن ظهر قلب مجموعة من التعبيرات الكلامية بقدر ما يتطلب منه أن يكتسب نسق القواعد والأعراف الذى يسمح بإنتاج هذه التعبيرات وفهمها، فلقد رأى أن من واجب دارس اللغة عدم الاكتفاء بدراسة التعبيرات الكلامية ذاتها إلا بالقدر الذى توفر به له الشواهد أو الأدلة الخاصة بالنسق العقلى الكامن للغة الحية التى تنتمى إليها. وقد أطلق دوسوسير على هذا النسق العقلى الكامن مصطلح اللغة **la langue**، وعرفه بأنه مجموعة القواعد والأعراف التصورية المشتركة التى تتيح لمتحدثى إحدى اللغات الحية التفاهم فيما بينهم، فى حين أطلق على الأفعال الكلامية المتبادلة ذاتها مصطلح أفعال الكلام **le parole**، وعرفها بأنها التجليات أو الشواهد الفعلية المتحققة لتلك القواعد والأعراف التصورية المشتركة فى الكلام والكتابة. ولقد ظهر الفارق الجوهرى بين هذين المصطلحين حين شبه دوسوسير «اللغة» بالسيمفونية الموسيقية المكتوبة، وما تتمتع به هذه السيمفونية من وجود مستقل يميزها عن أى عزف منفرد يمكن أن يتم انطلاقاً منها. فقد تختلف آلات العزف، وقد تتباين قراءات العازفين وتوزيعهم لها، وقد ترتكب الأخطاء أثناء العزف، ولكن كل ذلك لا يمس حقيقة استقلال السيمفونية الأصلية فى شئ.

ولكى يحتاط دوسوسير لعدم الخلط بين أفعال الكلام والنسق العقلى الكامن قدم عدداً من المعايير للتمييز بينهما. أول هذه المعايير هو التمييز بين القاعدة والسلوك، وهو يعد على أى حال أحد التمييزات الحاسمة التى يمكن استثمارها للتفرقة بين دراسة الأنساق الطبيعية والأنساق الإنسانية التى تقوم بإنتاج المعنى. عند بحث النسق الطبيعى قد يقوم المرء بصياغة القوانين التى تلخص فى العادة السلوك الملاحظ مباشرة، ولكن ذلك لا يصدق بطبيعة الحال عند بحث النسق الإنسانى، حيث توجد فى هذا النسق فجوة قائمة دائماً بين السلوك الملاحظ والقاعدة، وحيث لا تتمثل القاعدة إلا على مسافة من السلوك الملاحظ، وفيها يكمن المعنى الخاص. علاوة على ذلك قد ينحرف السلوك الملاحظ فى النسق الإنسانى (وعلى الخلاف من النسق الطبيعى) عن القاعدة، إلا أن ذلك لا يفند حقيقة وجود الأعراف الإنسانية بوصفها قواعد للسلوك، وبالفعل قد يتم فى بعض الأحايين كسر بعض التوقعات العرفية أو الخروج عليها؛ إلا أن ذلك لا يمس جوهر القاعدة الأساسية فى نسق المفهومات الإنسانية: «يجب حفظ

نسق التوقعات العرفية قائماً دائماً»، ذلك لأنه إن لم يتم حفظ هذا النسق حياً دائماً، فقد تثار الشكوك حول مدى فهم الأشخاص للنظام المتوقع وتمثلهم لقواعده. وعلى الرغم من التلازم الإمبريقى القائم فى النسق الإنسانى بين القاعدة والسلوك، فإن مهمة الدارس لا تنحصر فى رصد السلوك الإنسانى الملاحظ مباشرة، بقدر ما تنحصر فى إعادة تمثيل النسق العقلانى الكامن الذى انطبع فى الأذهان تدريجياً حول هذا السلوك.

أما المعيار الثانى الذى قدمه دوسوسير لعدم الخلط بين أفعال الكلام والنسق العقلى الكامن فهو التمييز بين اللاوظيفى والوظيفى، وهو التمييز الذى استثمرته حلقة براغ Prague للتفرقة بين علم الصوتيات Phonetics (العلم الذى يدرس الأصوات الإنسانية بوصفها ظاهرة طبيعية) وعلم الفونولوجى Phonology (العلم الذى يدرس الموضوع ذاته بوصفه ظاهرة إنسانية). ولقد ظهر الفارق بين المظاهر اللاوظيفية المتفردة للأصوات وبين مظاهرها الوظيفية داخل نسق اللغة حين استشهد تروبتسكوى N. S. Trubetskoy بالدراسة الأثنولوجية للأزياء بوصفها مشروعاً مماثلاً للوصف الفونولوجى للغة. ففى الدراسة الأثنولوجية للأزياء لايهتم الباحث الأثنولوجى بالمظاهر المادية المتفردة للأثواب بقدر مايهتم بقيمها الاجتماعية. فعلى الرغم من أهمية المواد الخام المتفردة التى تصنع الأثواب منها بالنسبة لمرتديها إلا أن الباحث الأثنولوجى لايهتم فى العادة بهذه المواد الخام، بقدر مايهتم بإعادة بناء نسق الأحكام التمييزية الذى تمثله أعضاء المجتمع لإضفاء المعنى الاجتماعى عليها، مثل : طول الأجزاء السفلية للأثواب أو قصرها، أو التقابل بين الألوان الفاتحة والغامقة ... وهكذا، فتلك الأحكام الاصطلاحية (العشوائية) تمثل الأحكام المهمة فى الدراسة الأثنولوجية للأزياء، إنها تدل باختصار إلى المظاهر الوظيفية التى استثمرها نسق الموضة السائد فى إحدى الثقافات لتحويل الأثواب ذاتها إلى علامات Signs.

ولأن اللغة الإنسانية لم تكن موضوعاً لا زمنياً ساكناً يمكن أن يتجاوز عمليات التحول التاريخى فقد أجبرت هذه الحقيقة دوسوسير على تضييق منظور علم اللغة وعلى شرح الفارق بين الهُوية المادية التاريخية للغة وهُويتها التزامنية، واستجابة لذلك قدم تفرقته الأصيلة بين المنظورين التعاقبى diachronic والتزامنى Synchronic، واعترف بضرورة الفصل بينهما خشية أن تقوم وجهة النظر المادية التاريخية بتزييف الوصف التزامنى للغة، فلم تكن الوحدات اللغوية كينونات موجبة قد تحددت هُوياتها وفقاً لقيمها المادية المتفردة ، أو وفقاً لهُوياتها التاريخية المحتملة، وإنما تحددت وفقاً

المواضع التى تشغلها داخل النسق، ولذلك فقد كان على دارس اللغة - فى رأيه - عدم الاهتمام بالقيم المادية المتفردة للوحدات اللغوية ذاتها، أو بالعلاقات القائمة بينها وبين المراحل التاريخية السابقة الخاصة بها، وإنما بالعلاقات الوظيفية القائمة بينها داخل النسق فى فترة زمنية محددة .

ولإيضاح هذه الفكرة قدم دوسوسير القياس التمثيلى التالى : نحن مستعدون تلقائياً للتسليم بأن قطار الثامنة و ٢٥ دقيقة جنيف / لندن هو القطار ذاته الذى ينطلق يومياً من جنيف إلى لندن، هذا على الرغم من احتمال تغير القاطرة أو المركبات أو الأشخاص الذين يستقلونه كل يوم، وذلك لأن هذا القطار ليس كينونة مادية متفردة، وإنما هو شكل تحددت هُويته فى ضوء العلاقات التى تميزه عن بقية القطارات الأخرى التى تغادر يومياً محطة جنيف إلى المدن الأخرى. ولذلك يظل هذا القطار القطار ذاته حتى وإن غادر محطة جنيف متأخراً عن موعده طالما ظل الاختلاف بينه وبين قطار السابعة و ٢٥ دقيقة وقطار التاسعة و ٢٥ دقيقة قائماً. وعلى الرغم من عدم إمكانية تمييز هذا القطار عن بقية القطارات إلا فى ضوء الكينونة المادية المتحققة له؛ إلا أنه ليس هناك علاقة بين الهوية الاجتماعية للقطار وبين التحقق المادى له، علاوة على ذلك فلربما كانت القاطرة والمركبات التى تشكل هذا القطار فى أحد الأوقات هى ذاتها القاطرة والمركبات التى كانت منذ ساعات قليلة عناصر فى أحد القطارات الأخرى؛ إلا أنه ليس هناك أية صلة وثيقة بين الهُوية الآنية الماثلة للقطار والهُوية التاريخية السابقة لعناصره، حيث تتحدد هُوية القطار فى ضوء الموضع الذى يشغله فى نسق أو قائمة مواعيد القطارات بصرف النظر عن التحقق المادى لعناصره أو مصدرها التاريخى.

وعلى هذا الأساس مال دوسوسير إلى إعطاء الأولوية المطلقة لدراسة اللغة الموجودة فى فترة زمنية محددة بصرف النظر عن هُويتها المادية المتحققة، أو تحولاتها التاريخية السابقة، وقد شكلت هــــذه المسلمة المنهجية أســاس نظــرته إلى «اللغة La Langue بوصفها نسقاً من العلامات والتقابلات بصرف النظر عما صادفته هذه العلامات من تغيرات عبر الزمن، وهكذا شاع علم اللغة بوصفه علماً لاوضعياً ولاتاريخياً فى التوجيه، وشاع نموذج التحليل الفونولوجى التزامنى الذى يحرص على دراسة متصل الصوت البشرى بوصفه كُلاً وظيفياً واختزال هذا المتصل إلى مظاهره التمييزية أو سماته الفارقة بوصفه النموذج الشائع لعلم اللغة ذاته، واعتقد العلماء - مع دوسوسير - أن المقابلات التمييزية الثنائية هى إحدى الخصائص العقلية المتوارثة

فى المخ البشرى، فهى تمثل العمليات العقلية الأولية التى يتعلم الطفل بواسطتها الأداء الإنسانى أو إنتاج المعانى.

* * *

بإمكاننا أن نتذكر أن هذا التوجه اللاوضعى واللاتاريخى لعلم اللغة كان يمثل فى الحقيقة أحد المظاهر الإبستمولوجية المتزمتة التى تصورها دوسوسير لهذا العلم. حيث لم يكن علم اللغة علماً ينتمى - فى رأيه - إلى أحد العلوم الوضعية أو التاريخية، وإنما كان ينتمى إلى علم لم يكن وقتئذ قد نشأ بعد، وهو علم العلامات Sémiologie، وقد رأى دوسوسير أن على علم اللغة الانتظار حتى ينشأ هذا العلم كى يستطيع فى ضوئه تحديد موضعه الإبستمولوجى الصحيح، ولكى يهتدى علم العلامات «المتخيل» إلى رسم حدوده الصحيحة كان عليه أن يتخذ من مناهج علم اللغة ومفاهيمه مصدراً للإنارة والطموح، وقد قدم دوسوسير الأداة التحليلية التى اعتقد أنها ستساعد علم العلامات فى تحليل الظواهر الإنسانية غير اللغوية، ألا وهى مفهوم العلامة اللغوية.

العلامة اللغوية عشوائية، كانت تلك الصيغة تمثل فى الواقع نقطة الانطلاق الرئيسية التى أقرها دوسوسير لفهم علم اللغة للعلامة اللغوية، بمعنى أنه لاتوجد علاقة سببية جوهرية بين متتالية الأصوات التى تتخذها العلامة اللغوية دالاً Signifier لها، والمفهوم الذى تستخدمه بوصفه مدلولاً Signified له. وبصرف النظر عن إمكانية الحديث عن الدال والمدلول بوصفيهما العنصرين المستقلين المكونين للعلامة اللغوية إلا أنهما لايوجدان فى الحقيقة هكذا، بمعنى أنه لايمكن الفصل بينهما دون تحطيم جوهر العلامة اللغوية ذاتها بوصفها كذلك.

ولقد كانت الخطوة الجسورة التى قام بها دوسوسير لشرح الخاصية العشوائية للعلامة اللغوية هى إنكاره الارتباط القائم بينها والموضوع الخارجى الذى تشير إليه، وهو مايعرف فى الدرس اللغوى بمبحث الإحالة reference، فقد أقر دوسوسير عدم الإحالة إلى مشاهد الطبيعة، فى حين أنكر وجهة النظر الاسمائية فى تفسيره للعلامة اللغوية وأصر على التمثيل اللااسمائى لها، فلم تكن العلامة اللغوية تمثل فى رأيه موضوعاً مادياً متفرداً واسماً يدل عليه، وإنما كانت تصوراً عقلياً خالصاً لعنصر الصوت (الدال) من ناحية، وعنصر الفكر الذى يدل عليه (المدلول) من الناحية الأخرى، وهكذا لم يكن العامل الحاسم فى تحديد معنى العلامة اللغوية يتمثل فى المشهد أو المرجع المادى المتفرد الذى تحيل العلامة اللغوية دالها عليه، وإنما كان يتمثل فى

الموضع الذى تحتله داخل نسق اللغة la langue، وعلى هذا الأساس نقل دوسوسير مبحث الإحالة اللغوية بكامله إلى داخل العقل الإنسانى، وأصبحت اللغة بوصفها نسقاً من العلامات اللغوية ظاهرة عقلانية خالصة بصرف النظر عن الصور الصوتية أو الكتابية التى تتحقق فيها الدوال. أو عن مشاهد الطبيعة التى يحيل المتمثلون له أفعالهم الكلامية عليها.

لم تكن اللغة بوصفها نسقاً من العلامات اللغوية تمثل بالنسبة للعلم الذى تصوره دوسوسير للعلامات غير اللغوية مجرد مصدر للإلهام أو التنوير فقط، وإنما كانت نموذجاً منهجياً متحققاً لدراسة جميع الظواهر الثقافية غير اللغوية بوصفها «لغات». ومع أن دراسة اللغة بهذه الكيفية لم يكن يمثل بالنسبة لعلم العلامات العام سوى أحد الأمثلة الإيضاحية المحددة؛ إلا أنها – بما هى كذلك كانت تمثل – فى رأى دوسوسير – النسق السيميولوجى الأمثل لعمليات الانتخاب الاصطلاحى (أو العشوائى) التى يمكن أن يقوم العقل البشرى بها على الإطلاق. وهذا هو السبب الذى جعل من نموذج التحليل السيميولوجى للغة بوصفها نسقاً من العلامات نموذجاً صالحاً للتصدير إلى الميادين الثقافية التى تفتقر أنساق المسميات فيها إلى مشاهد الطبيعة (مثل الأدب، الأساطير، القرابة، الأزياء، فنون الطهى ... إلخ)، أو ربما كان السبب الذى دفع المتخصصين فى هذه الميادين إلى محاكاة النموذج السيميولوجى فى الأصل. وعلى أى حال لم يرغم نموذج التحليل السيميولوجى للغة هؤلاء المتخصصين على دراسة الظواهر الثقافية غير اللغوية بوصفها «لغات» فقط، وإنما دفعهم إلى الإصغاء إلى عمليات الانتخاب الاصطلاحى أو العشوائى للأنساق الرمزية الجمعية التى يدرسونها والتى لم يكن بمقدورهم الإصغاء إليها بمعزل عن دراسة الظواهر الثقافية والاجتماعية بوصفها أنساقاً من العلامات.

* * *

وبعد ....، فقد صدر كتاب جوناثان كلر: «دوسوسير» فى سلسلة فونتانا «الأساتذة المحدثون»، وهى سلسلة تعليمية المقصود منها – مثل الموسوعات العامة – مخاطبة جمهور القراء من غير المتخصصين، ولذلك لا تحرص هيئة التحرير على اختيار الأساتذة المتوجين فقط، وإنما تحرص أيضاً على اختيار كُتاب السير الذين سيتولون تبسيط الأفكار أو المناقشات الصعبة للقراء المبتدئين. ومن هذا المنظور يحسب لهيئة تحرير فونتانا ليس فقط اختيارها لدوسوسير لمثل هذا التقديم التعليمى فى هذه السلسلة وإنما اختيارها أيضاً لجوناثان كلر ليتولى مهمة تبسيط السيرة

الفكرية لـ «الأستاذ» لجمهور القراء المبتدئين ، لأن الذى يميز الكتاب الحالى هو المنهاج النقدى الخصيب الذى اتبعه كللر فى تحقيق هذه السيرة.

ولتوضيح ذلك علينا أن نتذكر النص المحرر من «محاضرات فى علم اللغة العام». فمن الثابت فى هذا النص – وكما سبق أن أشرنا فى هذا التقديم – أن ثنائية اللغة / الكلام كانت تمثل محور الارتكاز الأول فى التصور الذى قدمه دوسوسير لعلم اللغة بوصفه فرعاً من علم العلامات العام، ومع ذلك فقد رفض كللر التسليم بتلك الثنائية بوصفها الثيمة المحورية التى يمكن أن يُدار حولها كل الأفكار المتشعبة التى شغلت ذهن دوسوسير . وأثبت بدلاً منها مبدأ الطبيعة الاصطلاحية أو العشوائية للعلامة اللغوية بوصفه المبدأ المحورى الذى انطلق منه دوسوسير، وكان دائم الاحتياط له فى مناقشاته لمختلف القضايا التى ألقى محاضراته حولها فى مدرجات جامعة جنيف.

فمن هذا المنظور يقدم الكتاب الحالى إخراجاً نقدياً جديداً للملخص الفكرى الذى قدمه دوسوسير لعلم اللغة الحديث وعلم العلامات العام كليهما، وربما كانت إحدى الفضائل الأساسية فى هذا الكتاب أن كللر لم يكتف بالنص المحرر من «محاضرات فى علم اللغة العام» وجعله مسودة ينقل لنا منها جانباً من السيرة الفكرية للأستاذ، وإنما حرص على الرجوع إلى كراسات الطلاب التى اعتمد عليها بالى وسيشيهاى فى تحرير «المحاضرات »، ليتحرى بنفسه من منطق حياة الأفكار، ولنا أن نتصور كم الجهد الذى بذله كللر فى إعادة تحقيق الأفكار أو فى إعادة إثبات نسبها الجينيولوجى الجديد على لسان الأستاذ، وهى الأفكار ذاتها التى سبق وأن شاعت منسوبة إليه بفعل «النص المحرر من المحاضرات» لفترة تجاوزت الستين عاماً، بين ظهور هذا النص فى عام ١٩١٦ وظهور الكتاب الحالى فى عام ١٩٧٦.

ولهذا السبب بالذات حرصنا على ترجمة هذا الكتاب لأصدقائنا من قراء العربية، وعلى الرغم من قصره إلا أنه ينقل – فى رأينا – جوهر الملخص الفكرى الذى قدمه دوسوسير لعلم اللغة والعلوم الإنسانية الحديثة على حد سواء من منظور جديد، وأحسب أن الكتاب يمثل على هذا النحو مقدمة تعليمية عامة لهؤلاء المبتدئين الذين يرغبون فى الاطلاع على أهم ملامح النثر السيميولوجى الحديث فى أسلوب واضح المعالم ومقنع، آملين أن يكون لترجمتنا هذه بعض القيمة لكل من يتفضل ويجد الوقت اللازم لقراءتها .

محمود حمدى

الإسكندرية فى ١٩٩٩/٤/٧

مقدمة المؤلف

فردينان دوسوسير F. de Saussure مؤسس علم اللغة الحديث هو الرجل الذى أعاد تنظيم الدراسة المنهجية للغات فى بداية القرن العشرين بالأسلوب الذى مكن علم اللغة من تحقيق كل الانتصارات التى أحرزها فى هذا القرن. وهذا فى حد ذاته جعل منه رائداً عصرياً، رائد فى هذا العلم الذى جعل هو منه علماً عصرياً. ليس هذا فحسب فهناك الكثير من الدعاوى التى قدمها دوسوسير تهمنا أيضاً.

أولاً : فقد ساعد دوسوسير ومعاصراه العظيمان إميل دوركايم E. Durkheim وسيجموند فرويد S. Freud فى وضع دراسة السلوك الإنسانى فى مسار فكرى جديد تماماً. فقد أدرك هؤلاء الرواد الثلاثة أن الاكتفاء بدراسة السلوك الإنسانى بوصفه سلسلة من الأحداث المماثلة لأحداث العالم الطبيعى لا يمكننا من تحقيق الفهم الملائم للإنسان ونظمه. فقد يكون بإمكان العالم الفيزيائى دراسة تلك الموضوعات الحسية فى مختلف الظروف الثابتة (كمسارات القذائف من مختلف الزوايا أو سرعة الضوء أو التفاعلات التى تتم بين المواد الكيميائية فى مختلف درجات الحرارة)، والقيام بوصف ما يحدث وتفسيره دون أن يلتفت إلى انطباعات الناس حولها أو آرائهم فيها. إلا أن الموقف فى دراسة السلوك الإنسانى غالباً ما يختلف، حيث لا يستطيع دارس السلوك الإنسانى صرف النظر عن الانطباعات الذاتية التى تتكون لدى أعضاء المجتمعات عنه، أو المعانى التى يمكن أن يعبر عنها هذا السلوك لديهم، فحين يرى أعضاء مجتمع من المجتمعات أن تصرفات بعينها غير مهذبة أو أنها لا تتسم بالكياسة والأدب، فتلك «حقيقة» اجتماعية تندرج ضمن ما يهتم به دارس السلوك الإنسانى مباشرة، وعلى ذلك فإن تجاهل المعانى الخاصة بالتصرفات أو الموضوعات الحسية يجعل من دراسة السلوك الإنسانى مجرد دراسة للأحداث الفيزيائية لاغير، لأن دارس السلوك الإنسانى لا يقوم فى الواقع بتحليل الأحداث الواقعة بذاتها، وإنما يقوم بتحليل الأحداث التى تكسوها المعانى.

بالإضافة إلى ذلك فقد اعتقد العلماء الثلاثة أن الاكتفاء باقتفاء أثر الأسباب التاريخية للأحداث الواقعة بوصفها أحداثاً مستقلة ومنفصلة يمكن أن يُفقد دراسة

السلوك الإنسانى أهم مقوماتها. لذلك فقد رأى ثلاثتهم ضرورة دراسة الوظائف التى تقوم بها الأحداث الواقعة داخل الهيكل الاجتماعى العام، أى يجب معالجة الحقائق الاجتماعية بوصفها جزءاً من نسق محدد من الأعراف والقيم. لقد أصبح السؤال الرئيسى عندهم هو: ما الأعراف والقيم التى تسمح للبشر للعيش معاً داخل المجتمع، وتمكنهم من الاتصال فيما بينهم ومن التصرف بالطريقة التى يتصرفون بها؟ ولقد كانت الإجابة عن هذا التساؤل تؤدى مباشرة إلى وجود «علم» يختلف كلية عن العلم الذى يبحث عن الأسباب التاريخية للأحداث الواقعة. فقد أرسى دوسوسير مع معاصريه الأثنين مثل هذا النمط الجديد من البحث، وهو نمط لا يبحث عن الأسباب التاريخية للأحداث الواقعة بقدر ما يبحث عن النسق العقلانى الكامن وراءها، وهكذا فقد أتاح هؤلاء العلماء الثلاثة إمكانية القيام بالدراسة التفصيلية والملائمة للإنسان.

ثانياً: لقد ساعد دوسوسير بمنهجه، وبمختلف اقتراحاته المثمرة على إنشاء علم العلامات Sémiologie وظهور البنيوية Structuralisme فى الأنثربولوجيا والنقد الأدبى وعلم اللغة. وبالفعل يعود الاهتمام المكثف الذى شهدته السنوات الماضية بدوسوسير إلى كونه الأب الملهم لعلم العلامات والنزعة البنيوية وعلم اللغة البنائى على حد سواء.

ثالثاً: لقد قدم دوسوسير بملاحظاته المنهجية الثاقبة، وبمدخله إلى اللغة أسلوباً واضحاً من التعبير عن استراتيجيات الفكر الحداثى، وهى استراتيجيات التفكير التى كان يعمل فى ضوئها العلماء والفلاسفة والكتاب والفنانون فى الجزء المبكر فى هذا القرن، والتى كانوا يحاولون عن طريقها التوصل إلى تحقيق فهم ما لهذا الكون الهيولى المعقد. لقد كان السؤال المطروح بين هؤلاء فى مختلف مجالات تخصصاتهم: كيف يمكن للمرء أن يتغلب مقولياً أو تصنيفياً على حالة الهيولة أو حالة الخلط فى العالم الحديث؟ وقد كانت الإجابة التى قدمها دوسوسير على هذا السؤال إجابة نموذجية: إنك لا تستطيع أن تتطلع إلى الحصول على وجهة نظر مطلقة للأشياء، وإنما يجب عليك أن تختار منظور ما، منظور تستطيع من خلاله تحديد الأشياء ليس بماهيتها وإنما بالعلاقات التى تقيمها فيما بينها. وهكذا مكننا دوسوسير من تحقق الفهم الواضح لاستراتيجيات الفكر الحداثى.

أخيراً: لقد ركز دوسوسير فى معالجته للغة على المشكلات الناتجة عن الطرق الجديدة من التفكير حول الإنسان، وعلى الأخص فيما يتعلق بالعلاقة الوثيقة بين اللغة والعقل. فإذا كنا نعلم الآن بأن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى تتميز علاقاته بالعالم

الموضوعى بالعمليات البنائية والتمييزية، وهى العمليات التى تتجلى بكل وضوح فى اللغة، فإن الفضل فى هذا السبيل يعود إلى دوسوسير، لأننا متى تحدثنا عن نزعة الإنسان لتنظيم الأشياء فى أنساق بغاية نقل المعانى، فقد وضعنا أنفسنا إلى حد بعيد فى الخط الدوسوسيرى من التفكير.

تلك الإسهامات العريضة التى قدمها دوسوسير سواء إلى علم اللغة أو إلى العلوم الاجتماعية أو إلى علم العلامات أو إلى النزعة البنيوية والفكر الحداثى وإلى تصورنا للإنسان عموماً جعلت منه هذا العلامة البارز فى تاريخ الفكر الحديث. وعلى ذلك فإذا كانت لدينا رغبة حقيقية فى التعرف على أهمية دوسوسير يجب أن يشتمل كتابنا الحالى على علم اللغة والعلوم الاجتماعية وعلم العلامات والفلسفة. ولكن المفارقة هنا هى أن دوسوسير لم يكتب ذات يوم شيئاً يمكن أن يكون له مثل هذه الأهمية العامة. فهو لم ينشر أثناء حياته سوى كتاباً واحداً حول «النظام الأساسى للصوائت فى اللغات الهندية الأوربية القديمة **Mémoire sur le système primitif des Voyeelles dans les langues indo - européennes**»، والأطروحة التى تقدم بها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة ليبزج **Leipzig** حول «استخدام حالة المضاف إليه المطلق فى السنسكريتية **De L'emploi du genitif absolu en sanscrit**» وعدد ضئيل من الأبحاث اللغوية المتخصصة. ولم يترك بعد وفاته أى مخطوطات يمكن أن يكون لها أية قيمةعامة. وإنما قام كل هذا التأثير البالغ الذى مارسه دوسوسير داخل علم اللغة وخارجه على «نص» لم يكتبه بقلمه قط. فالثابت أنه بين عامى ١٩٠٧، ١٩١١ قام بتدريس ثلاثة مقررات فى علم اللغة العام بجامعة جنيف Geneva. وبعد وفاته عام ١٩١٣ بثلاثة أعوام قام تلامذته وزملاؤه بنشر المحاضرات التى ألقاها فى تلك المقررات فى مجلد حمل عنوان «محاضرات فى علم اللغة العام **Cours de Linguistique Générale**».

فى الفصل الأول لدينا الكثير مما يمكن قوله حول التكوين الغريب للمحاضرات، والطريقة التى تم جمع النص المنشور بها، وعلى الرغم من ذلك فربما كانت القضية المثيرة هى أن دوسوسير – على الرغم من كل تلك المكانة المرموقة التى يحتلها فى الفكر الحديث – لم يكن سوى عالم لغوى دارس للغة، وقد يظن المرء – بناء على تلك الأهمية التى ترتبط بدوسوسير بوصفه مؤسساً لعلم اللغة الحديث، وصاحباً لتصور جديد للغة، وملهماً لعلماء الأنثربولوجيا ونقاد الأدب – أن كتاب «محاضرات فى علم اللغة العام» كتاب يمتلئ بالتعميمات العريضة، أو بالملاحظات المحملة بالاحتمالات حول

طبيعة اللغة والعقل الإنسانى، أو أنه كتاب يتضمن عدداً من النظريات الدقيقة البليغة حول الإنسان بوصفه كائناً اجتماعياً واتصالياً، ولكن الواقع غير ذلك، فالمثير فى هذا الكتاب هو اهتمام دوسوسير الدائم بتحديد مبادئ علم اللغة وموضوعه على حد سواء.

لقد اتخذ الاهتمام الذى أظهره دوسوسير بطبيعة اللغة ومبادئ علم اللغة شكل الاستفسارات التى نطرحها «نحن» حين نتحدث عن اللغة. على سبيل المثال: لو صدر منك مجموعة من الأصوات a noise وصدر منى فى وقت لاحق مجموعة أخرى من الأصوات. ما الشروط التى يمكن فى ضوئها أن نقول إن كلانا قد نطق الكلمات نفسها؟، وتلك استفسارات قد تبدو تافهة وعديمة القيمة، وقد يميل المرء إلى رفض طرحها على اعتبار أنها استفسارات عديمة المضمون، أو قد يقول المرء إننا نعرف بشكل واضح ما إذا كان شخصان معينان قد نطقا بالكلمات نفسها أم لا. ومع ذلك فمن المؤكد أن المسألة لم تكن عند دوسوسير على ذلك النحو، وإنما كانت كيف يمكن لنا معرفة ذلك؟ أو كيف يمكن لنا أن نعرف أن هذين الشخصين قد نطقا بالكلمات نفسها أم لا؟ وما الذى يتضمنه معرفتنا لذلك؟ لأنه مهما كان «هذا» المضمون فإنه يُعد بذاته جزءاً من معرفتنا باللغة، أى يُعد جزءاً من معرفتنا بوحدات هذه اللغة. وهكذا إذا كانت لدينا الرغبة الحقيقية فى تحليل اللغة فإنه يجب علينا تشكيل فكرة واضحة ومنسقة حول وحدات هذه اللغة وعناصرها. فلو اعتقدنا – على سبيل المثال – أن «الكلمة» هى الوحدة الأساسية للغة فإنه يجب علينا أن نعرف كيف نطق الشخصان الكلمة ذاتها بالرغم من اختلاف الأصوات الفيزيائية الفعلية التى صدرت عن كل منهما.

هكذا طرح دوسوسير الاستفسارات الأساسية العميقة التى لم يحدث أن طرحها أى من علماء اللغة من قبل، وقدم الإجابات التى أحدثت ثورة هائلة فى الطريقة التى تُدرس اللغة بها. وهى إجابات لم تثر اهتمام دارسى علم اللغة فقط – كما قد يبدو من الوهلة الأولى – وإنما أثارت اهتمام جميع المشتغلين بالعلوم الإنسانية بلا استثناء، وهى العلوم التى تهتم بعالم الموضوعات والأفعال الإنسانية ذات المعنى (على المقابل من العلوم التى تهتم بالموضوعات والأحداث الفيزيائية ذاتها). ومهدت الطريق أمام دراسة الطرائق العامة التى يقوم العقل بتنظيم الخبرات الإنسانية بها.

على أى حال فنظراً لأهمية المضمون العريض لأفكار دوسوسير لدى قراء هذا الكتاب، سوف نتناول القضايا الكبرى فى الفصول التالية. ومع ذلك فقد يتطلب فهم المرء لأفكار دوسوسير من المرء نفسه الحرص على تتبع منطقة فى التفكير بالتفصيل. أى يوجب الأمر على المرء العودة إلى المبادئ الأولى عند دوسوسير وطرح التساؤلات

الأولية التى طرحها «هو» حول اللغة وطبيعة العلامة وماهية وحدات اللغة. وبإختصار يجب علينا أن نبدأ الكتاب باكتشاف نظرية اللغة عند دوسوسير.

وتلك مهمة ليست يسيرة على أى حال، لأنها تتطلب شرحاً تفصيليا مطولاً للمقولات اللغوية عند دوسوسير، والمناقشات التى ساقها حولها. ويزيد من صعوبتها أن نعرف أن دوسوسير نفسه لم يشعر فى وقت من الأوقات أنه فى وضع يسمح له بالفعل بكتابة كتاب «محاضرات فى علم اللغة العام» بنفسه، فهو لم يكن قد اقتنع بعد بأنه انتهى بالفعل من معالجة المشكلات الأساسية لعلم اللغة بأسلوب واضح لا لبس فيه، وقد كان يشعر طوال الوقت بأنه ما زال يتلمس الطريق لصياغة مرضية للأفكار التى لم يكن قد ألقى عليها بالكاد نظرة خاطفة. فالثابت أنه إن كان دوسوسير قد اقتنع بأنه قد انتهى بالفعل من تمحيص الأفكار ومناقشاتها لكان قد كتب الكتاب بنفسه دون شك، ولأن ذلك لم يحدث فى الواقع فإن علينا أن نبذل المزيد من الجهد لفهم هذا الفكر المبتسر الذى لم يكن قد ولد كاملاً بعد، والذى كان فى مقدوره - حتى فى حالته المبتسرة هذه - تحقيق مثل هذا التأثير البالغ فى الأجيال المتعاقبة من علماء اللغة ومن غيرهم.

إذن؛ فمهمتنا الأولى بعد إلقاء نظرة موجزة على حياة دوسوسير والظروف التى أدت إلى نشر المحاضرات هى اكتشاف نظرية دوسوسير فى اللغة، أى علينا البدء بالمبادئ الأولية عنده قبل أن نعيد تأليف مبادئ علم اللغة الحديث، وقبل الشروع فى المهمة الأساسية الثانية. فقد نشأت المحاضرات نتيجة استياء دوسوسير من علم اللغة (التاريخى) كما كان يمارس أثناء حياته. وهكذا إذا أردنا التوصل إلى فهم حقيقى لأفكار دوسوسير ومغزاها فإن علينا التعرف على وضع علم اللغة كما رآه دوسوسير فى ذلك الحين وإلى أى حد ينطبق بحثه فى تاريخ علم اللغة على بحث تاريخ التفكير فى اللغة عموماً. وبعد ذلك سننتقل فى الفصل الرابع من الماضى إلى الحاضر والمستقبل، وسوف نلخص فى هذا الفصل مغزى بحث دوسوسير فى علم العلامات العام، وهو العلم الذى وضع دوسوسير تصوراً كاملاً له، هذا مع أنه لم يتخذ شكله الحقيقى فى الواقع إلا بعد سنوات طويلة من وفاته.

على أى حال مهمتنا الأساسية فى هذا الكتاب هى تتبع أفكار دوسوسير فى علم اللغة وعلم العلامات العام وتتبع تأثيرها الفعلى فى هذين المجالين، إلا أنه إذا كنا نود بالفعل تكوين رأى صحيح أو التوصل إلى حكم دقيق حول المغزى الحقيقى لأفكار دوسوسير ومكانتها فى عالم الفكر فى القرن العشرين فإن علينا أن نتناول بكل

صراحة تلك المظاهر التى صيغت بشكل غير مناسب فى المحاضرات المنشورة أو التى أسئ فهمها وتفسيرها أو تلك التى تم تجاهلها. وبهذا الأسلوب فنحن نؤكد على أن دوسوسير لم يكن العلامة الملهم فى الماضى القريب فقط، وإنما يعد الممثل الفكرى الرئيسى فى العصر الحاضر أيضاً.

الفصل الأول

الرجل
و
المحاضرات

ودوسوسير هو تلك الشخصية الباهرة الآسرة المثيرة للإعجاب وللغرابة فى الوقت نفسه، ذلك لأنه عاش مثل هذه الحياة الهادئة الخالية من الأحداث المهمة، فهو لم يعان أثناء حياته من أية أزمات فكرية طارئة، ولم يمر أثناء حياته أيضاً بأية لحظات حاسمة من التبصر أو من الهداية، ولم يُصادف أن كان لديه مغامرات شخصية مثيرة. ومن ثم فإن هذا التواضع الذاتى الذى يأتى على النقيض تماماً من هذا الفكر الجرئ العنيد يجعل من الصعب على المرء تتبع كيفية ظهور هذا الفكر فى حياته العقلية المبكرة، هذا بالإضافة إلى أن بقاء البحث الرئيسى غير مكتوب حتى وفاته يمثل فى الحقيقة الذروة المناسبة لسير حياته المهنية المتناقضة هذه.

ولد دوسوسير فى «جنيف» عام ١٨٥٧ بعد مولد فرويد **S, Freud** بعام واحد، وقبل مولد دوركايم **E. Durkheim** بعام آخر، وعاش ابناً وحيداً لأحد علماء الطبيعة البارزين وفى عائلة اشتهرت بإنجازاتها فى العلوم الطبيعية. و فى سن مبكرة تعرف دوسوسير للمرة الأولى على علم اللغة عن طريق أدولف بيكتيت **Adolphe Pictet** عالم الفيلولوجيا وصديق عائلة الأب، وقد حاول وهو ما زال فى الخامسة عشر من عمره (بعد أن تعلم اليونانية والفرنسية والألمانية والإنجليزية) استنتاج نسق عام للغة. وكتب فى عام ١٨٧٢ «مقال حول اللغات» **Essia sur les langues** سلمه إلى بيكتيت. فى هذا المقال ذهب دوسوسير إلى أن اللغات جميعها تمتد بجذورها إلى أحد الأنساق المكونة من ثلاث حروف صامتة أساسية. ولا شك أن وجه بيكتيت قد ارتسمت عليه ابتسامة هادئة حين اطلع على تلك المحاولة الغضة، ولكنه لم يثبط من عزيمة الطالب دوسوسير الذى كان قد بدأ وهو ما زال فى المدرسة فى دراسة اللغة السنسكريتية .

وفى عام ١٨٧٥ التحق دوسوسير بجامعة جنيف، وسجل اسمه بوصفه دارساً للفيزياء والكيمياء كما تقضى التقاليد العلمية للعائلة، إلا أنه تابع فى الوقت نفسه مقررات القواعد اليونانية واللاتينية بالجامعة ذاتها. وهى المتابعة التى أقنعته بعد عام من التحاقه بالجامعة أن تخصصه الأكاديمى يقبع فى دراسة اللغة، ولم يكن ذلك بسبب التحاقه فى ذلك الحين بإحدى الروابط اللغوية المتخصصة (وهى الجمعية اللغوية فى باريس) وإنما كان لاحساسه أن العام الأول الذى مضاه فى جامعة جنيف قد تبدد دون نتيجة. وقد نجح حينئذاك فى إقناع والديه فى إرساله إلى جامعة ليبزج **Leipzig** بألمانيا لدراسة اللغات الهندية الأوربية.

كانت جامعة ليبزج فى الواقع اختياراً موفقاً بالنسبة له، لأنها كانت تمثل فى ذلك الحين مركزاً لمدرسة تضم عدداً من علماء اللغة التاريخيين الشبان، هم النحاة الشبان أو النحاة الجدد Neo-grammarians، وقد استطاع دوسوسير منذ البداية أن يبارى القدرات العقلية الفائقة لهم، وتأكد له حسه الإبداعى الذاتى حين اكتشف أحد أساتذة جامعة ليبزج وهو بروجمان Brugmann ما عرف باسم قانون الأصوات الأنفية Nasal Sonans. وهو القانون الذى كان دوسوسير قد اكتشفه قبل ذلك بسنوات، ولكن اكتشافه قوبل بالرفض لتصارعه من الفرضيات السائدة بين علماء اللغة البارزين حينذاك.

مكث دوسوسير فى جامعة ليبزج فترة تعدت الأربعة أعوام، تخللتها فترة فاصلة (ثمانية عشر شهراً) قضاها فى جامعة برلين، ونشر فى ديسمبر من عام ١٨٧٨ وعمره لم يتعد حينذاك الواحد والعشرين عاماً بحثاً بعنوان: «تقرير حول النظام الأساسى للصوائت فى اللغات الهندية الأوربية». وهو البحث الذى وصفه أحد علماء اللغة المعاصرين بأنه: «من أكثر الأبحاث التى كُتبت فى الفيلولوجيا المقارنة إبهاراً»، وسوف نتناول خلاصة هذا البحث ونتائجه فى الفصل الثالث من هذا الكتاب. ولكن المثير فى هذا البحث هو هجوم عالم اللغة الشاب على المشكلة الأساسية فى علم اللغة التاريخى. فقد كتب دوسوسير فى مقدمة البحث: «إننى لا أفكر فى القضايا النظرية المبهمة، ولكن أبحث عن المبادئ الأولية للموضوع، تلك المبادئ التى يصبح بدونها كل شئ غير راسخ وعشوائياً ومشكوكاً فيه».

لقد لقىَ «التقرير» ترحيباً عريضاً فى عدد كبير من الدوائر الأكاديمية، ولذلك فبعد عودته إلى جامعة ليبزج قادماً من جامعة برلين سأله أحد الأساتذة ذات مرة إن كان قد اتصل مصادفة مع عالم اللغة العظيم دوسوسير مؤلف «التقرير». ومع ذلك فالمرجح أن دوسوسير لم يجد فى ألمانيا التجانس الفكرى الذى كان يبتغيه، لأنه بعد أن دافع عن «الرسالة» التى تقدم بها لنيل درجة الدكتوراه انتقل إلى باريس.

فى فرنسا حقق دوسوسير النجاح الكامل، فبمجرد وصوله إلى جامعة باريس بدأ فى تدريس اللغات السنسكريتية والقوطية Gothic والألمانية القديمة، وبعد عام ١٨٨٧ وسّع من دروسه لتغطى الفيلولوجيا الهندية الأوربية عموماً، وظل يمارس تأثيره فى مجال اللغة الاجتماعى وبخاصة على الجيل الأصغر من علماء اللغة الفرنسيين. وفى عام ١٨٩١، وبعد ترشيحه لدرجة الأستاذية بجامعة جنيف، قرر العودة إلى سويسرا. ولم يستطع زملاؤه الفرنسيون الأكبر سناً، ولم تستطع كل مظاهر الاحترام والحفاوة التى أظهروها له أن تبقيه فى جامعة باريس.

فى جامعة جنيف كان عدد تلاميذ «الأستاذ» أقل وأبطأ تقدماً فى تحصيل العلم عن مثيلهم فى جامعة باريس، وقد قام دوسوسير حينذاك بتدريس اللغة السنسكريتية وعلم اللغة التاريخى، وتزوج وأصبح أباً لاثنين من الأبناء، وكان نادر السفر، ويبدو أنه استسلم للخمول الإقليمى المحلى، وبدأت كتاباته فى التضاؤل شيئاً فشيئاً، واستسلم للأحزان. فهو فى خطاب كتبه فى عام ١٨٩٤ – وهو أحد الوثائق الشخصية القليلة التى تم العثور عليها – يشير إلى «مقال» كان قد سلمه إلى أحد الناشرين، فنقرأ: «... ولكنى سئمت كل هذا، حتى أصبح من الصعب علىّ كتابة مجرد عشرة أسطر حول القضايا اللغوية بحس جيد، لقد كان أول ما يشغلنى هو التصنيف المنطقى للحقائق اللغوية، وتصنيف موضوعات وجهة النظر التى أعالج هذه الحقائق اللغوية منها. إننى على وعى متزايد بالقدر الهائل المطلوب منى من البحث كى أظهر للباحث اللغوى ما يقوم به... عدم ملاءمة المصطلحات التقنية السائدة، ومدى الحاجة لإصلاحها، ولكنى، لكى أقوم بإنجاز ذلك، ولكى أقوم بشرح نوعية الموضوع الذى تمثله اللغة، فإن ذلك يسلبنى باستمرار استمتاعى بالفيلولوجيا. فعلى الرغم من أنه ليس هناك أمنية أعز عندى من عدم التفكير فى طبيعة اللغة إلا أن الأمر سوف يؤدى بى – ضد إرادتى – إلى كتابة كتاب سوف أشرح فيه دون تحيز أو انفعال سبب عدم وجود مصطلح واحد فى علم اللغة الآن يمكن أن يتضمن أى معنى بالنسبة لى، وبعد ذلك فقط سيكون بمقدورى متابعة البحث الفيلولوجى عند النقطة التى توقفت عندها».

ولكن دوسوسير وللأسف لم يكتب «هذا الكتاب» قط وإنما قام ببحث فى اللغة الليتوانية Lithuanian، والخرافات الألمانية فى العصور الوسطى، ودوّن الكثير من الملاحظات حول نظرية الجناس التصحيفى فى القصائد اللاتينية. وفى عام ١٩٠٦ ونظراً لتقاعد أحد أساتذة جامعة جنيف عهدت إدارة الجامعة إليه بمهمة تدريس مقرر «علم اللغة العام». وفى السنوات التالية (١٩٠٧، ١٩٠٨/ ١٩٠٩. ١٩١٠/ ١٩١١) ألقى دوسوسير محاضراته فى هذا المقرر، وهى المحاضرات التى أصبحت فى النهاية كتاباً بعنوان «محاضرات فى علم اللغة العام»، وفى صيف عام ١٩١٢ سقط مريضاً، وتوفى فى فبراير من عام ١٩١٣ عن عمر يناهز السادسة والخمسين.

ولكن فعلى الرغم من النجاح الملحوظ الذى تحقق لدوسوسير أثناء حياته الأكاديمية فإن سيرة حياته لم تكن سيرة حياة عادية بأى حال. فقد أكدت كتاباته المنشورة مكانته المرموقة فى تاريخ الفيلولوجيا، مكانة لا تقل بأى حال عن تلك المكانة التى تحققت لبعض النحاة الشبان أو النحاة الجدد البارزين من أمثال بروجمان وڤيرنر

Verner اللذين لا يعرفهما اليوم سوى دارسى الفيلولوجيا المتخصصين. وكان من حسن حظه البالغ أن حرص زملاؤه وتلاميذه على الاحتفاظ بالمحاضرات التى ألقاها فى علم اللغة العام، وأخرجوا إلى النور هذا المجلد القيم الذى جعل منه هذا المفكر الرائد.

وتلك مهمة لم تكن - وكما يروى بالى Bally وسيشيهاى Sechehaye فى تقديمهما لـ «المحاضرات» - مهمة سهلة بأى حال. نظراً لأن دوسوسير لم يحتفظ بأية مسودات خاصة بالمحاضرات التى ألقاها فى علم اللغة العام، ونظراً لأنه لم يكن بين يدى المحررين كذلك سوى تلك الملاحظات التى دونها الطلاب الذين ألقيت المحاضرات عليهم. حتى إن نجح المرء فى التوصل إلى بعض الأفكار الواضحة (لما قاله دوسوسير فى ثلاث سلاسل من المحاضرات) من خلال الموازنة بين الملاحظات التى دونها الطلاب والمقارنة بينها، فسوف تظل هناك مشكلة رئيسية. وذلك لأن طبع تدوينات الطلاب لسلاسل المحاضرات الثلاث فيه تكرار للنصوص (هذا إذا تغاضينا عن التضاربات فى تلك التدوينات)، ثم إن الاكتفاء بطبع سلسلة واحدة من المحاضرات سوف ينتج عنه حذف جزء كبير من أفكار دوسوسير ، وذلك لأنه فيما يبدو قام بتأليف كل سلسلة محاضرات منها من جديد، ووفقاً لخطة مختلفة. وأمام هذه المشكلة المحيرة اتخذ المحرران - زميلا دوسوسير اللذان لم يحضرا بنفسيهما هذه المحاضرات - قرارهما الجرئ الذى كان مسئولاً عن كل هذا التأثير المتأجج الذى مارسه دوسوسير. فقد قررا تأليف بحث واحد وإعطاء الأسبقية للسلسلة الثالثة من المحاضرات مع الاعتماد فى الوقت نفسه على المادة المستقاه من السلسلتين الأخريين، وعلى الملاحظات الشخصية التى دونها دوسوسير بنفسه.

قد يرتجف معظم الأساتذة حين يفكر أى منهم فى إمكانية أن يصادر أحد غيرهم وجهات نظرهم بتلك الطريقة. وبالفعل فمن غير المعتاد أن يرجى من القيام بمثل هذا الاجراء - المملوء باحتمالات إساءة الفهم والحلول الوسط - تقديم عمل مهم. ومع ذلك فالحقيقة ثابتة، لقد كان كتاب «محاضرات فى علم اللغة العام» كما حرره بالى و سيشيهاى هو المصدر الوحيد لكل التأثير الذى مارسه دوسوسير وشهرته. ولم يكن فى الإمكان قبل عام ١٩٦٧ الانتقال إلى أبعد من هذا النص المحرر، ففى هذا العام قام رودلف انجلر R. Engler بنشر الملاحظات التى دونها الطلاب التى تم تأليف المحاضرات منها. وعلى الرغم من ذلك فقد كان نص «محاضرات فى علم اللغة العام» هو «النص» الذى مارس كل هذا التأثير المتأجج فى الأجيال المتتابعة من الدارسين اللغويين.

وتلك حقيقة ثابتة لا يمكن دحضها بأى حال.ومع ذلك فهى تطرح على مناقشتنا الحالية قضية أخرى. لأنه إذا كانت أهمية دوسوسير سواء فى علم اللغة أو التخصصات الأكاديمية الأخرى لم تقم على ما كان يتوخاه هو بالفعل بقدر ما قامت على ما تضمنه «النص المحرر من المحاضرات»، فإن وجود ملاحظات الطلاب ومدوناتهم منشورة توجد لدى المرء الرغبة للإشارة إلى المواضع التى أخذ المحرران فيها حريتهما عند تحرير المحاضرات، أو المواضع التى أساءا فيها فهم أفكار دوسوسير أو حرفاها. فإذا كان لابد من الاعتراف بأن المهمة التى قام بها بالى وسيشيهاى مهمة مثيرة للإعجاب والتقدير فإن هناك أسباباً قوية للقول بأنهما لم ينجحا فى إنجاز تلك المهمة بالقدر الذى كان يأمله المرء لها، فلربما لم يكن ترتيبهما للأفكار هو الترتيب الذى قد يختاره دوسوسير لعرض أفكاره؛ لأن هذا الترتيب لا يعكس فى الواقع التتابع المنطقى «المحتمل» لمناقشاته. فلم يخضع المحرران على سبيل المثال مفهوم الطبيعة العشوائية للعلامة لكم المناقشة التى خضع لها هذا المفهوم فى ملاحظات الطلاب، ولم يدققا بالقدر الكافى فى مناقشة دوسوسير للخطة الصوتية للغة، فقد توقفت تلك المناقشةعند مصطلحاتهما «هما» التقنية. وتلك مسائل مهمة لا يستطيع المرء أن يتجاهلها كلية. ولذلك فعلى الرغم من أن تركيزى سوف ينصب فى المحل الأول على نص «محاضرات فى علم اللغة العام» ، إلا أننى سأحاول بقدر الإمكان إعادة إثبات منطق تفكير دوسوسير من خلال إعادة ترتيب العرض، وسوف ينصب اهتمامى الرئيسى على الدروس السوسيرية كما ظهرت فى «الكتاب» ومكانتها فى تاريخ علم اللغة هذا إلى جانب العرض الدقيق لنظرية دوسوسير فى اللغة. وهو الموضوع الذى سأنتقل إليه الآن، ولن أتردد فى تصويب مختلف السقطات العرضية التى وقع فيها المحرران.

الفصل الثانى

نظرية اللغة
عند
دوسوسير

كان دوسوسير حزيناً على علم اللغة الذى عانى منه زمناً طويلاً بسبب عدم اهتمام أسلافه بالتفكير الدقيق فيما كانوا يقومون به. ولذلك كتب: «لم يحدث وأن حاول علم اللغة أبداً أن يفصل فى طبيعة الموضوع الذى يدرسه أو يدلى برأى فيه، وبدون القيام بتلك العملية الأولية لا يمكن لأى علم تقديم المنهج الملائم الخاص به»(١). فالفصل فى طبيعة موضوع علم اللغة يعد إحدى العمليات الضرورية لهذا العلم. وذلك لأن اللغة الإنسانية تعد إحدى الظواهر المعقدة وغير المتجانسة إلى أقصى الحدود، إلى درجة أن الفعل الكلامى الواحد يتضمن سلسلة طويلة من العوامل، ولذلك يمكن دراسته من وجهات نظر متعددة، بل ومتناقضة فى بعض الأحيان. فبإمكان المرء أن يدرس الطريقة التى يتم بها إنتاج الأصوات عن طريق الفم والأحبال الصوتية واللسان، وبإمكانه أيضاً أن يبحث الموجات الصوتية التى يتم اخراجها من الفم والطريقة التى تؤثر بها الموجات الصوتية فى ميكانيزم السمع، وبإمكانه أن يتأمل فى القصد الدلالى للمتحدث، أو فى مظاهر العالم الخارجى التى يشير كلامه إليها، أو فى الظروف الفورية للسياق الاتصالى التى تؤدى به لإنتاج سلسلة خاصة من الأصوات أو الضوضاء. وقد يحاول المرء تحليل الأعراف التى تمكن المتحدث والمستمعين من فهم بعضهم بعضاً، أو استنتاج القواعد النحوية والدلالية التى يجب أن يتمثلوها إذا أرادوا الاتصال فيما بينهم بهذه الطريقة. وبإمكان المرء أن يقوم بما هو أكثر من ذلك، أى أن يقوم بتتبع تاريخ اللغة الذى أتاح وجود مثل هذه الأشكال الخاصة فى عصر محدد بالذات.

أمام كل هذه الظواهر وكل تلك المنظورات المتباينة التى يمكن للمرء منها فهم هذه الظواهر يجب أن يسأل عالم اللغة نفسه: ما الذى يصفه على وجه التخصيص؟، وما الذى يتطلع إليه بالتحديد؟، بإختصار ما اللغة؟. ولقد كانت إجابة دوسوسير على هذا السؤال إجابة شاملة ومهمة إلى أبعد الحدود، ذلك لأنها أدت إلى توجيه الانتباه إلى المبادئ الأساسية: اللغة نسق من العلامات، وأية ضوضاء لا تعد بحد ذاتها لغة إلا

(١) De Saussure , F.; Course in General Linguistics, translated by Wade Paskin, London : Peter Owen, 1960, Fountana 1974, p. 3.

وسوف نشير إلي هذا المرجع فيما بعد بـ Course .

De Saussure, F.; Cours de Liguistique générale, edited by Tullio de Mauro. Paris : Payot 1973, p. 16.

وسوف نشير إلى هذا المرجع فيما بعد بـ Cours.

حين تستخدم للتعبير عن الأفكار أو لإيصالها. وفيما عدا ذلك فالضوضاء ما هى إلا ضوضاء. ولإيصال الأفكار يجب أن تكون هذه الضوضاء جزءاً من نسق من الأعراف، أى جزء من نسق من العلامات والعلامة sign ما هى إلا اتحاد بين شكل بالذات (يسميه دوسوسير دالاً signifiant) وفكرة محددة بالذات (يسميها دوسوسير مدلولاً signifié)، وإذا كنا نستطيع الحديث عن «الدال» و «المدلول» كما لو كانا كينونتين مستقلتين فإنهما لا يوجدان فى الحقيقة إلا بوصفهما العنصرين المكونين للعلامة. فالعلامة هى الحقيقة المحورية فى اللغة. وإذا أردنا أن نفصل بين الجوهرى وبين الثانوى أو العرضى فإن علينا أن نبدأ من طبيعة العلامة ذاتها.

١- الطبيعة العشوائية للعلامة:

يركز المبدأ الأول فى نظرية اللغة عند دوسوسير على الصفة الأساسية للعلامة، العلامة اللغوية عشوائية، فأى توافق متفق عليه بين «دال» و «مدلول» بعينهما هو بذاته توافق عشوائى، وتلك هى إحدى الحقائق المحورية فى اللغة، وفى المنهج اللغوى على حد سواء. وعلى حد تعبير دوسوسير: «ليس هناك من بمقدوره تفنيد مبدأ الطبيعة العشوائية للعلامة، وإن كان اكتشاف إحدى الحقائق أسهل بكثير من تعيين موضعها الشرعى الصحيح. وهكذا فعلى الرغم من هيمنة هذا المبدأ على التحليل اللغوى لأية لغة فإن المرء لا يستطيع حصر النتائج المترتبة عليه، وذلك بسبب عدم تكافؤ درجات وضوحها الفورى، وعلى أى حال ليس بمقدور المرء اكتشاف أهمية هذا المبدأ فى التحليل اللغوى إلا بعد الكثير من الانعطافات» (٢).

ما الذى يعنيه دوسوسير بالتحديد بالطبيعة العشوائية للعلامة؟. والإجابة بسيطة للغاية: لا يوجد أى ارتباط حتمى أو طبيعى بين «الدال» و «المدلول». فلأنى أتحدث الانجليزية فإننى أستخدم دالاً تمثل فى dog لأتكلم عن أحد الحيوانات أو عن أحد الأنواع الحية المحددة. وهذه المتتالية أو تلك السلسلة المتعاقبة من الأصوات بالذات ليست أكثر ملائمة لتحقيق هذا الغرض بالذات عن أية متتالية أو سلسلة متعاقبة أخرى من الأصوات؛ حيث يمكننى استخدام lot أو tet أو bloop أو أى متتالية أخرى للغرض ذاته ، بشرط أن تصادف المتتالية المختارة القبول بين أعضاء المجتمع الكلامى المحلى الذى أنتمى إليه. فليس هناك سبب جوهرى أو فعلى يقول أن «دالاً» بالذات وليس

(٢) Caurse, p. 68, Cours, p. 100.

«دال» آخر يجب أن يرتبط بمفهوم 'dog'(٢).

لا بأس ولكن! ألايوجد استثناءات لهذا المبدأ الأساسي؟.

والإجابة بطبيعة الحال بالإيجاب، فهناك طريقتان يمكن لأى منهما أن تجعل من العلامات اللغوية علامات غير عشوائية. أولاً هناك حالات تسمية الأشياء والأفعال بحكايات أصواتها onomatopoeia، حيث يظهر صوت «الدال» متسماً بشكل ما بالتقليد أو المحاكاة، كما نجد فى الانجليزية bow - wow و arf - arf] وفى الفرنسية ouâ - ouâ، والألمانية wau - wau والإيطالية bau - bau/ إلا أن هذه الحالات قليلة جداً. وفى الواقع فنحن نعدها فئة منعزلة من العلامات،: ونؤكد بشدة على أن العلامات المعتادة تتصف بالعشوائية.

على أى حال فالعلامات تتحرك داخل اللغات أو يتم شحنها بطرق مختلفة، على سبيل المثال تسمى الماكينة أو الآلة التى أكتب عليها typewriter، وبطبيعة الحال لم يكن هناك سبباً جوهرياً لعدم تسميتها grue أو blimmel. ولقد اصطبغت typewriter فى الإنجليزية بصبغة خاصة نتيجة ارتباط معنيى المتتاليتين الصوتيتين اللتين تؤلفان دالها وهما type و writer بمفهوم الآلة الكاتبة 'typewriter' وهو ما يعرف باسم الشحن أو التحريك الإضافى. ولكن يجب أن نلاحظ أن العلاقة القائمة بين متتالية الصوت هذه والمفهوم الناتج عنها لا توجد سوى فى اللغة الانجليزية فقط، لأنه لو حدث واستخدم أحد الفرنسيين الشكل ذاته للحديث عن تلك الآلة فإن عليه أن يستخدم علامة عشوائية كلية. ذلك لأن المكون الأصلى writer ليس بعلامة فى اللغة الفرنسية. علاوة على ذلك – وكما ذهب دوسوسير كما سنرى بعد – فإن عملية ضم type و writer لخلق علامة جديدة تماثل تماماً الطريقة التى يتم ضم الكلمات بها أو تجميعها لتشكيل عبارات (معناها قد ارتبط بالمعانى المتجمعة فى الكلمات المفردة). ولذلك بإمكاننا القول إن لكل اللغات علاماتها العشوائية الخاصة بوصفها عناصر أساسية لها، وأن لديها عملياتها المختلفة لضم هذه العلامات أو التجميع بينها، ولكن ذلك لن يبدل من الطبيعة الجوهرية أو الفعلية للغة ومكوناتها الأولية على الإطلاق.

العلامة عشوائية، أى لا توجد أية رابطة تكوينية أو جوهرية بين الدال والمدلول.

(٢) لاحظ أننى أستخدم هنا الحروف الإيطالية المائلة للإشارة إلى الأشكال اللغوية (مثال dog وlot) واستخدم علامات الاقتباس للإشارة إلى المعانى (مثال dog) وسوف أستمر فى ذلك فى كل كتاب.

تلك هى الكيفية التى تم بها تأويل مبدأ دوسوسير دائماً. ولكن تأويل هذا المبدأ بهذا المنوال لا يعبر إلا عن أحد التصورات التقليدية للغة أو عن إحدى الحقائق الواضحة إلى حد ما حولها، حيث لا يمكن أن يترتب على هذا التأويل بهذه الطريقة المحدودة تلك النتائج الخطيرة التى طالب دوسوسير بها كثيراً حسب ما تذهب إليه ملاحظات الطلاب: «الوضع الهرمى لتلك الحقيقة فى ذروته، وسوف يدرك المرء تدريجياً إلى أى حد لم تكن كثير من الحقائق المختلفة مجرد تفرعات أو تشعبات لتلك الحقيقة فحسب، وإنما كانت نتائج مستترة لها» (٤). ولذلك يوجد فى مبدأ الطبيعة العشوائية للعلامة ما هو أكثر من العلاقة العشوائية بين الدال والمدلول. وهذا هو ما يجب علينا أن نلفت النظر إليه.

استناداً إلى ما ذكرته حتى الآن فيما يتعلق بالدال والمدلول قد يجنح المرء إلى الظن أن اللغة مجرد عملية تسمية **nomenclature**: سلسلة من الأسماء اختيرت عشوائياً ونسبت إلى مجموعة من الموضوعات أو من المفاهيم. لأن من السهل جداً التفكير فى اللغة – كما يقول دوسوسير – كما لو كانت مجموعة من الأسماء، ثم نروى قصة آدم المقدسة لتسمية البهائم أو الحيوانات على حساب الطبيعة الأولية للغة. فلو زعم المرء أن مفهوم كلب **'dog'** قد ترجم فى الانجليزية بـ **dog** أو تم التعبير عنه فى الانجليزية بهذا الاسم، وفى الفرنسية بـ **chien**، وفى الألمانية بـ **Hund** فسوف يفهم هذا المرء بداهة أن لكل لغة من تلك اللغات اسم عشوائى لهذا المفهوم، وأن وجود المفهوم أسبق على وجود أية لغة منها ومستقلاً تماماً عنها.

لو كانت اللغة – ببساطة – مجرد تسمية لمجموعة من المفاهيم الكونية، فلربما كان من السهل على المرء الترجمة من لغة إلى لغة أخرى. وأن يستبدل مباشرة الاسم الفرنسى الذى يشير للمفهوم بالاسم الانجليزى الذى يشير إليه. ولو كانت اللغة كذلك فلربما كانت مهمة تعلم احدى اللغات الجديدة أيضاً أسهل بكثير مما هى عليه بالفعل. ومع ذلك فإن أى شخص سبق له وأن حاول الترجمة من لغة لأخرى أو حاول تعلم لغة جديدة يعرف بالأدلة المباشرة أن اللغات ليست مجرد تسميات، وأن مفاهيم لغة بعينها ومدلولاتها تختلف جذرياً عن مثيلاتها فى أية لغة أخرى. فالكلمة الفرنسية **'aimer'** لا

(٤) De Saussure, F.; Cours de Liguistique générale, critical edition by Rudolf Engler Wiesbaden : O. Harrassowitz. 1967 - 74. Two Volumes, four fascicules

وسوف نشير إلى هذا المرجع فيما بعد بـ Engler.

تُدرج حرفياً فى الانجليزية، وعلى المرء الاختيار بين 'to like' و 'to love' وتتضمن الكلمة الفرنسية 'démarrer' إحدى الأفكار التى تعبر الإنجليزية عنها بـ 'moving off' و 'accelerating' وتغطى الكلمة الإنجليزية 'to know' الدائرة الدلالية التى تتضمنها الكلمتان الفرنسيتان 'connaitr' و'savoir' . وليس لتصورات الإنجليزية للرجل الشرير 'wicked' أو المدلل 'pet' أى نظائر فى الفرنسية. بل هناك ما هو أكثر من ذلك، فما تطلق الإنجليزية عليه أزرق فاتح 'light blue' وأزرق غامق 'dark blue' وتعدهما ظلين لأحد الألوان المستقلة يعدان فى الروسية لونين أوليين متمايزين. فكل لغة تصنف العالم الموضوعى الخارجى وتبنيه بشكل مختلف. واللغات لا تسمى الفئات الموجودة فحسب، وإنما تبنيها حسب هواها وبكامل حرياتها.

علاوة على ذلك لو كانت اللغة مجرد قائمة من الأسماء المخصصة للمفاهيم المستقلة الوجود لكان من المحتم إذن أن تبقى تلك المفاهيم – أثناء التطور التاريخى للغة – ثابتة تماماً، ولكن الدوال – على الخلاف من ذلك – تتطور، بمعنى أنه يمكن لأية متتالية محددة من الأصوات المرتبطة بمفهوم محدد أن تتحول عنه وأن تُنسب فى الوقت نفسه لمفهوم آخر . فبين الحين والآخر قد يفرض على إحدى العلامات الجديدة أن تستخدم للإشارة إلى مفهوم جديد نشأ عن تغيرات حدثت فى العالم الخارجى. ومع ذلك فالمفاهيم ذاتها – بوصفها كينونات مستقلة عن اللغة – لا تكون أبداً موضوعاً للتطور اللغوى.

ومع ذلك فتاريخ اللغات مملوء بسوابق لمفاهيم تبدلت حدودها وتغيرت. فقد كانت الكلمة الإنجليزية cattle – على سبيل المثال – تعنى فى إحدى المراحل التاريخية معنى «الملكية» بشكل عام. ثم اقتصرت بالتدريج على إفادة ملكية ذوات الأربع بالتحديد (مقولة جديدة)، ثم اتخذت أخيراً معناها الحديث المتصل بالماشية العائلية.أو من ناحية ثانية كان مفهوم a 'silly' person يشير ذات يوم إلى الشخص السعيد الذى تكسوه البركة والجدير بالاحترام لورعه، ثم تغير هذا المفهوم تدريجياً، وتغير مفهوم 'silliness' القديم ذاته وأصبح مفهوم الـ silly person مع بداية القرن السادس عشر يشير للشخص الساذج العاجز الجدير بالشفقة. وقد استمر هذا التغير حتى أصبح مفهوم الـ silly person يعنى الشخص الأحمق وربما الشخص الغبى أيضاً.

لو كانت اللغة مجرد عملية تسمية لكان من المحتم علينا أن نقرر أن هناك عدداً من المفاهيم المتميزة. وأن الدال silly قد ألصق فى البداية على إحداها، ثم أُلصق بعد ذلك على مفهوم آخر منها. ولكن ذلك لم يحدث. فما حدث هو أن المفهوم الذى إلتصق

بالدال silly كان يُبدل من حدوده باستمرار، وكان يغير من هيئته الدلالية بالتدريج مبيناً مشاهد العالم بطرق اختلفت من عصر للعصر الذى يليه. وبالمناسبة فقد تطور الدال أيضاً وخضع لتعديل فى صائته الأوسط.

والسؤال الآن: ما مغزى هذا الكلام؟ وماذا يضيف إلى الطبيعة العشوائية للعلامة؟. ومغزى هذا الكلام أن اللغة ليست تسمية؛ لأن مدلولاتها ليست مفاهيم سابقة الوجود وإنما هى مفاهيم متغيرة وطارئة، بل وتتباين تبعاً للوضع التاريخى للغة. ولأن العلاقة بين الدال والمدلول علاقة عشوائية - بمعنى أنه ليس هناك سبب ضرورى لنسب مفهوماً بالذات وليس مفهوم آخر لدال بالذات - فلا يوجد خاصة أو صفة محددة بالذات يجب أن يتصف المفهوم بها كى يُعد مدلولاً لهذا الدال. فالمدلول الذى ارتبط بإحد ى الدوال يمكن أن يتخذ أى شكل كيفما اتفق، وليس هناك جوهر فعلىّ فى المعنى يوجب الاحتفاظ به كى يعد بذاته المدلول الشائع لهذا الدال. فحقيقة كون العلاقة بين الدال والمدلول علاقة عشوائية تعنى عدم وجود مفاهيم كونية ثابتة، أو دوال كونية ثابتة. وتعنى أيضاً أن المدلول ذاته عشوائى وأن الدال كذلك، ومن ثم يجب أن نتساءل مع دوسوسير ما الذى يحدد أى دال أو أى مدلول؟ وسوف تقودنا الإجابة على هذا السؤال إلى أحد المبادئ المهمة إلى أقصى الحدود: «الدال» وكذلك «المدلول» كلاهما كينونتان عقلانيتان مجردتان، فلكونهما كينونتين عشوائيتين فهما كينونتان عقلانيتان. وهو مبدأ يحتاج منا التفسير.

٢ - جوهر الوحدات اللغوية:

يضع دوسوسير أهمية عظمى - أعظم بكثير مما يظهر فى النص المحرر من المحاضرات - على عدم كون اللغة «تسمية»؛ لأنه إن لم نع ذلك جيداً فلن نستطيع فهم التفريعات الكاملة لمبدأ الطبيعة العشوائية للعلامة. فاللغة لا تنسب مجموعة من الأسماء العشوائية إلى قائمة من المفاهيم المستقلة الوجود، وإنما توجد علاقة عشوائية بين دوال تتمتع بحرية الاختيار من ناحية، ومدلات تتمتع بحرية الاختيار كذلك من ناحية أخرى. فكل لغة لا تقدم قائمة مختلفة من الدول فقط (أى تستخدم متصل الصوت وتوزعه بأسلوب فريد متميز فقط) أو تقدم قائمة نوعية فريدة من المدلولات فقط، وإنما لديها

أيضاً أسلوبها المتميز – وكذلك العشوائي – لتبويب العالم وتأسيسه في مفاهيم أو في مقولات .

من الواضح أن متتاليات صوتية مثل **fleuve** و **rivière** تعد من دوال الفرنسية وليس من دوال الإنجليزية. في حين أن متتاليات صوتية مثل **river** و **stream** تندرج ضمن دوال الإنجليزية وليس ضمن دوال الفرنسية. إلا أن الأمر غير الواضح – على الرغم من مغزاه العميق – هو اختلاف تنظيم المستويين التصوريين في هاتين اللغتين. ففي الإنجليزية يختلف مدلول **'river'** عن **'stream'** لتعبيره عن الحجم الأكبر. في حين أنه في الفرنسية لا يختلف مدلول **'fleuve'** عن **'rivière'** لتعبيره عن الحجم الأكبر بالضرورة، وإنما لتعبيره عن الصب في البحر. بإختصار لا يعد مدلولا **'fleuve'** و **'rivière'** من بين مدلولات الإنجليزية أو من بين مفاهيمها ؛ لأنهما يمثلان لفظين يختلف مستواهما التصوري عن المستوى التصوري في هذه اللغة.

تشير حقيقة قيام هاتين اللغتين بمهمتيهما بشكل دقيق وفقاً لاتساقين أو تمييزين تصوريين مختلفين؛ إلى أن تلك التقسيمات التصورية ليست طبيعية أو حتمية أو ضرورية، وإنما هي تقسيمات – ويمعنى له أهميته – عشوائية. فمن المهم – كما هو واضح – أن يكون للغة أساليب للتعبير عن الكتل المتدفقة من الماء، إلا أن بمقدور اللغة ممارسة تمييزاتها التصورية في هذا المجال بما تراه من أساليبها المتنوعة (الحجم، هدوء حركة التدفق، الاستقامة، التعرج، اتجاه تدفق الماء، العمق، الصلاحية للملاحة... إلى آخره). فليس بمقدور اللغة الاختيار العشوائي لدوالها فقط، وإنما بمقدورها تقسيم طيف الإمكانيات التصورية بأي أسلوب تفضله أيضاً.

علاوة على ذلك، ونحن الآن بصدد إحدى القضايا المهمة، فإن كون هذه المفاهيم تقسيمات عشوائية بالفعل لمتصل لا يعني كونها كينونات مستقلة، بحيث تتحدد كل كينونة منها بجوهرها. وإنما يعني أن تلك المفاهيم أعضاء في أحدالأنساق، وأن كل عضو منها لا يتحدد سوى بالعلاقات القائمة بينه وبين بقية أعضاء هذا النسق. فإذا رغبتُ في تفسير معنى كلمة **stream** (وتعني جدول) لأحد الإنجليز يجب على الإشارة إلى الاختلاف القائم بين الجدول والنهر والشلال... إلخ. وبالطريقة نفسها لا يمكنني تفسير معنى **'rivière'** لأحد الفرنسيين دون وصف الاختلاف القائم بين **'rivière'** و**'fleuve'** من جانب وبين **'rivière'** و **'ruisseau'** من جانب آخر.

من ناحية أخرى تعد مصطلحات الألوان بالتحديد المثال النموذجي لتلك الصفة المميزة للعلامة. لنفترض أننا نرغب في تعليم الألوان في الإنجليزية لأحد الطلاب الأجانب. ولنفترض أيضاً أنه طالب بطئ الاستيعاب نظراً لانتمائه لثقافة غير أوروبية. فلإنجاز هذه المهمة بنجاح علينا أن نقوم برسم استراتيجية تدريسية فعالة. وقد يبدو لنا أن أفضل السبل لتعليم هذا الطالب الأجنبي الألوان في الانجليزية هو أن نتناول في كل درس أحد الألوان. فنبدأ – على سبيل المثال – باللون البني **brown** ولا ننتقل إلى أحد الألوان الأخرى إلا بعد أن نتأكد أنه أتقن معرفة اللون البني. وهكذا نشرع في عرض الموضوعات البنية اللون عليه، ونخبره أنها بنية اللون. وحرصا منا على نجاح هذا الإجراء بوصفه أداة للتعليم جمعنا عدداً من الموضوعات البنية اللون (وليكن مائة من مختلف أنواع الموضوعات). وبعد أن شعر الطالب الأجنبي بالملل وشعرنا نحن كذلك ننتقل معه إلى حجرة أخرى لنقوم بإختبار مدى معرفته للون البني **'brown'**، فنطلب منه تحديد كل الموضوعات البنية اللون في تلك الحجرة. ويشرع الطالب الأجنبي في الاستجابة إلا أنه يتوقف لصعوبة الاختيار. وبعد أن ينفذ صبرنا معه نقرر أننا لم نكن بالنسبة لهذا الطالب وسيلة التعليم الفعالة حتى الآن. ونبدأ في اليوم التالي من جديد بعد أن نكون قد أحضرنا خمسمائة موضوع بني اللون.

من حسن الحظ أن معظمنا لا يتبنى مثل هذا الحل العقيم. ويعترف بعدم صحة هذا الإجراء، لأنه على الرغم من ضخامة عدد الموضوعات البنية اللون التي تم عرضها على الطالب الأجنبي إلا أنه لم يعرف معنى اللون البني **brown**، ولن يكون بمقدوره اجتياز اختباراتنا إلا إذا قمنا بتعليمه التمييز بين البني والأحمر، والبني والأسود المصفر، والبني والرمادي، والبني والأصفر، والبني والأسود؛ لأن هذا الطالب الأجنبي لن يبدأ في فهم اللون البني إلا حين يفهم العلاقة القائمة بين هذا اللون وبقية الألوان الأخرى. والسبب في ذلك أن اللون البني ليس بذاته مفهوماً مستقلاً قد تحدد وفقاً لبعض الخصائص الجوهرية، وإنما هو مصطلح لوني واحد داخل نسق مصطلحات الألوان. مصطلح تحددت هويته بالعلاقات القائمة بينه وبين بقية المصطلحات الأخرى التي تحده داخل هذا النسق.

في الواقع تنقلنا هذه الخبرة التدريسية إلى فهم أن العلامة عشوائية، وأنها ليست سوى نتيجة لتقسيم «متصل» بالأساليب الخاصة باللغة التي تنتمي إليها. وأننا

لا نستطيع معالجة العلامة على أنها كينونة مستقلة بذاتها، وإنما يجب أن ننظر إليها بوصفها جزءاً من نسق. وهذا لا يعنى أنه لكى نعرف معنى البنى **brown** يجب على المرء فهم الأحمر **red** الأسود المصفر **tan** والرصاصى **grey** والأسود **black**... إلخ. وإنما بالأحرى يعنى أن مدلولات مصطلحات الألوان ليست سوى نتاج لنسق من التمييزات أو نتيجة له؛ حيث تقدم اللغة - نتيجة تقسيم طيف الألوان، وتمييزها بين المقولات التى تسميها ألواناً - نسقاً مختلفاً من المدلولات: أى تقدم وحدات تعتمد قيمتها على العلاقات القائمة فيما بينها. وكما يقرر دوسوسير معمماً هذه المسألة: «علاوة على ذلك فنحن نكتشف فى كل الحالات عدم وجود أية أفكار **ideas** مقدماً، وأنه لا توجد سوى القيم **values** التى انبثقت عن النسق. وحين نقرر أن تلك القيم تنطبق على المفاهيم، يجب أن يكون مفهوماً أن تلك المفاهيم مفاهيم إختلافية محض، أى أنها لم تتحدد إيجابياً بمحتواها أو جوهرها الذاتى ، وإنما تحددت سلباً بعلاقاتها القائمة بينها وبين الحدود الأخرى التى تحدها داخل النسق. وأن أكثر صفاتها المميزة دقة أنها (هى) مالا (هو) المفاهيم الأخرى»(٥). فاللون البنى هو ماليس بأحمر أو بأسود أو برصاصى أو بأصفر... إلخ. وينطبق المبدأ نفسه على كل مدلول من مدلولات الألوان الأخرى.

على الرغم من تناقض هذه النتيجة فإنها تعد بذاتها إحدى النتائج الرئيسية التى ترتبت على الطبيعة العشوائية للعلامة. وسوف نعود إليها بعد قليل. ومع ذلك ربما كان أسهل الطرق لفهم التصور الخاص بالطبيعة العلاقية المحضة للوحدات اللغوية هو أن نتناولها من زاوية أخرى. لندرس مشكلة التطابق فى علم اللغة: فنتساءل متى يعد التعبيران (أو جزءاً أى تعبير) مجرد أمثلة لإحدى الوحدات اللغوية المستقلة؟ ولنفترض أن أحد الأشخاص قد قال لى: **'I bought a bed today'**، وقد أجبت على قوله بـ **'what sort of bed?'** ما المقصود حين نقرر أن إحدى العلامات اللغوية قد استخدمت مرتين فى هذه المحادثة القصيرة؟ وما الأساس الذى قررنا بناء عليه أن هناك مثالين أو إفاديتن للوحدة اللغوية ذاتها قد ظهرتا فى هذا الحوار؟ (ولنلاحظ أننا قد سلمنا جدلاً بالفعل بالتمثيل الصوتى لجزء من هذه الضوضاء ، لأن كل فرد منا اعتبره **bed**). فى الوقع فالضوضاء الفعلية التى تم إنتاجها لتمثيل الجزء **'bed'** مختلفة قياسياً - أى

Course, p. 117; Cours, p. 162. (٥)

تختلف من وجهة النظر الفيزيائية السمعية - فالأصوات تتباين فى العادة، ونحن نستطيع التعرف على صوت أحد الأصدقاء عبر التليفون بعد سماعنا لبعض كلماته؛ لأن الأدلة الفيزيائية الفعلية التى يصدرها هذا الصديق تختلف عن الأدلة التى يصدرها أصدقاؤنا الآخرون.

فى حديثنا القصير السابق اختلفت الضوضاء الفعلية التى أصدرها محدثى عن الضوضاء التى أصدرتها، إلا أن ما نود تأكيده هو أن كلاً منا قد أنتج الدال نفسه، وأن كلاً منا قد استخدم العلامة نفسها. ومع ذلك فإن «الدال» لا يماثل الضوضاء التى أصدرها محدثى أو التى أصدرتُها، لأنه يمثل إحدى الوحدات المجردة التى لا يمكن أن تتداخل مع أية متتالية من متتاليات الأصوات الفعلية. ولكن مما تتكون هذه الوحدة؟. يمكننا أن نتناول هذا السؤال بأن نتساءل إلى أى حد يمكن أن تتباين متتاليتان فعليتان من الضوضاء وتبقيان فى الوقت ذاته بمثابة متغيرين يعبران عن «الدال» ذاته؟. وهو تساؤل مماثل على أى حال للتساؤل الذى سبق لنا وأن طرحناه بشكل ضمني حول «المدلول»؛ إلى أى حد يمكن أن تتباين المتغيرات الفعلية للون البنى مع بقائه لوناً بنياً؟. والإجابة التى يمكن تقديمها على سؤال «الدال» هى الإجابة ذاتها التى قُدمت من قبل على سؤال «المدلول»: يمكن أن تتباين الضوضاء الصادرة الخاصة بأى «دال»، وتبقى هى ذاتها (لعدم وجود صفة جوهرية فيها) الضوضاء التى تعبر عن «الدال» ذاته، طالما أنها لم تتداخل بعد مع الضوضاء الصادرة الخاصة بالدوال المقابلة له. فهناك سلسلة من الاختيارات الحرة للطريقة التى يمكن أن ينطق بها الدال *bed* طالما أن طريقة النطق المختارة لهذا الدال لا تتداخل مع طريقة النطق الخاصة بالدوال: **bad, bud, bid, dode, bread, bled, bold, fed, head, led, red, said, wed, beck, bell, bet.** بتعبير آخر ، إن التمييزات أو الإختلافات هى الجانب المهم هنا، ولهذا السبب يكون للوحدات اللغوية هُوية علاقية محضة. وهو مبدأ ليس من السهل إدراكه؛ إلا أن دوسوسير يقدم لنا القياس التمثيلى الملموس التالى: نحن مستعدون تلقائيا للتسليم بأن قطار الثامنة وخمس وعشرين دقيقة (جنيف/ لندن) هو القطار اليومى نفسه، حتى إن تغيرت المركبات أو القاطرات أو تغير موظفو مصلحة السكك الحديدية بين يوم وآخر. فما يعطى قطار جنيف/ لندن هُويته هو موقعه فى نسق القطارات الذى أشارت إليه قائمة المواعيد. لاحظ أن الهُوية العلاقية للقطار هى بالفعل العامل الحاسم فى تحديده؛ حيث يظل هذا القطار هو القطار نفسه حتى وإن

غادر المحطة متأخراً عن موعده نصف ساعة، وهو كثيراً ما يغادر المحطة متأخراً بالفعل عن موعد قيامه المعروف دون أن يتسبب ذلك فى عدم اعتباره أنه هو ذاته قطار الثامنة وخمس وعشرين دقيقة (جنيف/ لندن). والأمر المهم هو تميز هذا القطار عن قطار العاشرة وخمس وعشرين دقيقة (جنيف/ باريس)، وعن قطار الحادية عشر وأربعين دقيقة (جنيف/... الذى يتوقف فى جمع المحطات)... وهكذا.

والقياس التمثيلى الآخر الذى يستخدمه دوسوسير لإيضاح تصوره للهُوية العلاقة المحضة للوحدات اللغوية هو المقارنة بين اللغة والشطرنج: فالوحدات الأساسية للشطرنج هى - وكما هو معروف - الملك والملكة والطابية والحصان والفيل والعسكرى. ولا أهمية للأشكال المادية الفعلية التى تتخذها تلك القطع أو المواد التى تُصنع منها. فقد يأخذ الملك أى شكل، وقد يكون فى أى حجم طالما أن هناك طرق للتمييز بينه وبين بقية قطع الشطرنج. وكذلك فليست الطابيتين فى حاجة للشكل المتماثل أو الحجم المتطابق طالما أنهما تتميزان عن بقية قطع الشطرنج. لذلك - كما يشير دوسوسير - لو فقدت إحدى قطع طقم الشطرنج فبإمكاننا أن نستبدلها بأى شئ آخر بشرط عدم تداخل هذا الشئ البديل مع الأشياء التى تمثل بقية قطع الشطرنج التى تتميز كل منها بإحدى القيم المختلفة(٦). فليس للخواص الفيزيائية الفعلية لقطع الشطرنج أهمية طالما أن هناك اختلافات قائمة فى القيم الخاصة بها. وهكذا بإمكان المرء أن يقرر عدم وجود هُوية فيزيائية فعلية لوحدات الشطرنج: بمعنى إنه ليس هناك خواص فيزيائية للملك... إلخ. فالهُوية برمتها هى إحدى وظائف الاختلافات داخل النسق. والآن لو طبقنا هذا القياس التمثيلى على اللغة فسوف يضعنا هذا التطبيق فى موضع نستطيع منه فهم إدعاء دوسوسير المتناقض: «فى نسق اللغة لا يوجد سوى الاختلافات فقط، اختلافات ليس لها أى حدود موجبة» (٧).

قياسياً حين نفكر فى الاختلافات فنحن نفترض مقدماً الشيئين المختلفين كل منهما عن الآخر، ولكن قضية دوسوسير فيما يتعلق بالدال والمدلول كليهما لم تكن بهذا المعنى، وإنما هى بالتحديد أنه مثلما لا نستطيع تقرير أى شئ يتعلق بشكل

(٦) Course, p. 110; Cours, 153 - 4.

(٧) Course, p. 120 ; Cours, p. 166.

«العسكرى» باستثناء أنه سوف يكون مختلفاً عن «الفرس» و «الفيل»... إلخ. كذلك لا نستطيع تحديد «الدال» الذى نمثله بـ 'bed' بأية ضوضاء خاصة تم استخدامها فى نطقه. هذا لا يكون لأن الضوضاء الفعلية تختلف من حالة لأخرى فقط، وإنما لأن اللغة الإنجليزية كان فى الإمكان ترتيبها؛ بحيث تستخدم الضوضاء التى عبرت الآن عن الدال pet للتعبير فى الأصل عن الدال bed. والعكس بالعكس. فلو كان قد حدث مثل هذه التغيرات لكان قد تم التعبير عن وحدات اللغة بشكل مختلف، ولظلت هذه الوحدات فى الأساس بمثابة الوحدات ذاتها (فالاختلافات نفسها باقية على مستوى الدال ومستوى المدلول كذلك) ولظلت اللغة هى ذاتها بمثابة اللغة الإنجليزية. وفى الحقيقة يمكن أن تظل اللغة الإنجليزية اللغة نفسها حتى إن لم يتم التعبير قط عن وحدات الدال فى هذه اللغة بالصوت، وإنما بالرموز البصرية فقط.

وبتقرير ذلك نكون قد قمنا بالتمييز بين وحدات النسق اللغوى من ناحية، وتجلياتها أو مظاهرها الفيزيائية الفعلية من ناحية أخرى. وقبل مناقشة هذا التمييز المهم بالتفصيل ربما كان من المفيد أن نستعرض، بشكل موجز، خط التفكير الإستنتاجى الذى انتهى بنا إليه. فقد بدأنا بملاحظة عدم وجود صلة طبيعية بين الدال والمدلول. وبعد ذلك شرعنا فى تفسير الطبيعة العشوائية للعلامة اللغوية. وقد رأينا كيف أن الدال والمدلول كليهما تقسيمات أو تفريعات عشوائية لمتصل (طيف صوتى من ناحية، ومجّال تصورى من الناحية الأخرى). وقد دفعنا ذلك إلى استنتاج ضرورة تحديد الدال والمدلول كليهما فى حدود العلاقات القائمة بينهما والدوال والمدلولات الأخرى. وهكذا فقد انتهينا إلى نتيجة مؤداها: عند تحديد وحدات أية لغة علينا التمييز بين الوحدات العلاقية والتجريدية المحضة والمظاهر الفيزيائية لها. حيث لا تشكل الأصوات الفعلية التى نقوم بإنتاجها أثناء الحديث بذاتها وحدات النسق اللغوى، مثلما لم يعد اللون الفيزيائى الذى نحدده حين نطلق على أحد الكتب: 'brown' بذاته الوحدة اللغوية (المدلول أو المفهوم) 'brown' فى هاتين الحالتين لم تكن الوحدة اللغوية تمثل جوهراً ما، وإنما كانت شكلاً تحدد بالعلاقات التى أظهرتها هذه الوحدة بالمغايرة عن الوحدات الأخرى. وتلك هى القضية التى يؤكدها دوسوسير على نحو صحيح ومطابق للحقيقة تماماً.

٣- ثنائية "اللغة" و "الكلام":

والآن – وبالتمييز بين النسق اللغوى وتجلياته أو مظاهره الفعلية نكون قد وصلنا إلى التقابل الحاسم بين اللغة la langue والكلام parole، واللغة la langue هى النسق الخاص بإحدى اللغات، أى اللغة بوصفها نسقاً من الأشكال. فى حين أن الكلام parole هو الكلام الفعلى، أى أفعال الكلام التى سمحت اللغة الطبيعية بها. فاللغة la langue هو كل ما يتمثله الفرد حين يتعلم لغة بالذات، أى قائمة الأشكال أو «الذخيرة التى استقرت بفعل ممارسة الكلام بين المتحدثين المنتمين للمجتمع ذاته، إنها النسق النحوى الذى وجد فى عقل كل متحدث تلبية لكل المقاصد والأغراض» [٨]. أو إنها «النتاج الاجتماعى الذى يسمح وجوده للفرد بممارسة قدراته اللغوية»[٩]. أما الكلام parole فهو الجانب التنفيذى من اللغة الذى يحتوى على – كما ذهب دوسوسير – التركيبات التى يستخدم المتحدث عن طريقها شفرة النسق اللغوى كى يعبر عن أفكاره الذاتية من ناحية، والآليات النفسية الفيزيائية التى تسمح له بتجسيد هذه التركيبات من ناحية أخرى [١٠]. ففى فعل الكلام parole يختار المتحدث عناصر النسق اللغوى ويؤلف بينها ويضيف عليها مظهراً صوتياً وسيكولوجياً محدداً يتمثل فى الأصوات والمعانى.

قد تظهر الملاحظات الخاصة بـ الكلام parole غامضة إلى حد ما؛ حيث إنها تنطوى على احدى المشكلات التى سوف نعود إليها فى الفصل الثالث. لأنه لو سلمنا بتراكيب العناصر اللغوية بوصفها جزءاً من الكلام parole، عندئذ ستكون القواعد التركيبية syntactic فى وضع غامض، فعدُ اللغة la langue نسقاً من الأشكال والكلام parole تركيباً لتلك الأشكال وتجسيداً لها لا يماثل عدُ اللغة استعداداً لغوياً طبيعياً، و عدُ الكلام parole الممارسة الفعلية لهذا الاستعداد؛ لأن الاستعداد الطبيعى هو المعرفة الخاصة بكيفية تركيب العناصر وقواعد هذا التركيب. وهذا التمييز الأخير بين اللغة la langue ؛ بوصفها نسقاً، والكلام Parole بوصفه تجسيداً لهذا النسق هو التمييز الأساسى عند دوسوسير وفى التراث الدوسوسيرى على حد سواء. على أية حال ليس من الضرورى فى هذا المقام تحديد الخواص المحددة للكلام parole لأن الوظيفة

(٨) Course, pp. 13 - 4; Cours, p. 30.

(٩) Engler, p. 31.

(١٠) Course, p. 14; Cours, p. 31.

الأساسية للتمييز بين اللغة **la langue** والكلام **parole** - كما وضحها دوسوسير ببراعة - هى تحديد موضوع البحث اللغوى أو عزله: «يجب أن تكون اللغة **la langue** محور اهتمام عالم اللغة، فعند تحليل إحدى اللغات لا يحاول عالم اللغة وصف الأفعال الكلامية وحسب، وإنما يهتم بتحديد الوحدات، وقواعد التركيب التى تشكل النسق اللغوى؛ فاللغة **la langue** - أو النسق اللغوى - موضوع متماسك قائم بذاته وقابل للتحليل، إنها نسق من العلامات، والشئ الجوهرى الوحيد الذى يميزها هو تحديد المعانى والتصورات السمعية الصوتية»(١١). وعند دراسة اللغة بوصفها نسقاً من العلامات يحاول المرء تحديد مظاهرها الجوهرية: أى تحديد العناصر الحاسمة للوظيفة الدلالية للغة، أو - بتعبير آخر - تحديد العناصر الوظيفية داخل النسق الذى تُخلق العلامات فيه عن طريق التمييز بينها.

وهكذا يقدم التمييز بين اللغة **la langue** والكلام **parole** أحد المبادئ الملائمة لعلم اللغة، وكما يكتب دوسوسير: «بفصل اللغة عن الكلام نحن نفصل بين ما يعد اجتماعياً وما يعد فردياً أو بين ما يعد جوهرياً وما يعد إضافياً أو عرضاً» (١٢)؛ لأنه لو شرعنا ندرس كل شئ له صلة بظاهرة الكلام، فسوف نتورط فى عالم من الغموض، وسوف نجد أنه من الصعب علينا تحديد الصالح من الطالح فيه، فى حين لو ركزنا على اللغة **la langue** فسوف تتراصف عندئذ مختلف مظاهر اللغة والكلام فيها أو بالقرب منها، وبمجرد أن نأخذ فى الاعتبار مفهوم النسق اللغوى هذا سيصبح بالإمكان التدقيق فى الظواهر، ومعرفة ما إذا كانت لتلك الظواهر صلة وثيقة بالنسق ذاته (أى أنها تجسيد فعلى للوحدات اللغوية) أم أنها مجرد مظاهر طارئة للأداء الفعلى؟ وهكذا ننجح فى تصنيف الحقائق الكلامية فى مجموعات؛ حيث يمكن دراستها بإتقان.

على سبيل المثال، يفضى التمييز بين اللغة **la langue** والكلام **parole** إلى ابتكار علمين بارزين يدرسان الصوت ووظائفه اللغوية: علم الصوتيات **Phonetics**، وهو علم يدرس الصوت فى أفعال الكلام من وجهة نظر فيزيائية، وعلم الفونولوجى **Phonology**، وهو علم لا يهتم بالأحداث الصوتية الفيزيائية ذاتها قدر اهتمامه بالتمييزات أو الفوارق الخاصة بالوحدات المجردة للدال بوصفها تمييزات وظيفية داخل النسق اللغوى. (من

(١١). Course, p. 15; Cours, p 32

(١٢). Course, p. 14; Cours, p. 30

المهم أن نلاحظ هنا أنه على الرغم من إقرار دوسوسير القاطع بأن الأدوات الفيزيائية لا تعد بذاتها جزءاً من اللغة la langue ومن ثم فقد مهد السبيل للتمييز بين علم الصوتيات وعلم الفونولوجي كما وضحناها منذ قليل - إلا أنه يستخدم مصطلحى Phonetics و Phonology بمعنى يختلف عن تعريفنا تماماً لهما، وسوف أستمر فى استخدامها بالمعنى الحديث الشائع الذى أوضحناه هنا).

يعود بنا التمييز بين علم الصوتيات وعلم الفونولوجى إلى الوراء، أى يعود إلى القضايا الأساسية التى أثيرت حول الهوية اللغوية للشكل bed؛ حيث يمكن لعلم الصوتيات وصف الأصوات الفعلية الصادرة حين ينطق المرء هذا الشكل. هذا مع أن هوية الشكل bed بوصفها إحدى وحدات اللغة الإنجليزية لا تعتمد - كما شرحنا من قبل - على طبيعة الأصوات الفعلية الصادرة، وإنما تعتمد على التمييزات أو الفوارق التى تفصل bed عن bet و bad و head... إلخ. أما علم الفونولوجى فهو يدرس الفوارق الوظيفية القائمة بين هذا الشكل وهذه الأشكال، وما نحرص على التركيز عليه هنا هو مصطلح «وظيفى» هذا؛ حيث يوجد فى منطوقات اللغة الإنجليزية فارق أو اختلاف قابل للإدراك والقياس بين«صوت - L» الذى يظهر قبل الصوائت vowels (كما فى lend و a live) و«صوت - L» الذى يظهر قبل الصوامت consonants أو الذى يظهر فى نهاية الكلمات (كما فى melt و peel)، ومع أن هذا الفارق أو هذا الاختلاف يعد بذاته اختلافاً فوناتيكياً Phonetic حقيقياً إلا أنه لا يمثل بذاته الاختلاف الذى يمكن أن يستخدم للتمييز بين أى علامتين فى الإنجليزية. ومن ثم فهو لا يُعد اختلافاً وظيفياً، حيث لا يشكل هذا الاختلاف بذاته جزءاً من النسق الفونولوجى لهذه اللغة، فى حين استُخْدِمَ الاختلاف بين صائتى feet و full فى الإنجليزية للتمييز بين العلامات (قارن بين keel و kill، وبين keen و kin وبين seat و sit، وبين heat و hit...إلخ.)، حيث يقوم هذا التقابل بين هذين الصائتين بأحد الأدوار المهمة فى النسق الفونولوجى للإنجليزية، وبه تبتكر هذه اللغة عدداً هائلاً من العلامات المتمايزة.

ولهذا الفارق بين ما هو خاص بأفعال لغوية محددة بالذات، وما هو خاص بالنسق اللغوى ذاته أهميته على المستويات غير الصوتية، ولذلك فنحن نستطيع - على سبيل المثال - أن نميز بين الملفوظ utterance بوصفه يمثل إحدى وحدات الكلام parole، والجملة sentence بوصفها تمثل إحدى وحدات اللغة la langue، فقد يكون الملفوظان المختلفان بالفعل مجرد مظهرين لجملة واحدة، وهكذا نقحم من جديد التصور المركزى للهوية فى علم اللغة، فقد تختلف الأصوات الفعلية للملفوظين المختلفين

ومعانيهما السياقية، ومع ذلك فما يجعل من هذين الملفوظين مجرد شاهدين خاصين بإحدى الوحدات اللغوية هو التمييزات التى تضفى على تلك الوحدة الهوية العلاقية الخاصة بها.

على سبيل المثال، لو قال cuhbert فى أحد الأوقات: 'I am tired' فلا جدال فى أن ضمير المتكلم I هذا لا يشير سوى إلى cuthbert، لذلك فإن فهم حقيقة هذا الإسناد أو هذه الإحالة يعد بذاته جزءاً مهماً من فهم معنى هذا الملفوظ. ومع ذلك لا تمثل هذه الإحالة جزءاً من معنى الجملة؛ لأن George قد يتلفظ بالجملة ذاتها، وسوف يشير ضمير المتكلم I حينئذ إليه هو. وهكذا لا يشير ضمير المتكلم I داخل النسق اللغوى إلى أى شخص محدد بالذات، وإنما يتحدد معنى هذا الضمير داخل النسق اللغوى فى ضوء الفوارق القائمة بينه وبين الضمائر you he she it we they؛ حيث يمكن الحصول على معنى هذا الضمير بتقرير أنه يعنى «المتحدث» فى مقابل أى شخص غيره.

والضمائر هى الأمثلة الواضحة للاختلافات القائمة بين المعانى التى تعد صفات للملفوظات المنطوقة وحدها، والمعانى التى تعد صفات لعناصر النسق اللغوى ذاته، ولتصوير هذا الفارق يستخدم دوسوسير مصطلحى الدلالة signification والقيمة valeur، فللوحدات اللغوية القيم الخاصة بها داخل النسق، وهى المعانى الناتجة عن التقابلات التى تحدد تلك الوحدات اللغوية داخل النسق، ولكن حين تُستخدم تلك الوحدات فى أحد الملفوظات فإنها تكتسب إحدى الدلالات، أو تكتسب أحد المظاهر السياقية للمعنى، على سبيل المثال لو قال أحد الفرنسيين: 'J'ai vu un mouton' وقال أحد الإنجليز 'I saw a sheep'، فمن المحتمل أن يكتسب هذان الملفوظان الدلالة ذاتها، حيث قدم الرجلان إحدى الإفادات، (بالتحديد شاهد كل متحدث منهما فى أحد الأوقاف قطيعاً من الأغنام). ومع ذلك فليس لكل من mouton و sheep (بوصفهما وحدتين تنتميين إلى نسقين لغويين مختلفين) المعنى ذاته أو القيمة ذاتها، لأن 'sheep' تحددت بالتقابل مع'mutton' فى حين لم تتقيد 'mouton' بمثل هذا التمييز، وإنما استخدمت للإفادة عن الحيوان واللحم معاً. على أية حال هناك مشكلات فلسفية محددة لم يتحدث دوسوسير عنها صراحة، وعلى وجه التخصيص قد يجنح الفلاسفة للقول أن ما يطلق عليه دوسوسير دلالة الملفوظ يستغرق المعنى والإحالة كليهما، ومع ذلك فقضية دوسوسير هى أنه لا يوجد سوى نوع واحد من المعنى هو المعنى العلاقى – أو القيمة – الذى يستند إلى النسق اللغوى، أما الدلالة فهى تتغلغل إستخدام العناصر اللغوية فى المواقف الفعلية للملفوظ.

لقد كان للتميز بين اللغة langue والكلام parole نتائج مهمة للعلوم غير اللغوية الأخرى، لأنه يُعد في الأساس تمييزاً بين النظام والحدث، أو بين النسق الكامن الذي يسمح بأنماط مختلفة من السلوك، والأمثلة الفعلية المجسدة لهذا السلوك. وإذا كانت دراسة النسق تقود إلى بناء النماذج الممثلة للأشكال، وعلاقاتها فيما بينها وإمكاناتها بخصوص التركيب، فإن دراسة السلوك أو الأحداث يمكن أن يؤدي إلى بناء النماذج الإحصائية التي تمثل احتمالات تركيبات بعينها في الظروف المختلفة.

عند مناقشتنا لعلم العلامات في الفصل الرابع سوف نشاهد إلى أي حد امتد تصور اللغة la langue إلى الميادين المعرفية الأخرى. ومع ذلك تتطلب دراسة اللغة la langue داخل علم اللغة ذاته بياناً تفصيلياً للتمييزات التي تبتكر العلامات وقواعد التركيب، في حين تقودنا دراسة الكلام parole إلى معالجة استخدام اللغة، بما يشمله من التواترات النسبية التي استخدمت بها الأشكال الخاصة أو تركيبات هذه الأشكال في الكلام الفعلي. لقد قدم دوسوسير لعلم اللغة - بفصله اللغة langue عن الكلام parole - موضوعاً مناسباً للدراسة، ومنح دارس اللغة إحساساً أوضح بكثير لما يقوم به: لو ركز دارس اللغة على اللغة بوصفها نسقاً فقد عرف حينئذ ما كان يحاول إعادة تركيبه، وسوف يكون بمقدوره - من هذا المنظور - تحديد الأدلة ذات الصلة الوثيقة بالموضوع وكيفية تنظيمها.

سوف ندرس بناء النسق اللغوي بمزيد من التفصيل في نهاية الفصل الحالي، إلا أن هناك نقطة مهمة حول مفهوم اللغة la langue يجب التأكيد عليها هنا، فقد نظم محررا محاضرات دوسوسير الكتاب بحيث بدءا بالتمييز بين اللغة la langue والكلام parole، وهكذا صُور دوسوسير وكأنه القائل بأن اللغة كتلة مشوشة من الحقائق المتغايرة العناصر، وأن الطريقة الوحيدة لفهمها هي التسليم بوجود شئ يطلق عليه النسق اللغوي مع إهمال أي شئ سواه. وهكذا فقد ظهر التمييز بين اللسان la langue والكلام parole على أنه تمييز عشوائي للكثيرين من الأشخاص، واعتبار ذلك المبدأ الأساسي أو الشرط الضروري الذي يجب أن يحظى بالقبول بثقة تامة إن رغب المرء في الاستمرار. ولكن التمييز بين اللغة la langue والكلام parole يُعد في الحقيقة - وكما تقترح ملاحظات دوسوسير ونتيجة لما شرحناه في مناقشتنا - النتيجة المنطقية والضرورية للطبيعة العشوائية للعلامة ولمشكلة الهُوية في علم اللغة، باختصار لو كانت العلامة عشوائية، فإنها تمثل عندئذ - كما شاهدنا - كينونة علاقية محضة، ولو أردنا تحديد العلامات وتعيين هُويتها يجب الاهتمام بنسق العلاقات والتمييزات الذي

تبتكرها، لذلك يجب علينا أن نميز بين الكينونات المختلفة التى تظهر العلامات فيها، والأشكال الفعلية التى تؤلف العلامات، وعندما نقوم بذلك نكون قد عزلنا نسق الأشكال الذى يكمن وراء السلوك أو المظهر اللغوى الفعلى، أى اللغة la langue؛حيث تقودنا محاولة دراسة العلامات بشكل راسخ إلى التسليم بذلك النسق بوصفه الموضوع الشائع للبحث اللغوى، ولم يكن عزل اللغة la langue كما تقترح المحاضرات المحررة – مجرد نقطة انطلاق عشوائية – وإنما كان يمثل فى *الواقع أحد النتائج المترتبة على* الطبيعة العشوائية للعلامات ذاتها.

٤ – المنظوران التزامنى والتعاقبى:

والنتيجة المهمة الأخرى التى ترتبت على الطبيعة العشوائية للعلامة ،والتى عدها نقاد دوسوسير بمثابة أحد الأعباء الزائدة أو المثيرة للجدل هى التمييز بين الدراسة التزامنية synchronic للغة (أى دراسة النسق اللغوى فى وضع مستقل عن الزمن) والدراسة التعاقبية diachronic للغة (أى دراسة تطورها التاريخى داخل الزمن)، فقد زعم النقاد أنه بالتمييز الصارم بين هذين المنظورين ، وبالتسليم بأسبقية الدراسة التزامنية للغة تجاهل دوسوسير (أو تجنب على الأقل) حقيقة كون أية لغة لغة تاريخية واصطلاحية فى الوقت نفسه، أوحقيقة كون اللغة كينونة تاريخية فى تطور مستمر. ومع ذلك وعلى النقيض من هذا الزعم كان تمييز دوسوسير بين هذين المنظورين تمييزاً دقيقاً، لأن دوسوسير أقر – بقدر أكثر عمقاً من نقاده – التاريخية historycity الجذرية للغة، حين أصر على أهمية التمييز بين حقائق فى متناول النسق اللغوى، وحقائق فى متناول التطور اللغوى، حتى فى الأوضاع أو الحالات التى يتشابك فيها هذان النوعان من الحقائق، وعلى أى حال توجد مفارقة صريحة هنا تستحق التوضيح.

ما العلاقة المنطقية بين الطبيعة العشوائية للعلامة والطبيعة التاريخية العميقة للغة؟ وبإمكاننا التعبير عن العلاقة المنطقية بهذه الطريقة: لو كان هناك صلة جوهرية أو طبيعية بين الدال والمدلول، عندئذ يمكن للعلامة أن تكتسب جوهراً أساسياً لا يتأثر بالزمن، أو على ا لأقل بإمكانه أن يقاوم التغير، وبإمكان هذا الجوهر الأساسى غير المتغير أن يناقض تلك المظاهر العرضية التى تتبدل من عصر لآخر. ومع ذلك لا يوجد فى الحقيقة مظهر يمكن أن يُعد بذاته بمثابة صفة جوهرية للعلامة، ومن ثم يدفعها للاستقرار خارج الزمن، فبإمكان أى مظهر للصوت أو للمعنى كذلك أن يتبدل، وتاريخ اللغات مملوء بالتغييرات التطورية الجذرية لكل من الأصوات والمعانى، فقد تتغير معانى

الكلمات وتحتفظ بعناصرها الفونولوجية الأصلية، وقد تحتفظ الكلمات بالمعنى فيها ولا تحتفظ بأى عنصر من عناصرها الفونولوجية الأصلية، باختصار لا يوجد فى الدال أو فى المدلول جوهر أساسى لا يمسه الزمن، ولأن العلامة عشوائية فهى تُعد إجمالا موضوعاً للتاريخ، وأى تركيب أو أى توليف بين دال بعينه ومدلول محدد بالذات لا يمثل بذاته سوى *النتيجة الطارئة للعملية التاريخية*.

بالفعل، فحقيقة كون العلامة عشوائية أو *كونها طارئةكلية قد جعلت منها* موضوعاً *للتاريخ*، ولكن *تلك* الحقيقة تعنى فى *الوقت* نفسه أن *العلامة* تحتاج تحليلاً لا تاريخياً **ahistorical**. وليس فى هذا تناقض كما قد يبدو من الوهلة الأولى، فلعدم وجود جوهر ضرورى يمكن أن يدوم فى العلامة، كان من الواجب تحديدها بوصفها كينونة علاقية، أى فى ضوء علاقاتها بالعلامات الأخرى. وبطبيعة الحال فالعلاقات المناسبة للعلامة هى تلك العلاقات التى تحرزها فى زمن مستقل، وكما يقول دوسوسير: «اللغة نسق من القيم المحضة الذى لم يحدده شئ أو لم يفرضه شئ سوى الترتيب الآنى لحدوده» (١٣). ولأن اللغة كينونة تاريخية كلية، وعُرضة للتغير الدائم، يجب على المرء التركيز على العلاقات التى توجد فى حالة تزامنية مستقلة إذا أراد بالفعل تحديد عناصرها.

وبتوكيد أسبقية الوصف التزامنى يلفت دوسوسير النظر إلى عدم ملائمة الحقائق التاريخية أو التعاقبية فى تحليل اللغة **la langue**، وسوف توضح الأمثلة سبب عدم ملائمة المعلومات التاريخية لتحليل اللغة **la langue**، فعلى سبيل المثال يستخدم ضمير المخاطب«أنت» **you** فى الإنجليزية الحديثة للإشارة إلى شخص واحد وإلى عدة أشخاص فى الوقت نفسه، وبإمكانه أن يقع مبتدأ أو مفعولاً به فى أية جملة، وبالرغم من ذلك ففى إحدى المراحل المبكرة كانت اللغة تحدد الضمير **you** بالتقابل مع الضمير **ye** (حيث يستخدم ضمير **ye** فى موقع المبتدأ، ويستخدم ضمير **you** فى موقع المفعول به) من ناحية، وبالتقابل مع الضميرين **thee**و **thou** (حيث يستخدم هذان الضميران بوصفهما شكلين لصيغة المفرد، ويستخدم الضمير **you** بوصفه شكلاً لصيغة الجمع) من ناحية أخرى، ثم استخدم ضمير **you** فى إحدى المراحل المتأخرة من اللغة فى مخاطبة شخص واحد بوصفه أسلوباً للاحترام (مثل الضمير الفرنسى الحديث **vous** تماماً) والآن لم يعد الضمير **you** يتحدد فى الإنجليزية الحديثة بالتقابل مع الضمير **ye**

(١٣) Course, p. 80; Cours, p. 116.

أو الضميرين thee و thou, وبإمكان المرء أن يعرف اللغة الإنجليزية الحديثة ويتحدثها بطلاقة تامة دون أن يعرف أن الضمير you كان يمثل ذات يوم صيغة للمفعول به أو صيغة للجمع، حتى وإن عرف المرء هذا الأمر بالفعل فلا سبيل أمامه لاستخدام هذه المعرفة بوصفها جزءاً من معرفته للغة الإنجليزية، بل إن وصف الضمير you في الإنجليزية الحديثة لا يتغير حتى وإن اختلف التطور التاريخي لهذا الضمير برمته، فلقد تحدد الضمير you في الإنجليزية الحديثة في ضوء الدور الذي يقوم به في الحالة التزامنية من اللغة.

وبالمثل، فقد اشتُق الاسم الفرنسي pas (ويعني بالإنجليزية 'step') وحالة النفي pas (وتعني بالإنجليزية 'not') تاريخياً من علامة واحدة، ومع ذلك فهذه المعلومة غير ذات صلة بوصف اللغة الفرنسية الحديثة، حيث تستخدم هاتان الكلمتان بطريقتين مختلفتين توجب معاملتهما بوصفهما علامتين متمايزتين تماماً. فمن منظور الفرنسية الحديثة ليس هناك فرق بين ما إذا كانت هاتان العلامتان ذات يوم علامة واحدة أو لم تكنا. أو ما إذا كانتا علامتين متمايزتين ثم أصبحتا بفعل التغيرات الصوتية التي طرأت على داليهما علامة واحدة أو لم تكنا، ولذلك فإن أية محاولة لإدماج مثل هذه الحقائق التاريخية في أية معالجة لأي من الأنساق اللغوية المعاصرة يعد تشويهاً وتزييفاً له.

تأكيد دوسوسير على الاختلاف بين المنظورين التزامني والتعاقبي، وعلى أسبقية الوصف التزامني لا يعني بأي حال أنه كان يضلل نفسه بالتفكير في اللغة بوصفها سلسلة متتابعة من الحالات التزامنية المتجانسة : إنجليزية عام ١٩٢٠، إنجليزية عام ١٩٤٠، إنجليزية عام ١٩٦٠ وهكذا، ومع ذلك لم يكن تصوره للحالة التزامنية للغة سوى خيال fiction منهجي؛ لأنه حين نتحدث عن النسق اللغوي للغة الفرنسية في فترة بعينها، فنحن نقوم في الحقيقة بتجريد هذا النسق من الواقع الذي يتكون من عدد ضخم من المتحدثين الوطنيين الذين قد تتباين أنساقهم اللغوية لأسباب كثيرة، وبالرغم من ذلك فالنسق اللغوي للغة الفرنسية واقع محدد، فيه يفهم المتحدثون بها بعضهم بعضاً، ولأننا نرغب في تمثيل هذا الواقع، والحديث عن النسق اللغوي الشائع بين المتحدثين الوطنيين بتلك اللغة فنحن نقدم إفادات بشأن النسق اللغوي في إحدى الحالات التزامنية الخاصة.

بالإضافة إلى ذلك، حتى وإن كان تصور أية حالة تزامنية للغة مجرد خيال أدبي منهجي، فمن المهم ألا ننسى أن أية إفادات بشأن التطور التاريخي للغة تعد في الوقت

نفسه إفادات خيالية أدبية بالقدر ذاته. لنفترض أننى أرغب الآن فى تقديم أحد الادعاءات التاريخية التى تقول إن الصوت /a/ أصبح فى فرنسية القرن العشرين الصوت / a / (وأنا أتبع هنا التقليد السائد فى وضع الأشكال الفونولوجية بين خطين مائلين)، فماذا يعنى مثل هذا الإدعاء؟ قد نقول إن إحلال الصوت /a/ محل الصوت / a/ يوحى بتحويل أحد الموضوعات فى الزمن، ومع ذلك فإن هذا القول يُعد فى الواقع أحد الخيالات الأدبية التاريخية التى تلخص الكثير من الحقائق التزامنية، ذلك أنه فى إحدى الفترات المبكرة من هذا القرن كان يوجد أعداد كبيرة من المتحدثين تميز بين هذين الصوتين كما يظهر فى **pâte** و **patte** أو فى **tâche** و **tache**، فى حين لا يميز بين هذين الصوتين الآن سوى عدد ضئيل من المتحدثين الفرنسيين، ولذلك لم يعد هناك سوى صوت وحيد لـ /a/ فى اللغة، وقد يكون هذا المثال بطبيعة الحال تبسيطاً مبالغاً فيه لأن بعض المتحدثين سوف يسمعون هذا التمييز ولكنهم لن يستخدموه بأنفسهم، فى حين قد يستخدمه بعضهم الآخر فى بعض المناسبات الرسمية نسبياً. وكما يبين هذا المثال فإن الإفادة التاريخية تربط بين أحد العناصر المستقلة (المستمدة من إحدى الحالات المبكرة لأحد الأنساق اللغوية) وعنصر آخر مستمد من إحدى الحالات المتأخرة للنسق ذاته، ولكن حين تُفترض الطبيعة العلاقية للوحدات اللغوية – حقيقة كونها قد تحددت كلية بفعل العلاقات التى ترتبت على وضعهاـ الخاص فى النسق – فإن الأمر يصبح مثيراً للشك، ودخيلاً على المبدأ الأساسى فى علم اللغة التزامنى، إذن كيف يمكن لنا تبرير ذلك؟ وكيف يمكننا التسليم بالهُوية التعاقبية للوحدات اللغوية؟.

يحاول دوسوسير فى هذا المجال أن يثبت أن الإفادات التاريخية قد اشتُقت من الإفادات التزامنية، هذا على الرغم من أوضاعهما المتباينة تماماً، ويتساءل: ما الذى يسمح لنا بتقرير حقيقة أن الكلمة اللاتينية **mare** قد أصبحت الكلمة الفرنسية **mer** (ومعناها بالإنجليزية **'sea'**)؟ قد يجيب عالم اللغة التاريخى بأننا نعرف أن **mare** اللاتينية أصبحت **mer** الفرنسية لأن الصوت الأخير /e/ فيها (أو فى أية كلمة أخرى) قد سقط فجأة، وأن / a / قد أصبح /e/، ولكن دوسوسير يثبت أنه حين يُقترح أن التغيرات الصوتية المنتظمة هى التى تخلق الصلة بين الشكلين فإنك تقلب الأشياء عكس الاتجاه، لأن ما يجعل بمقدورنا تعيين هذا التغير الصوتى هو تصورنا البديهى

أن شكلاً ما أصبح شكلاً آخر، فنحن نستخدم التطابق بين **mare** و **mer** كى نقرر أن /a/ أصبح /e/، وأن الصوت الأخير //e/في هذه الكلمة قد سقط فجأة [١٤].

وفى الواقع يمكن تصور الارتباط القائم بين **mare** و **mer** كما يلى : تؤلف **mare** و **mer** والأشكال المختلفة الواقعة بينهما سلسلة واحدة متصلة من الهُويات التزامنية، ونتيجة لأحد التغيرات التى حدثت فى أحد العصور ظهر شكلان مختلفان أحدهما قديم والآخر جديد، وعلى الرغم من التطابق الفونولوجى أو الوظيفى لهذين الشكلين فقد أصبحا يمثلان من الناحية الصوتية شكلين مختلفين، ولقد كان المتحدثون الفرنسيون يستخدمونهما (نظراً لاختلاف معنيهما واعتبار أحدهما أقدم من الآخر) على نحو متبادل، وبطبيعة الحال فقد تمسك بعضهم بالشكل القديم فى حين فضل بعضهم الآخر الشكل الجديد، ولكن المهم أن التحول من شكل فوناتيكى إلى شكل آخر لم يكن نتاجاً لاختلاف المعنيين الفعليين للشكلين، لأن الهُوية التزامنية من وجهة نظر النسق اللغوى يمكن أن تعتمد على هذين الشكلين المختلفين معاً، وبهذا المعنى تعتمد الهُوية التعاقبية على إحدى السلاسل المتصلة للهُويات التزامنية.

وكما يقول دوسوسير مشيراً إلى مثال آخر: «تعنى الهُوية التاريخية لأى كلمتين مختلفتين مثل **calidum** و **chaud** (ومعنى أى منهما فى الإنجليزية **"hot"** أن كلمة منهما انتقلت من الشكل الأول إلى الشكل الأخير من خلال سلسلة متتابعة من الهُويات التزامنية» [١٥]. وحين نتحدث عن تحول إحدى الكلمات ونسلم بهُويتها التاريخية فنحن نلخص فى الواقع سلسلة متتابعة من الهويات التزامنية, ويكمل دوسوسير: «هذا هو سبب قولى إن معرفة سبب احتفاظ كلمة **"gentlemen"** بهويتها حين أعيدت عدة مرات أثناء المحاضرة تماثل فى أهميتها معرفة سبب تطابق **calidum** مع **chaud**. فالمشكلة الثانية لا تكون فى الواقع سوى امتداد للمشكلة الأولى وتكملة لها» [١٦].

وهكذا لم يعد بمقدور المرء أن يبرهن بطريقة ما على أن علم اللغة التعاقبى أكثر ارتباطاً بواقع اللغة، بينما يعد التحليل التزامنى مجرد خيال أدبى. فالأنساب التاريخية لا تشتق من الهُوايات التزامنية فقط وإنما هى فى ذاتها تمثل حقائق تنتمى إلى رتبة مختلفة، وبالتعبير التزامنى تعد الهُويات التاريخية هُويات مُحرفةً، لأن العلامات المبكرة

(١٤) Course, p. 182; Cours, p. 249.
(١٥) Course, p. 182; Cours, p. 249.
(١٦) Course, p. 182; Cours, p. 250.

والمتأخرة التى تربط بينها لا تقتنى أية خواصٍ مشتركة، فليس لأية علامة من خواص فى الأصل سوى الخواص العلاقية التى تحددها داخل نسقها التزامنى الخاص، ومن وجهة نظر أنساق العلامات - وهى وجهة النظر الجديرة بالاعتبار عند دراسة العلامات - تعد العلامتان المبكرة والمتأخرة علامتين متباينتين كلية.

من هنا يأتى أهمية الفصل بين المنظورين التزامنى والتعاقبى حتى وإن تماثلت الحقائق التى يعالجانها وتلازمت بشكل حميم لا تنفصم عراه. وتلك هى إحدى القضايا التى يجب على المرء التركيز عليها، لأن علماء اللغة الذين اعترضوا على تمييز دوسوسير الجذرى بين المدخلين التزامنى والتعاقبى، والذين أبدو الرغبة فى تصور منظور شامل كثيراً ما يشيرون إلى تشابك الحقائق التزامنية والتعاقبية بُغية تدعيم موقفهم. فقد كان دوسوسير على وعى تام بتماثل الحقائق التزامنية والتعاقبية وتلازمها أو انجدالها، وقد كان الفصل بين تلك العناصر حين تتمازج يمثل فى نظره الطريقة الوحيدة التى يمكن عن طريقها إضفاء الترابط المنطقى على التحليل اللغوى، فلكل الأشكال اللغوية مظاهرها التزامنية والتعاقبية التى يجب الفصل بينها، لأنهما يمثلان رتبتين مختلفتين من الحقائق، ولدى كل منها شروطه الخاصة فى الوجود.

وتأليف مركب شامل - كما يناقش دوسوسير - أمر مستحيل وذلك بسبب الطبيعة العشوائية للعلامات اللغوية، فقد يتبنى المرء المنظورين التزامنى والتعاقبى فى بحث ضروب الأنساق الأخرى: «بقدر ما تتجذر القيمة فى الأشياء نفسها، وفى علاقاتها الطبيعية بقدر ما يستطيع المرء تعقب تلك القيمة خلال الزمن، واضعاً نصب عينيه أنها تعتمد فى كل لحظة على نسق من أنساق القيم الذى توجد معه» (١٧).

وهكذا سوف تعتمد قيمة أية قطعة من الأرض فى إحدى الفترات على عوامل رئيسية عديدة فى النسق الاقتصادى، إلا أن القيمة فى هذه الحالة قد ضربت بجذورها إلى حد ما فى طبيعة الأرض ذاتها، ولن تؤثر المتغيرات الأخرى مباشرة فى إحلال إحدى القيم العشوائية محل أخرى، إلاأنه فى حالة اللغة، وحيث لايوجد أى أساس طبيعى لقيمة العلامة أو أى محددات متأصلة فيها، فسوف يكون للتغير التاريخى شخصيته المختلفة، وكما يقول دوسوسير: «لقد انفصلت عناصر اللغة عن تطورها التاريخى الخاص بطريقة غير معروفة كلية فى المجالات التى اقتنت الأشكال فيها أقل

Course, p. 80; Cours, p. 116. (١٧)

درجات ارتباطها مع المعنى» (١٨) ، ونتيجة لعدم وجود دال أكثر ملائمة لمدلول بعينه عن دال آخر يحدث التغير فى الصوت مستقلاً عن نسق القيم، وكما يقول: «تعد الحقيقة التعاقبية حدثاً بذاته لديه أساسه المنطقى الخاص، ولا علاقة لتلك الحقيقة التعاقبية بالنتائج التزامنية التى قد تنتج بالضرورة عنها» (١٩).

ومناقشة دوسوسير لتلك القضية معقدة إلى أبعد حدود التعقيد، فقد ادعى اختلاف الحقائق التاريخية عن الحقائق التزامنية، ومن ثم ادعى حدوث التغير التاريخى خارج النسق اللغوى، أى فى الأداء أو فى الكلام **parole** وليس فى اللغة **la langue**، وزعم أن ما يتحول فى العادة ليس سوى العناصر المستقلة أو المفردة، هذا مع أن هذه العناصر تؤثر فى النسق كله بقدر ما يتكيف النسق معها، أو بقدر ما يستفيد من النتائج المترتبة عليها، وهكذا الأمر مع أن النسق اللغوى لم يكن المنتج لها فى الأساس.

والشئ الوحيد الذى يعارضه دوسوسير هنا هو فكرة «الغائية» فى علم اللغة، فكرة أن هناك غاية ما تعمل التغيرات اللغوية من أجلها، بحيث تحدث التغيرات بغاية إنجازها، فالتغيرات لا تظهر – فى رأيه – لكى تنتج حالة جديدة للنسق. فما يحدث هو أن «عناصر بعينها قد تغيرت دون اعتبار لتماسكها داخل النسق ككل» (٢٠)، وقد كان لهذه التغيرات المعزولة نتائج عامة للنسق الذى سوف تتبدل شبكة علاقاته. على أى حال «فالأمر ليس وكأن أحد الأنساق قد أنتج نسقاً آخر، وإنما هو أن أحد عناصر النسق الأول قد تغير، وكان تغير هذا العنصر المتغير كفيلاً بأن يجلب إلى الوجود نسقاً آخر» (٢١)، حيث تعد التغيرات جزءاً من إحدى العمليات التطورية المستقلة التى يتكيف النسق معها.

(١٨) Engler, p.169.

(١٩) Course, p. 84; Cours, p. 120.

(٢٠) الاستثناء المهم الذى يناقشه دوسوسير بالتفصيل ومع ذلك لم أتناوله هنا هو الظاهرة المعروفة باسم القياس التمثيلى، والتى يتم فيها خلق الأشكال الجديدة قياساً على الأشكال الموجود. وتعد تلك الظاهرة عاملاً مهماً فى التغير اللغوى، ومع ذلك يؤكد دوسوسير أنها ظاهرة تزامنية أساساً. وللمزيد حول هذا الموضوع انظر: الفصل الثالث ص١٠٢.

(٢١) Course. p. 85; Cours, p. 121.

توجب الحقيقة التاريخية استبدال أحد الأشكال بشكل آخر. وليس للإستبدال أو للاحلال أى معنى فى ذاته، لأنه يعد من وجهة نظر النسق اللغوى استبدالاً أو إحلالاً «لاوظيفياً»، فى حين أن الحقيقة التزامنية ما هى إلا العلاقة القائمة بين الشكلين الموجودين تلقائياً أو التقابل القائم بينهما، فالعلاقة الدالة هى تلك العلاقة التى تنطوى على معنى داخل اللغة. وكلما كان للتغير اللغوى مضاعفات فيما يتعلق بالنسق، وجد المرء الموقف وقد اختلط فيه هذان النوعان من الحقائق وأصبح عرضه للخلط بينهما، هذا مع أن هذين النوعين من الحقائق نوعان مختلفان إلى حد بعيد ويجب الفصل بينهما. على أى حال فلكى ندرك الاختلاف القائم بينهما وأهميته سوف نتناول بعض الأسماء الإنجليزية ذات الأشكال غير المنتظمة لصيغة الجمع، وهى: **feet** و **geese** و **teeth**. وسوف نتساءل عن المظاهر التزامنية والتعاقبية لتطور تلك الأشكال؟

فى الإنجليزية الأنجلوساكسونية المبكرة (أى قبيل الفتح النورماندى عام ١٠٦٦م) كانت أشكال صيغتى المفرد والجمع لتلك الأسماء كما يلى:

المرحلة الأولى

	صيغة المفرد	صيغة الجمع	
:foot	**fot**	**foti**	(وينطقان *foat* و *foati*)
: goose	**gos**	**gosi**	
: tooth	**tof**	**tofi**	(حيث *th* = *f*)

وبعد ذلك تأثرت أشكال صيغة الجمع بأحد التغيرات الفوناتيكية، وهو التغير الذى يعرف باسم "تحول **i**" : حين يأتى الصائت /**i**/ عقب أحد المقاطع المنبرة **stessed** فإنه يؤثر فى صائت هذا المقطع المنبر، وتصبح الصوائت الخلفية صوائت أمامية، ولذلك يصبح الصائت /**o**/ الصائت /**e**/. وقد أدى ذلك إلى :

المرحلة الثانية

	صيغة المفرد	صيغة الجمع
foot :	fot	feti
goose :	gos	gesi
tooth :	tof	tefi

وبعد ذلك ونتيجة لأحد التغيرات الفوناتيكية التالية سقط الصائت الأخير /i/ مؤدياً إلى المرحلة الثالثة:

المرحلة الثالثة

	صيغة المفرد	صيغة الجمع
foot :	fot	fet
goose :	gos	ges
tooth :	tof	tef

وعندئذ أصبحت هذه الأشكال – ونتيجة التغير الكبير فى صوائت الإنجليزية التى أصبح بها الصائت /o/ الصائت /u/، والصائت /e/ الصائت /i/ – هى الأشكال الحديثة [٢٢].

فى المرحلة الأولى تميزت صيغة الجمع بظهور صائت نهائى /i/، وهو ما يعد بذاته حقيقة تزامنية، ذلك لأن الذى ميز التقابل القائم بين صيغتى المفرد والجمع هو التقابل القائم بين ظهور الصائت /i/ وغيابه. ومن ثم فالتغير الفوناتيكى – الذى لم يكن لديه أى تأثير على صيغ الجموع أو بالأحرى على قواعد اللغة على الإطلاق – قد

(٢٢) Course, pp. 83-4; Cours, p. 120.

أحدث تغيراً في تلك الأشكال التي احتوت على الصائت النهائي /i/، إلا أنه لم يمارس أي تأثير على صيغ الجموع (فهو لم يمارس أي تأثير على التقابل التزامني بين صيغتي المفرد والجمع) التي يظهر فيها كلما ظهر الصائت /i/ عقب أحد المقاطع المنبرة، ولكن- وكما حدث بالفعل - فقد تأثر عدد محدود من أشكال صيغة الجمع، مما أدى إلى وجود حقيقة تزامنية جديدة في المرحلة الثانية، حيث أصبحت بعض أشكال صيغة الجمع - نتيجة للحدث الذي لم يؤثر في صيغ الجموع من هذا القبيل - أشكالاً تتميز بأحد التقابلات الثنائية أو المزدوجة (التقابل بين ظهور الصائت النهائي /i/ وغيابه كما أشرنا من قبل، والتقابل بين صائت صيغة الجمع /e/ وصائت صيغة المفرد /o/) وعند هذا الحد ومع سقوط الصائت النهائي /i/ (وهو على أي حال أحد الصوائت التي لا تختص بصيغ جموع من هذا القبيل) نشأ موقف تزامني جديد. وهكذا فقد تغيرت هيئة أشكال صيغة الجمع بفعل أحد الأحداث التاريخية، غير أن هناك اختلافاً بين أشكال صيغتي المفرد والجمع (الصائت /o/ بوصفه مقابلاً للصائت /e/) فقد كان بمقدور النسق اللغوي أن يستخدم هذا الاختلاف بوصفه أحد التقابلات المحملة بالمعنى، يكتب دوسوسير:

«تساعدنا هذه الملاحظة على أن نفهم بشكل تام الطبيعة الاتفاقية أو التصادفية لأية حالة لغوية... فالحالة التي نتجت عن التغيرات لم تكن مصممة كي تشير إلى المعاني التي توقفت عليها، وأية حالة اتفاقية أو تصادفية هي حالة مفترضة، مثال: fot) (fet ولكن المتحدثين هم الذين يجعلون منها تمييزاً بين صيغتي المفرد والجمع. لم تكن fot و fet أكثر ملائمة لهذا العرض من fot و feti. ففي الحالتين كلتيهما يهب العقل الحياة لإحدى الجواهر المفترضة» (٢٣). ومن وجهة نظر النسق اللغوي تعد الحقائق التزامنية هي الحقائق الدالة، أما الحقائق التعاقبية فهي تنتج الأشكال الجديدة التي تصبح عندئذ جزءاً من أحد الأنساق الجديدة - ولكن - كما يقرر دوسوسير: «من المنظور التعاقبي يهتم المرء بظواهر لم ترتبط بالأنساق على الرغم من خضوعها لشروطها»(٢٤).

وهكذا يلح دوسوسير على ضرورة التمييز بين المنظورين التزامني والتعاقبي في جميع الحالات، إلا أن مناقشته تعالج التغيرات الصوتية فقط، وبالطبع فلتلك الأمثلة

(٢٣) Course, p. 85; Cours, pp. 121-2.

(٢٤) Course, p. 85; Cours, pp. 122.

التى يناقشها نتائج مورفولوجية ونحوية داخل النسق، وبالفعل قد يترتب على إعادة التكيفات الصوتية نتائج دلالية، ومع ذلك لم يتناول دوسوسير أبداً مشكلة التغير الدلالى ذاته أو التعديلات التعاقبية للمدلولات، فقد سلم بشكل عابر بأنه بمجرد أن يترك المرء مستوى الصوت يصبح من الصعب عليه الاحتفاظ بالتمييز المطلق بين المتزامن والمتعاقب [٢٥]، ولكن تحتم النظرية الدلالية على المرء القيام بهذا التمييز، وبإمكان المرء أن يقدم إحدى الحالات المقنعة لمد هذا التمييز بين هذين المنظورين إلى علم الدلالة **Semantics**.

تتماثل هذه المناقشة الدلالية من الناحية الشكلية إلى حد بعيد مع المناقشة التى اقتضتها التغيرات الصوتية، ولنفترض أن المرء يدرس تغير معنى **kunst** فى المخطوطات الألمانية بين عامى ١٢٠٠ و ١٣٠٠، ما الذى يمكن أن يكون تزامنياً، وما الذى يمكن أن يُعد تعاقبياً هنا؟ لتحديد تغير المعنى يحتاج المرء لمعنيين، ولا يمكن تحديد هذين المعنيين سوى عن طريق الحقائق التزامنية المسلم بها، أى عن طريق العلاقات القائمة بين المدلولات فى إحدى الحالات المفترضة من اللغة التى تحدد الدائرة الدلالية لـ **'kunst'**. كان يوجد فى إحدى المراحل المبكرة معرفة أو كفاءة ملكية رفيعة باعتبارها مقابلاً للمهارات الفنية الشعبية الغالبة، وكانت توجد مآثر جزئية أو نادرة باعتبارها مقابلاً للحكمة الشاملة، وفى مرحلة تالية اختلف التقابلان الرئيسان اللذان يحددانها: الدنيوى مقابل الروحى، والفنى مقابل اللا فنى. وهكذا أصبح لدينا تنظيمان مختلفان لأحد المجالات الدلالية، حيث تقوم أية إفادة تاريخية على المعلومات التزامنية، لكن إذا كان على تلك الإفادة تفسير ما حدث لـ **'kunst'** فإن عليها الإشارة إلى العوامل أو الأسباب غير اللغوية (التغيرات الاجتماعية، العمليات السيكولوجية... إلخ.) التى حدث وكان لتأثيراتها انعكاسات فى النسق الدلالى، فيما يتعلق بتحليل اللغة الإنسانية فالحقائق الوثيقة هى التقابلات التزامنية، أما المنظور التاريخى فهو يتناول الصلات المنفردة التى لا يمكن تحديد هويتها سوى فى ضوء نتائج التحليل التزامنى، والاعتماد على ما يطلق عليه ستيفن أولمان **S. Ullmann** «التنوع اللانهائى، وتعقد الأسباب التى تحكم التغير الدلالى» هذا لكى تأخذ فى الاعتبار الانتقال من حالة محددة إلى حالة أخرى، وعلى الرغم من ذلك فإن أية معرفة للمعانى السابقة وللأسباب الخاصة بالتغير لا ترتبط بمعالجة العلاقات الدلالية لأية حالة تزامنية (باستثناء أن تكون المعانى السابقة

(٢٥) Course, p. 144; Cours, p. 19.

لا زالت موجودة داخل النسق، وفى تلك الحالة فهى «تدرس دراسة تزامنية ولا تدرس دراسة تعاقبية»).

فى حالتنا هذه – كما فى الحالات التى درسها دوسوسير – فإن الحقائق التاريخية رتبة متميزة تختلف عن رتبة الحقائق التزامنية، فالحقائق التاريخية تواكب العناصر المستقلة عادة ولا تواكب النسق الذى بإمكانه وحده تحديد هذه العناصر بوصفها وحدات لغوية، وفى العادة يتجاهل التاريخ – أو التطور التاريخى للعناصر المستقلة – الأشكال التى يستخدمها النسق. ولأن دراسة الاستخدامات المنهجية لتلك الأشكال تمثل إحدى المهام الرئيسية لعلم اللغة، فإن التفسير التاريخى أو السببى للعناصر المستقلة ليس مطلوباً فى علم اللغة، وفى العادة أيضاً ينجذب التفسير التاريخى لعناصر اللغة بوصفها عناصر مستقلة لا غير، ولا ينجذب نحو اللغة ذاتها بوصفها نسقاً. فالتفسير المحورى فى علم اللغة تفسير بنائى: فيه يهتم المرء بتفسير أشكال التوليف وقواعده، وذلك بتصوير النسق الكامن من العلاقات فى حالة تزامنية محددة وهى الحالة التى تخلق عناصر هذا النسق التزامنى وتحددها.

٥ – تحليل "اللغة La langue":

فى الواقع تشير النتيجتان الرئيسيتان اللتان ترتبتا على الطبيعة العشوائية للعلامة إلى حقيقة واحد،وتلك الحقيقة تمثل محور نظرية اللغة عند دوسوسير: اللغة شكل وليست جوهراً، فاللغة نسق من أنساق القيم المترابطة تبادلياً، ولتحليل اللغة علينا تصوير نسق القيم الذى يؤلف إحدى حالاتها. ولذلك فعلى المقابل من العناصر الصوتية والعناصر الدالة من أفعال الكلام أو من الكلام **parole** تؤلف اللغة **la langue** نسقاً من أنساق التقابلات أو الاختلافات، وتنحصر المهمة الرئيسية للمحلل اللغوى فى اكتشاف طبيعة تلك التقابلات أو الاختلافات.

والمشكلة الأساسية التى تصادف المحلل اللغوى – وفقاً لتأكيد دوسوسير – هى مشكلة الهُوية اللغوية، وذلك لعدم وجود شئ مقدماً فى علم اللغة، حيث لا يوجد فى هذا العلم أى عناصر موجبة أو ذاتية التعريف يمكن للمرء البدء منها. ومن ثم فلكى نعين هُوية أى مظهرين لأية وحدة لغوية ليس أمام المرء سوى إقامة إحدى الكينونات الشكلية أو العلاقية، حيث يقوم بالتمييز بين الاختلافات الوظيفية والاختلافات غير الوظيفية (أو غير اللغوية حسب تعبير دوسوسير)فيها. وبمجرد الانتهاء من تعيين هُوية العلاقات التى تحدد حدود «الدوال» وتقابلاتها من ناحية، وحدود «المدلولات» من الناحية الأخرى

سوف يصبح لدى المرء أشياء يمكن وصفها باعتبارها كينونات موجبة أو علامات لغوية، إلا أنه يجب أن نتذكر دائماً أن تلك الكيانات لم تنشأ سوى عن شبكة الاختلافات أو التقابلات التى تؤلف النسق اللغوى فى إحدى الفترات المفترضة واعتمدت عليها.

ومع ذلك قد يُفهم حتى الآن أننا حين نتحدث عن العلامات اللغوية ووحداتها أننا نتحدث عن الكلمات فحسب، أو أن اللغة لا تتكون سوى من معجم مفردات انتظمت وفقاً للاختلافات أو التقابلات الفونولوجية والدلالية وحسب، ولكن الأمر غير ذلك بالتأكيد، لأن اللغة تتكون أيضاً وبطبيعة الحال من العديد من العلاقات النحوية وتمييزاتها، ومع ذلك يؤكد دوسوسير (فى إحدى الفقرات الجديرة بالاقتباس) عدم وجود أى اختلاف بين الوحدة اللغوية والحقيقة النحوية، وأن طبيعتهما المشتركة هذه تعد نتاجاً لطبيعة العلامات بوصفها موضوعات اختلافية، ولذلك فإن ما يؤلف العلامة اللغوية (بكامل أنواعها) ليس سوى الاختلافات القائمة بين العلامات.

تتمثل إحدى النتائج المتناقضة المترتبة على هذا المبدأ فى تسليمه بأن ما ينسب لأية حقيقة نحوية يلائم فى الوقت نفسه تعريف أية وحدة لغوية؛ حيث يعبر عن الحقيقة النحوية دائماً فى ضوء التقابلات القائمة بين الحدود، وهكذا وكما فى اللغة الألمانية يمثل التقابل بين **Nacht** (وتعنى ليلة) و **Nächte** (وتعنى ليالى) احدى الحقائق النحوية.

«من الواضح أن كل حد من هذين الحدين الألمانيين الممثلين لإحدى الحقائق النحوية (صيغة المفرد الخالية من الصائت المتغير، والخالية من الصائت /e/، بوصفها مقابلاً لصيغة الجمع ذات الصائت المتغير، وذات الصائت الأخير /e/) لم ينتج بذاته سوى عن التفاعل القائم بين التقابلات داخل النسق، فهذان الحدان الألمانيان لا يمثلان بذاتهما شيئاً، وإنما يكمن مغزى كل شئ فى التقابل القائم بينهما داخل النسق، بتعبير آخر يمكن للمرء التعبير عن العلاقة القائمة بين **Nacht** و **Nächte** بالصيغة الجبرية **a/b**، حيث لايُعد كل من **a** و **b** فى تلك الصيغة الجبرية مجرد حدين وحسب، بل يعد كل حد منهما بمثابة إحدى النتائج المترتبة على إحدى قوائم التقابلات، وهكذا يعد النسق اللغوى- كما هو دائماً- أحد العلوم الجبرية التى تحتوى وحدها على الحدود المعقدة، وقد يكون لبعض التقابلات التى يقيمها النسق بين الحدود دلالة أكثر من بعضها الآخر، إلا أن «الوحدة اللغوية» و «الحقيقة النحوية» ليسا سوى اسمين مختلفين للمظاهر المحددة للظاهرة العامة نفسها: لعبة التقابلات اللغوية، وهكذا فمن الطبيعى أن نتناول تقابلاً مثل **Nacht** و **Nächte** وبإمكاننا أن نتساءل عن الوحدات التى تضمها هذا التقابل. هل يشكل هذا التقابل كلمتين فحسب، أم أنه يمثل سلسلة

كاملة من الكلمات المماثلة؟ هل يمثل هذا التقابل صيغة a/ä فقط (فى الألمانية تشير النقطتان الموضوعتان فوق الصائت إلى التغير الحادث فى الصوت للدلالة على صيغة الجمع) أم أنه يمثل صيغ الإفراد والجموع كلها... إلخ؟

«لو كانت العلامات اللغوية مكونة من شئ آخر غير الاختلافات عندئذ قد لا تتماثل «الوحدة اللغوية» و «الحقيقة النحوية». ولكن ولكون النسق اللغوى هو ذاته فلن يجد المرء مهما كان الموضع الذى يبدأ منه سوى هذا التوازن المعقد للحدود المقيدة أو المتكيفة تبادلياً. وبتعبير آخر اللغة شكل وليست جوهراً، وليس بمقدور المرء استيعاب تلك الحقيقة كاملة لأن كل الأخطاء التى تملأ مصطلحاتنا التقنية، وكل الأساليب غير الدقيقة التى نستعين بها فى تعيين مختلف مظاهر اللغة هى فى الواقع نتيجة لافتراضنا اللاإرادى أن الظواهر اللغوية يجب أن يكون لها جوهر» (٢٦).

«ولنتأمل – على سبيل المثال – وضع الكلمة الإنجليزية took، ونتساءل أين علامة الزمن الماضى فيها؟ من الواضح أنه لا يوجد أى شئ موجب فى الكلمة ذاتها، وإنما يوجد أحد العناصر العلاقية، حيث ينطوى التقابل بين تلك الكلمة وكلمة take على علامة التمييز بين الزمن المضارع والزمن الماضى، مثلما ينطوى التقابل القائم بين كلمتى foot و feet على علامة تمييز العدد، فلولا وجود كلمة feet لكانت كلمة foot (افتراضاً) كلمة غير محددة العدد. وهكذا توضح الحقائق النحوية الطبيعة العلاقية الخالصة للعلامة وتثبت تصور دوسوسير الجذرى لتماثل الحقائق التزامنية كلها» (٢٧).

يهتم عالم اللغة فى دراسته للغة بالعلاقات: أى يهتم بالهُويات وبالاختلافات. وهو يهتم – كما يشير دوسوسير – بالكشف عن نمطين أساسيين من هذه العلاقات، النمط الأول وهو نمط العلاقات التى انتهينا من مناقشتها الآن: وهى التقابلات التى تثبت الحدود البارزة والمتبادلة (مثل b بوصفه مقابلاً لـ p، و foot بوصفها مقابلاً لـ feet). أما النمط الثانى فهو نمط العلاقات التى تتركب الوحدات فى ضوئها معاً لتشكيل متتاليات، حيث لا تعتمد قيمة الحد فى المتتالية اللغوية على التقابل القائم بينه وبين بقية الحدود التى تم اختيارها لفائدتها الآنية فى تلك المتتالية فحسب، وإنما تعتمد قيمته أيضاً على العلاقة القائمة بينه وبين الحدود الأخرى التى تسبقه وتعقبه فى المتتالية نفسها، ولقد أطلق دوسوسير على نمط العلاقات الأولى اسم العلاقات الترابطية

(٢٦) Course, pp. 121-2; Cours, pp. 168-9.

(٢٧) Course, p. 134; Cours, p. 187.

associative (وهو النمط الذى يعرف حالياً باسم العلاقات الاستبدالية paradigmatic) وأطلق على نمط العلاقات الثانية اسم العلاقات التراصفية syntagmatic: وهى العلاقات التى تحدد الإمكانات التراصفية فى المتتاليات اللغوية. بتعبير آخر تشير العلاقات التراصفية إلى نمط العلاقات القائمة بين العناصر التى يتوافق التراصف بينها فى المتتاليات، وتشير العلاقات الاستبدالية إلى التضادات القائمة بين العناصر التى يحل بعضها محل بعضها الآخر فى المتتاليات نفسها.

والمهم هنا هو وجود هذه العلاقات على مختلف مستويات التحليل اللغوى. فعلى المستوى الفونولوجى تتحدد هوية الفونيم /p/ فى ضوء التقابل القائم بينه وبين الفونيمات الأخرى التى تحل محله فى مختلف السياقات، كما نجد فى سياق (et -)، (مثال : set, net, met, let, bet)، وفى ضوء العلاقات التراصفية التى يقيمها الفونيم ذاته مع الفونيمات الأخرى (حيث يمكن لهذا الفونيم أن يسبق أى صائت أو أن يعقبه، فى حين لا يسبقه سوى الصائت /s/ فقط، ولا يعقبه سوى الصائتين الخفيفين/r/ و / l / فقط).

ويمكن العثور أيضاً على نمطى العلاقات التراصفية والاستبدالية كليهما على المستوى المورفولوجى أو على مستوى بناء الكلمة، ففى الإنجليزية يتحدد الاسم جزئياً بالتراصفات التى يدخل فيها مع الزوائد السابق عليه أو اللواحق. ولذلك يتخذ المورفيم friend أشكالاً تراصفية مثل: friendless و friendly و friendliness و unfriendly و befriend و unbefriended و friendship و unfriendliness ولايتخذ أشكالاً مثل : *disfriend و friendier و friendation * و *subfriend و *overfriend و *defriendize... إلخ.

وهكذا تُظهر الإمكانات التراصفية للمورفيم morpheme العلاقات التراصفية، فى حين تُظهر الإمكانات التضادية له مع المورفيمات التى تحل محله فى البيئات المفترضة العلاقات الاستبدالية.

وهكذا نجد تضاداً استبدالياً بين المورفيمات ly - و less - و ship - ، على اعتبار أنها تظهر جميعها بعد المورفيم friend ، وعلى اعتبار أن إحلال مورفيم منها محل مورفيم آخر فى إحدى البيئات يؤدى بالضرورة إلى تغير فى المعنى، وبالطريقة نفسها فللمورفيم friend علاقات استبدالية مع مورفيمات مثل lecture و member و dictator و partner و professor ... إلخ. حيث تتضاد جميعها فيما بينها فى بيئة مثل

بيئة ship - . وإذا انتقلنا إلى مستوى النظم أو بناء الجملة syntax يمكننا الاستمرار فى تحديد نمطى العلاقات نفسيهما، ولذلك فالعلاقات التراصفية التى تحدد أحد المكونات وليكن (he frightened) هى ذاتها العلاقات التراصفية التى تسمح لمكونات أو مواد بعينها أن تعقب هذا المكون بالذات، وبالتالى يمكن أن يعقب هذا المكون مكونات مثل : george أو the man standing on the corner ولايعقبه مكونات مثل : the * ston أو purple * أو sincerity * . وفى الوقت ذاته فإن معرفة العلاقات التراصفية للمكون he frightened هى ذاتها المعرفة التى تمكننا من تحديد فئة المفردات أو المواد الاستبدالية التى يمكن أن تحل محله، ذلك لأن المفردات أو المكونات التراصفية ذاتها فى حالة تضاد استبدالى فعلى فيما بينها،. ولأن اختيار إحدى المفردات أو أحد المكونات التراصفية يعد فى الوقت نفسه بمثابة إنتاج لأحد المعانى التى ترتبت على إقصاء أحد المفردات أو المكونات التراصفية الأخرى.

وهكذا يدعى دوسوسر إمكانية اختزال النسق اللغوى برمته إلى مصطلحات نظرية العلاقات التراصفية والاستبدالية وتفسيره فى ضوئها، ويدعى كذلك أن الحقائق التزامنية حقائق متماثلة أساساً، وربما يكون هذا الادعاء هو التوكيد الأوضح لما يعرف باسم النظرة البنيوية للغة، وليس مجرد النظر للغة بوصفها نسقاً مكوناً من عناصر قد تحددت هويتها كلية فى ضوء العلاقات القائمة بينها داخل النسق، فعلى الرغم من كون اللغة كذلك فإن النظرة البنيوية تؤكد أن للنسق اللغوى مستويات مختلفة من البناء، وأنه بإمكان المرء أن يحدد على كل مستوى منها العناصر التى تتضاد فيما بينها، والعناصر التى تتوافق مع عناصر أخرى لتشكيل وحدات المستوى الأعلى، وأنه ليس هناك أى اختلاف فى مبادئ البناء على كل مستوى منها.

على أى حال يمكننا تلخيص وجهة النظر البنيوية وتوضيحها بقولنا إن اللغة شكل وليست جوهراً، أى أنه ليس لعناصرها من خواص سوى الخواص التضادية والتراصفية، وأن تحديد العناصر اللغوية أو وحدات اللغة فى كل مستويات البناء يتم فى ضوء أهلية تلك العناصر أو الوحدات للتفرقة بين وحدات المستوى المتقدم على كل مستوى منها، ومن ثم يتم تحديد المظاهر التمييزية الفونولوجية فى ضوء العلاقات التى تميز الفونيم /b/ عن الفونيم /p/ أو التى تميز الفونيم /d/ عن الفونيم /t/ بوصفه فونيماً مجهوراً voiced مقابلاً لفونيم مهموس voiceless، وهكذا يعد المجهور بوصفه المقابل للمهموس بمثابة أحد المظاهر التمييزية الأدنى. والمهم أن التمييز بين هذه الفونيمات يعود إلى قدرة التقابلات القائمة بينها على التمييز بين المورفيمات، فنحن

نعلم أن /b/ و /p/ وحدتان فونولوچيتان، لأنهما تتقبلان لتمييز المورفيم bet عن المورفيم pet، ونعلم أن bet و pet وحدتان مورفولوچيتان بالضرورة، لأن التضاد القائم بينهما يميز – على سبيل المثال – بين betting، petting أو يميز بين bets و pets، ونعلم أيضاً أن المفردات التى نطلق عليها بالعامية «كلمات» تؤدى أدواراً مختلفة فى وحدات المستوى الأعلى للبناء وهو مستوى العبارات والجمل.

ومن جديد يثبت تأكيد دوسوسير على الاعتماد المتبادل القائم بين مختلف مستويات اللغة عدم وجود شئ مقدماً فى علم اللغة، وعلى ذلك لا يمكن للمرء أن يحدد عناصر أحد المستويات (أو وحداته) مقدماً ثم يشرع بعد ذلك فى استنباط الطريقة التى تتركب العناصر أو تتوافق بها بغاية تشكيل عناصر المستوى التالى (أو وحداته)، وذلك لأن العناصر (أو الوحدات) التى قد يحاول المرء البدء منها قد تحددت هى أيضاً منذ البداية بالعلاقات التراصفية والاستبدالية كليهما. وعلى هذا الأساس فالطريقة الوحيدة التى تستخدم فى تحديد إحدى الوحدات المورفيمية فى اللغة الإنجليزية على سبيل المثال، وليكن تحديد الزائدة -re، لا تنحصر فى التساؤل عما إذا كان هذا العنصر المورفيمى يتضاد مع عناصر مورفيمية أخرى أم لا؟ وإنما ينحصر فيما إذا كان هذا العنصر المورفيمى يدخل (حين يتركب مع عناصر مورفيمية أخرى بغاية تشكيل إحدى وحدات المستوى الأعلى) فى تضادات مع العناصر المورفيمية الأخرى التى تميز تركيب وحدات المستوى الأعلى وتحددها أم لا؟. فنحن نعرف أن المورفيم -re يتضاد استبدالياً مع مورفيمات مثل -un و -out و -over لأن redo تتضاد مع undo و outdo و overdo، ونعرف أن do هو أحد العناصر المورفيمية المستقلة لأن redo تتضاد مع rebuild و reuse و reconnect... إلخ، ولذلك يجب القول إن التضادات القائمة بين الكلمات هى التضادات الوحيدة التى تمكننا من تحديد مكونات المستوى الأدنى، أى المورفيمات. ويجب على المرء أن يستنبط تلقائياً العلاقات الاستبدالية والتراصفية كليهما، ففى كل مستويات اللغة يعمل هذا المبدأ البنائى الأساسى: تتحدد المفردات أو المواد اللغوية بتضاداتها مع بعضها بعضاً، وبقدرتها على التراصف فيما بينها بغاية تشكيل مفردات أو مواد المستوى الأعلى.

٦ – اللغة بوصفها حقيقة اجتماعية:

عندما شرحنا المظاهر التقنية فى نظرية اللغة عند دوسوسير لم نهتم بالقدر المناسب بأحد المبادئ الأساسية التى أولاها دوسوسير عنايته الفائقة: «عند تحليل اللغة

نحن نقوم بتحليل حقائق اجتماعية، ونهتم بالاستخدام الاجتماعي لموضوعات مادية».
وكما ذكرنا من قبل قد تتحقق اللغة في مواد متباينة دون أن يُعدِّل ذلك طبيعتها الأساسية بوصفها نسقاً من العلاقات، لأن المهم هنا هو التمييزات والعلاقات التي تمنحها المجتمعات لتوليد المعاني، ولذلك فالسؤال الذي يجب أن يطرحه الباحث اللغوي باستمرار: ما الاختلافات التي تنطوي على معنى بين أعضاء أحد المجتمعات؟ وقد يكون من الصعب تحديد الشكل الدقيق للموضوعات أو الأشياء التي تستخدم بين أعضاء أحد المجتمعات بوصفها علامات، ولكن متى كان لـ «الاختلاف» معنى وجدت علامة (أو تجريد) يجب تحليلها. فمن المعروف – على سبيل المثال – أن جملة **John loves Mary** تختلف في معناها لدى متحدثي الإنجليزية عن جملة **Mary loves John** لأن ترتيب الكلمات داخل الجمل يمثل بين أعضاء الثقافة الإنجليزية إحدى العلامات، أي يمثل إحدى الحقائق الاجتماعية، في حين أن الاختلافات الفيزيائية الناتجة عن طرائق نطق الأشخاص لأية جملة من هاتين الجملتين لا تشكل بذاتها أي معنى (أو أية علامة) لديهم. فمثل هذه الاختلافات الفيزيائية تعد بمثابة حقائق مادية فحسب، ولا تعد حقائق اجتماعية.

والآن يمكننا أن ندرك تماماً أن عالم اللغة لا يهتم أساساً بدراسة هذا الكم الضخم من المتتاليات الصوتية التي يستخدمها أعضاء أحد المجتمعات في الاتصال، وإنما يهتم بدراسة الأعراف أو الأحكام الاجتماعية التي تسمح باستخدامها على هذا النحو أو ذاك، يحاول عالم اللغة إذن تحديد الوحدات التراصفية أو القواعد العامة للنسق الذي يسمح بتحقيق الاتصال اللغوي بين أعضاء أحد المجتمعات. ولقد كان وضع الأعراف الاجتماعية والحقائق الاجتماعية في قلب البحث اللغوي وتوكيد مشكلة العلامة هو إحدى الفضائل في نظرية اللغة عند دوسوسير. ما العلامات المكونة للنسق اللغوي؟ وعلى أي شئ يعتمد تحديد هُويتها بوصفها علامات؟ وقد كان طَرْحُ دوسوسير لمثل هذه الأسئلة البسيطة يؤكد باستمرار عدم وجود شئ يمكن التسليم به مقدماً في علم اللغة، ويؤكد على أهمية تبني المنظور المنهجي الصحيح، وأهمية النظر للغة بوصفها نسقاً من القيم الاجتماعية وليس بوصفها مجموعة من العناصر المادية. وعلى أي حال يمكن لنا الآن وفي ختام مناقشة نظرية اللغة عند دوسوسير اقتباس فقرتين لهما صلة وثيقة بهذا الموضوع، كان قد سبق لدوسوسير وأن كتبهما بقلمه :

«القانون المطلق الذي يحكم اللغة هو – ولنتجرأ ونقول – ليس بمقدور شئ أن يستقر أبداً في حد بعينه، ويمثل هذا القانون أحد النتائج المباشرة المترتبة على عدم

ارتباط العلامات اللغوية بما تشير إليه. فلا يمكن لـ /a/ أن تشير بذاتها إلى شئ دون مساعدة /b/ والعكس صحيح تماماً. وبتعبير آخر لا يمكن أن يكون لأى منهما قيمة إلا بوصفه نتيجة للاختلافات القائمة بينهما، أى ليس لأى منهما قيمة أو لأى مكون من مكوناتهما قيمة إلا من خلال الشبكة ذاتها من الاختلافات السالبة أبداً».

«لأن اللغة لا تتكون من مادة، وإنما تتكون من أحد الأفعال أو أحد مركبات القوى الفسيولوجية والسيكولوجية والذهنية، ولأن كل تمييزاتنا ومصطلحاتنا وأساليب حديثنا عنها قد صيغت بفعل إحدى الفرضيات الإلزامية بأن للغة جوهراً مادياً، يجب الاعتراف بأن المهمة الأساسية للنظرية اللغوية هى تفكيك الوضع السئ لتمييزاتنا الأساسية أو حله، وليس لأى شخص الحق فى إقامة إحدى النظريات وهو يتجنب البحث عن مشكلة التعريف، ومع ذلك فالظاهر أن هذا الإجراء المريح قد أرضى حتى الآن كل دارسى اللغة» (٢٨).

ولتعزيز عدم الرضا، ولإثارة التفكير فى الأساسيات ولتأكيد الطبيعة العلاقية المحضة للظواهر اللغوية، تلك هى الانتصارات الحقيقية التى أحرزتها نظرية اللغة عند دوسوسير. ويمكننا الآن تناول المغزى الأعرض لتلك النظرية وعلاقتها بالتفكير اللغوى السابق عليها واللاحق، وبالأبحاث التى تمت فى العلوم الإنسانية الأخرى على حد سواء.

(٢٨) 'Notes inedites de F. de Saussure', Cahiers Ferdinand de Saussure 12 (1954), pp. 63 & 55-6.

الفصل الثالث

مكانة
نظريات
دوسوسير

هناك ثلاثة سياقات مختلفة يمكن للمرء فيها تقييم أهمية فكر دوسوسير، وعلى الرغم من أن تصوير أهمية هذا الفكر فى تلك السياقات قد يقتضى تكرار بعض المفهومات أو الرؤى إلا أنه من الأفضل للمرء أن يدرس على التوالى علاقة دوسوسير بأسلافه فى علم اللغة، وعلاقات نظريات اللغة عنده بتيارات الفكر الرئيسية خارج هذا العلم، وأخيراً التأثير الذى مارسه فى علم اللغة الحديث، والمكانة التى شغلتها أفكاره عند خلفائه.

ولهذه النظرة الشاملة العريضة أهميتها دون شك، لأن أهمية دوسوسير لا تكمن مباشرة فيما أسهم به فى علم اللغة بذاته، وإنما تكمن فى الواقع فى أنه جعل لهذا العلم (الذى قد يبدو من نواح أخرى بمثابة فرع من المعرفة المتخصصة المبهمة) حضوراً عقلياً رئيسياً، وجعل منه نموذجاً لكل فروع المعارف الأخرى للعلوم الإنسانية. بتعبير آخر ينحصر المطلب الضمنى من هذا الفصل فى تمحيص الأسلوب الذى استجاب دوسوسير به لوضع علم اللغة فى أيامه، والكشف عن الرؤى الأساسية التى قدمها فيما يتعلق بدراسة السلوك الإنسانى والموضوعات الاجتماعية الأخرى.

١ - علم اللغة السابق على دوسوسير:

يبدأ «محاضرات فى علم اللغة العام» برواية مكثفة لملاحظات دوسوسير الخاصة بتاريخ علم اللغة،متجاهلاً دراسة اللغة قبيل عام ١٨٠٠، يميز دوسوسير بين مرحلتين من البحث اللغوى: المرحلة الأولى هى مرحلة الفيلولوجيا المقارنة **Comparative Philology** أو القواعد المقارنة التى يؤرخ لها ابتداء من بحث فرانز بوب **F. Bopp** الذى نشر عام ١٨١٦ (والذى قارن فيه النسق الصرفى للسنسكريتية **Sanskrit** مع الأنساق الصرفية لعدد من اللغات)، والمرحلة الثانية تبدأ بالتحديد فى عام ١٨٧٠، وهى المرحلة التى أصبحت فيها الفيلولوجيا المقارنة فيلولوجيا تاريخية **Historical Philology** بالمعنى الضيق للكلمة التى بدأ فيها بعض علماء اللغة فى طرح الأسئلة ذات الصلة الوثيقة بطبيعة اللغة والمنهج اللغوى على حد سواء.

فى الواقع لم يكن عند دوسوسير إلا القليل ليقوله حول علم اللغة قبيل عام ١٨٠٠، وربما يرجع ذلك إلى عدم اهتمامه بالمشكلات العامة فى التاريخ الفكرى لهذا العلم قدر اهتمامه بمناهج التحليل اللغوى وتعريف الحقائق اللغوية. ولكن إذا كنا نضع

نصب أعيننا المغزى الأشمل لنظرية اللغة عند دوسوسير ذاتها، فلا بد أن نأخذ بعين الاعتبار الأسباب التى دعته «هو» ذاته للتمرد على علم اللغة فى القرن التاسع عشر، بما يقتضيه ذلك من وصف جدلى لبعض المبادئ الضمنية أو لبعض الدلالات التى تضمنتها دراسة اللغة قبيل القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من أن معالجتنا ستكون حتماً معالجة تمهيدية وانتقائية وتجريدية إلاأنها تعد بالضرورة خطوة أساسية فى أية محاولة لفهم ما أعاد دوسوسير اكتشافه فى الفكر اللغوى السابق عليه أو ما احتفظ به منه.

من المفترض فى الشخص الذى يختار أن يكرس نفسه لدراسة اللغة أنه تعهد شيئاً جديراً بالاهتمام، ومع ذلك من المحتمل أن لا يكون له وجهة نظر واضحة حول الهدف من دراسة اللغة، فى هذه الحالة من الطبيعى أن تشكل الادعاءات التى قامت عليها أبحاث معاصرين وجهة نظره أو قاعدة ضبط أبحاثه اللغوية. وعلى هذا الأساس سوف تختلف قاعدة ضبط علم اللغة فى العصر الذى يفترض أن هذا العلم سوف يتغلغل فى الصفات المميزة للأمة أو السلالة عن قاعدة ضبط العلم ذاته فى العصر الذى يفترض أن هذا العلم سوف يلقى الضوء على طبيعة التفكير الإنسانى أو طبيعة العقل ذاته.

لقد قامت دراسة اللغة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر على هذا الافتراض الأخير، بل وشجعته، فقد كانت دراسة اللغة وسيلة لفهم التفكير الإنسانى ذاته. ولقد اتخذت دراسة اللغة فى هذا السبيل شكلين مختلفين وفقاً لنمط السؤال المطروح حول التفكير، المدخل الأول هو مدخل القرن السابع عشر وكان يمثله أفضل تمثيل قواعد بور رويال **Port Royal Grammar** ، وهو المدخل الذى اتخذ من اللغة نموذجاً للتفكير وعدها إحدى الصور المجسده له، وقد حاول العلماء من خلال دراسة اللغة اكتشاف منطق عالمى أو كونى، أى اكتشاف قوانين العقل، ولقد انحصر المشروع الرئيسى لهؤلاء العلماء فى تقديم تفسير عقلانى لأقسام الكلام، وفى تقديم التصنيفات أو المقولات النحوية. وهكذا روى لنا – على سبيل المثال – أن «الفعل **verb**» هو فى الأساس أحد تمثيلات حالة الإثبات، ومن ثم فالفعل العالمى الحقيقى هو فعل **to be**، وأن اللغات أضافت إلى أفعالها الوظيفة اللفظية الحقيقية لحالة الإثبات، أو لحالة التوكيد من ناحية، والوظيفة اللفظية لتعيين أى «نعت» من ناحية أخرى. ولذلك حللت **Peter lives** فى «القواعد المنطقية» بوصفها **Peter is living**، على اعتبار أن الفعل الحقيقى **is** يعزو **living** لـ **Peter**.

كانت تلك النوعية من القواعد «قواعد لازمانية» أو قواعد تزامنية تماماً، وقد لاحظ دوسوسير ذلك بنفسه وتساءل مستفسراً بطريقة تحقيرية: كيف درس هؤلاء اللغة

قبل الانتهاء من تأسيس علم اللغة؟ إنه على الرغم من عدم وجود أى عيب فى وجهة نظر نحاة القرن السابع عشر (فقد كان لديهم موضوع تحدد بشكل جيد، وكانوا يعرفون ما يقومون به، ولم يخلطوا أبداً بين الدراسات التزامنية والتعاقبية) إلا أن ممارستهم كانت معيبة من نواح أخرى كثيرة [١]. وقد كان غياب البعد الزمنى بالتحديد هو الذى أزعج خلفاءهم فى القرن الثامن عشر الذين ذهبوا إلى أنه إذا كانت لدى المرء رغبة حقيقية فى فهم التفكير فليس كافياً أن يستنتج القواعد المنطقية فقط، وإنما يجب عليه أن يناقش كيفية تشكيل الأفكار وتطورها، فقد كان هذا الاقتراح بمثابة أحد الاقتراحات الحاسمة عند أتباع جون لوك J. Locke على وجه الخصوص، كى نفهم العقل الإنسانى يجب أن يعرف المرء كيف تطورت الأفكار عن الأحاسيس، وهى مشكلة تناولها بالتحديد عالم اللغة الفرنسى كوندياك E. B. de Condillac وجعل منها عنواناً لبحثه: «مقال حول أصل المعرفة الإنسانية». فى هذا البحث يبدأ كوندياك فى إثبات أن الأفكار تشتق من الإحساس، وأن آلية الاشتقاق هى أى ارتباط بين الأفكار قد نتج عن استخدام العلامات، وليس لتفاصيل مناقشة كوندياك لهذه المشكلة أهمية هنا وإنما المهم هو الوجهة التى قادته هذه المناقشة إليها. فهو فى محاولته إظهار أن للفكر أصلاً طبيعياً وأن كينونة الانعكاس والتصورات المجردة هى شئ يمكن تفسيره تجاوز الادعاء القائل بأن اللغة تمثل إحدى الصور المجسدة للفكر (وهو موقف القرن السابع عشر) ، ليثبت أن الأفكار المجردة تمثل إحدى النتائج المترتبة على العملية التى تبتكر بها العلامات وقد كان على كوندياك أن يثبت ما إذا كانت هناك عملية طبيعية يمكن بواسطتها أن تنشأ اللغة (القائمة على العلامات العرفية أو الاصطلاحية)عن إحدى الخبرات البدائية أو غير الانعكاسية، ومن ثم فقد كان عليه أن يحصر نفسه فى أصل اللغة.

ومن خلال كوندياك وأتباعه أصبحت قضية أصل اللغة إحدى القضايا الرئيسية فى تفكير علماء القرن الثامن عشر، ومع ذلك لم تبحث هذه القضية بوصفها قضية تاريخية وإنما بُحثت بوصفها إحدى القضايا الفلسفية، فقد انشغل العلماء بأصل اللغة بغاية إلقاء الضوء على طبيعتها ومن ثم إلقاء الضوء على طبيعة الفكر، أى بتفسير أصل الشئ يكون المرء قد فسر طبيعته، وهكذا انتهى تفكير القرن الثامن عشر فى اللغة إلى التركيز بشكل خاص على ما يمكننا أن نطلق عليه علم التأصيل الفلسفى أو

(١) Course, p. 82; Cours, p. 118

الإيتمولوجيا الفلسفية **Philosophic Etymology**، أى محاولة تفسير العلامات والأفكار المجردة بتصور أن لها أصولاً فى الإيماءة والفعل والإحساس، ولذلك اقترح كونديياك – على سبيل المثال – أن حروف الجر لم تكن فى الأصل سوى أسماء للإيماءات التى تعين الاتجاهات، وربما تعود مثل تلك الفرضيات إلى الإسهاب الثابت الذى ظهر فى اقتراح لوك: «يمكن أن تبين دراسة أصول الكلمات المفهومات التى أوصت بها الطبيعة ذاتها للبشر»، وهو الاقتراح الذى اتخذ منه تورجت **Turget** موضوعاً لإحدى الدراسات الإيتمولوجية التى قدمها للموسوعة الفرنسية فى ذلك الحين.

لقد أدت الرغبة فى دراسة آلية العقل داخل اللغة إلى البحث عن المصادر أو الجذور البدائية: أى العناصر الأساسية التى تكمن – بمعنى ما – فى صميم كل العلامات التى تطورت منذ ذلك الحين عنها. فأى مصدر أو أى جذر هو بمثابة اسم أولى أو بدائى أى بمثابة تمثيل أساسى، أما التطورات التالية فيمكن التسليم بها بوصفها امتدادات مجازية أو زيادات (إن لم تكن تحريفات) للعلامات الأساسية. وربما كانت الاستنتاجات الموجودة فى كتاب توك **H. Tooke** المعنون **The Diversions of Purely** من أكثر الأمثلة المضحكة لنمط التفكير الذى كان شائعاً فى انجلترا وفرنسا فى القرن الثامن عشر. وإليك معالجة توك للجذر **bar**: «جذر **bar** فى كل استخداماته هو الحصن، الذى يتحصن به الشئ أو يقوى به نفسه أو يدافع به عنها، و **barn** هى أحد المخازن المغطاة التى تستخدم لحفظ الحبوب من الطقس والنهب، و **baron** هى أى رجل مسلح أو مدافع عن نفسه أو يتميز بالقوة، **barge** هى أحد القوارب القوية، و **bargain** هو أحد العقود القوية المؤكدة، و **bark** هى إناء متين و **the bark of a tree** هو حمايتها...».

وقد يكون هذا المثال مثالاً متطرفاً إلا أنه يوضح العديد من المسائل المهمة:

أولاً: لقد تمت دراسة اللغة فى القرن الثامن عشر فى ضوء نظريات التمثيل. حيث أصبحت الكلمات بمثابة العلامات التى تصور المقولات الأساسية للخبرة بقدر ما يكون لتلك العلامات التى صُنفت انسجاماً مع تلك المقولات من أهمية. فوحدة التمثيل أو المعنى هى المستفيد من ورود هذه الكلمات معاً.

ثانياً: لإلقاء الضوء على التفكير حاول الباحثون اقتراح العلامات: فلم تكن كلمة **baron** على سبيل المثال تركيباً عشوائياً بين أحد المتتاليات الفونولوجية وأحد المعانى، وإنما تم اقتراح هذه الكلمة بفعل اشتقاقها المفترض من أحد المصادر أو الجذور

البدائية، الذى يعد بذاته الأساس الطبيعى لكل العلامات التى لها صلة وثيقة به. وبمعنى عام فقد زعم المشروع الإتمولوجى أن كلمات لغتنا ليست علامات عشوائية، لأن لها أساساً عقلانياً، وأنها تتماثل مع إحدى العلامات البدائية.

ثالثاً: لقد تم الاستشهاد بالزمن وهو أمر كان شائعاً فى القرن الثامن عشر، إلا أنه لم يكن بتفاصيل اهتمامات أى مشروع تاريخى وإنما كان خيالاً أدبياً تفسيرياً **an explanatory Fiction**. وقد فتحت تلك الخطوة الطريق أمام الدراسة التاريخية الصحيحة للتطور اللغوى، التى كانت فى الوقت نفسه بمثابة ضربة قوية فى صميم المشروع الفلسفى (نتيجة قضائها على الايتمولوجيات الفلسفية)، ومع ذلك فقدجعل دارسو اللغة فى القرن الثامن عشر من أنفسهم باستشهادهم بالتاريخ - وإن كان خيالاً أدبياً - موضعاً للانتقاد.

أخيراً: فقد تم تصور العلاقة بين اللغة والعقل بشكل مفتت حين تم تناولهما (اللغة والعقل) على نحو مستقل، ومع أن العلامات تمثل إلى حد ما طبيعة العقل والعمليات الذهنية إلا أن الربط بين اللغة والعقل لم يتم من خلال الأبنية المنطقية للقواعد الفلسفية (كما كان الوضع سائداً فى القرن السابع عشر) وإنما تم الربط بينهما من خلال المفاهيم أو الأفكار الطبيعية التى تم تمثيلها بجذور أو مصادر مستقلة.

ولقد رفض علم اللغة فى القرن التاسع عشر هذه الاهتمامات أو الإجراءات الأربعة، كما يثبت هانز أرسليف **H. Aarsleff**:

«هناك اتفاق عام على أن التحول الحاسم فى دراسة اللغة لم يظهر إلى حيز الوجود إلا عندما تم التخلى عن منهج القرن الثامن عشر الفلسفى السابق فى صالح منهج القرن التاسع عشر التاريخى اللاحق. بدأ المنهج الأول بالمقولات الافتراضية الذهنية، والتمس مثلها فى اللغة وفى القواعد العالمية، وأقام الايتمولوجيات على «ظنون» أصل اللغة. أما المنهج الأخير فقد التمس الحقائق والإثبات والتفسير، وفصل دراسة اللغة عن دراسة العقل» [٢].

(٢) Aarsleff, Hans (1967); The Study of English in England : 1780 - 1860; Princeton,p. 127.

ويحتوي هذا الكتاب علي إحدي المناقشات الممتازة لتاريخ علم اللغة من منظور أعرض بكثير عما يشير إليه العنوان.

وبرفض الارتباط بين اللغة والعقل فقد القرن التاسع عشر الاهتمام بـ «الكلمة» بوصفها علامة أو بوصفها تمثيلاً، وأصبحت «الكلمة» بمثابة إحدى الأشكال التى يمكن مقارنتها مع الأشكال الأخرى لإقامة العلاقات بين اللغات، أو أصبحت «الكلمة» من ناحية أخرى شكلاً يجب اقتفاء أثر تطوره التاريخى، وهكذا تم التخلى عن التاريخ الخيالى أو الأدبى الذى ميز الإيتمولوجيات الفلسفية لصالح أحد التواريخ الوضعية بالمعنى الدقيق للكلمة، وتوقفت محاولة استخدام التاريخ فى اقتراح العلامات، وباختصار لم يعد موضوع الدراسةفى علم لغة القرن التاسع عشر «العلامة» بوصفها تمثيلاً يجب اكتشاف أسسه العقلانية، وإنما أصبح «الشكل» الذى يجب تفسير تشابهه مع الأشكال الأخرى وإثبات حلقات الوصل التاريخية بينهما.

إنه على الرغم من رؤية علماء اللغة لتطور اهتمامات القرن التاسع عشر ونظرتهم إليها على أنها تمثل انتصاراً عظيماً فقد افتقد مثل هذا التحول فى الاهتمامات شيئاً مهماً، ومن ثم فعندما وصل دوسوسير إلى نقطة الخلاف مع أسلافه المعاصرين عاد إلى اهتمامات القرن الثامن عشر، وإن كان على مستوى مختلف من الدراية والثقافة وفى اتجاه مختلف. لقد عاد دوسوسير إلى مشكلة العلامة، وفكر فى اللغة من جديد بوصفها نظاماً للتمثيل، فقد أدرك دوسوسير أنه إذا لم يعالج المرء الأشكال اللغوية بوصفها علامات، فلن يكون بمقدوره تحديدها. إلا أنه وبوضعه مشكلة العلامة فى سياق بحثه المنهجى العلمى قد تجنب النزعة الذرية **atomism** التى ميزت أسلافه فى القرن الثامن عشر: «لا تتشكل العلامة سوى بعلاقاتها بالعلامات الأخرى»، وهكذا تخلى دوسوسير عن مشروع دراسة العلامات المستقلة بوصفها تمثيلات، وأعاد علاوة على ذلك - على الأقل ضمنياً - تأسيس العلاقة بين دراسة اللغة ودراسة العقل وإن كانت - مرة أخرى - على مستوى آخر وفى سياق منهجى مختلف. فما تستطيع أن تكشفه لنا دراسة اللغة عن العقل لم يكن يكمن - فى رأى دوسوسير - فى قائمة التصورات أو الأفكار الطبيعية، وإنما كان يكمن فى العمليات البنائية والتمييزية التى أُعدت الأشياء بواسطتها للتعبير عن المعنى. وحين يؤكد دوسوسير على أن المعنى معنى تمييزى أو تخالفى، وعلى أنه لا يقوم على الخواص التكوينية للحدود ذاتها وإنما يقوم على الاختلافات القائمة بينها، فإن تأكيده هذا لايتعلق باللغة فحسب، وإنما يتعلق بالعملية الإنسانية العامة التى يبتكر بها العقل الإنسانى المعنى بالتمييز.

بإمكان المرء أن يقول - بإيجاز شديد - أن علم اللغة فى القرن الثامن عشر كان مثالاً فجاً للواقعية فى غير محلها؛ فقد عُقدت الصلة بين اللغة والفكر بطريقة مباشرة جداً وعينية جداً، وذلك من خلال علامات منفردة كان يُفترض استقلالها

الذاتى. ولكى نعود إلى هذه المشكلة بمنظور مختلف، ولكى ندرك أن الآليات العامة للغة بوصفها نسقاً سيميائياً semiotic هى التى توضح خصائص العقل، يجب علينا قطع الصلة بين اللغة والعقل لبعض الوقت، والاهتمام بدراسة اللغة بوصفها نسقاً من الأشكال ليس له أية علاقة خاصة بالعقل. وقد كان هذا هو الدور الذى قام به علم اللغة فى القرن التاسع عشر الذى يمكننا أن نتحول إليه الآن.

* * *

يشير دوسوسير فى معرض مناقشته لتطور «القواعد المقارنة» أو الفيلولوجيا المقارنة فى القرن التاسع عشر إلى أنه ربما لم يكن لتلك القواعد وجود (بهذه السرعة على أقل تقدير) إن لم تكن أوروبا قد اكتشفت اللغة السنسكريتية sanskrit. فقد لفت الحكم الإنجليزى فى الهند واهتمام المبشرين الإنجليز باللغات الهندية انتباه علماء اللغة الأوروبيين إلى الصلات المثيرة القائمة بين اللغة السنسكريتية واللغات الأوروبية المبكرة كاليونانية واللاتينية، فقد بدت الصلات بين هذه اللغات (سواء فى الجذور اللفظية، أو فى الأشكال النحوية) لعلماء اللغة فى نهاية القرن الثامن عشر أكبر بكثير من أن تكون مجرد صلات عرضية، وقد أدى ذلك بهم للتسليم بوجود مصدر مشترك لهذه اللغات الثلاث.

لم يكن تشجيع السنسكريتية لعقد المقارنة بين اللغات يعود - فى رأى دوسوسير - إلى الصلات المنعقدة بينها واللغات الهندية الأوربية الأخرى فحسب، وإنما لأنها ساعدت على توضيح العلاقات القائمة بين تلك اللغات ذاتها. ولنتأمل تصريفات الأسماء التالية:

Latin :	genus	generis	genere	genera	generum
Greek :	génos	géneos	génei	génei	géneon
Sanskrit:	´gana	´ganasa	´ganasi	´ganassu	´ganasam

لو عقدت المقارنة بن اللغتين اللاتينية واليونانية وحدهما، فلن تكون هناك - كما يتضح - الصلة المباشرة القوية بينهما، ولكن عندما أضيفت السنسكريتية ساعدت تلك الإضافة على اقتراح جوهر العلاقة القائمة بينهما، متى كان الصامت /s/ بين

صائتين فى السنسكريتية، كان الصامت /r/ بين صائتين فى اللاتينية، ولم يكن أى صامت منهما بين صائتين فى اليونانية. وبطبيعة الحال لايزال هناك اختلافات أخرى يمكن تمييزها بين الصوائت، على أن المقارنة بين هذه الأشكال النحوية (النهايات التصريفية للأسماء) يقترح بالتأكيد الصلات القوية بينهما.

أمام هذه المعطيات الجديدة فرضت «المقارنة» على علم اللغة، ولكنها لم تكن مقارنة الأشكال المستقلة التى أثارت على هذا النحو اهتمام علماء لغة القرن الثامن عشر؛ فلم يكن الهدف من المقارنة اكتشاف أحد *المعانى البدائية* أو *التمثيل* الذى يقدمه جذر مثل **bar** فى كل مظاهره، وإنما العثور على أنماط القرابة بين اللغات. على هذا *النحو* انصب الاهتمام على *الأنساق التصريفية*، وبالتحديد على *تلك العناصر التى* انتزعها الإيتمولوجيون الفلسفيون للتوصل إلى المصادر أو الجذور، أو التى عالجوها فى *مواضع أخرى*، ولذلك أقر فردريش فون شليجل **F. Von Schlegel** فى كتابه الذى نشر فى عام ١٨٠٨ بعنوان: «حول لغة الهنود وحكمتهم **On the Language and Wisdom of the Indians**» وجود الأصول المشتركة، وأثبت فيه أن المسألة الحاسمة التى سوف توضح كل شئ فى هذا الموضوع هى البناء الداخلى *للغات* أو سوف تقدم القواعد المقارنة التى ستقدم لنا معلومات جديدة تماماً حول سلسلة نسب **genealogy** اللغة بالمنوال نفسه الذى ألقى به التشريح المقارن الضوء على التاريخ الطبيعى.

لقد كان من المحتم - كما سبق أن اقترحت - قطع الصلة بين دراسة اللغة ودراسة العقل بغاية التوصل إلى تحقيق فهم أفضل للغة بوصفها نسقاً، ولذلك فقد كان التحول فى الاهتمام (من الاهتمام بالأصول إلى الاهتمام بالأنماط الصرفية التى كانت من أكثر البنود صعوبة على الإيتمولوجيات الفلسفية) بمثابة تغير مهم فى النظرة العامة للغة؛ حيث لم تعد اللغة ببساطة «تمثيلاً»، أى لم تعد *سلسلة* من الأشكال الموضوعية وفقاً للعقلية التى تمثلها بحيث يمكن أن ينتقل المرء عن طريقها لفهم الفكر وعمليات العقل ذاته، وإنما أصبحت نسقاً من الأشكال المحكومة *بقانونها* الخاص، أو المتميز بنمطه الشكلى المستقل. لقد كانت فكرة مقارنة اللغات إحدى الخطوات الرئيسية فى اتجاه تصور *اللغة* بوصفها أحد الأنساق الشكلية أو المستقلة ومقارنة *اللغات* فى ضوء الأنماط الشكلية للعناصر النحوية التى ارتبطت الكلمات من خلالها معاً وتمايزت، وليس فى ضوء الجذور التى تستخدمها للتعبير عن التصورات الأساسية للخبرة أو مقولاتها المختلفة.

وبالفعل أصبحت اللغة تدرك الآن - وكما اقترح «شليجل» فى الجملة التى سبق اقتباسها - بوصفها موضوعاً للعلم، موضوعاً يمكن تشريحه أو تحليله مثل أى نبات أو

حيوان. ولم يعد هناك أى مجال لدراستها بوصفها شكلاً للفكر ذاته أو بوصفها أحد تمثيلات علاقة العقل مع العالم: «ابتداء من القرن التاسع عشر بدأت اللغة فى الالتفاف حول نفسها، لتحقق كثافتها الخاصة، ولتشكل تاريخها وموضوعيتها وقوانينها الخاصة. فقد أصبحت اللغة ذاتها موضوعا للمعرفة بين موضوعات المعارف الأخرى، وعلى مستوى يماثل مستوى دراسة الكائنات الحية، الثروة، القيمة، تاريخ الأحداث والبشر أنفسهم، ولم يعد فهم طبيعة اللغة أو تفاصيلها له صلة وثيقة بالمعرفة ذاتها، وإنما أصبح له صلة وثيقة بتطبيق مناهج الفهم عموماً على مجال خاص من الحقيقة» [٣].

فالمنهج المتبع كان منهج المقارنة، والهدف المنشود كان إثبات الصلات التى تدل على وحدة الأصل، والمبدأ المنهجي الأساسى المتبع كان البحث عن التشابهات بين الأنساق الصرفية بوصفها محكاً للعلاقة اللغوية أو معياراً لها. ومع ذلك فقد كان للدراسة المقارنة نتائج قاطعة. فقد أدت تلك الدراسة إلى صياغة ما عرف باسم «قوانين الصوت **Sound Laws**» : وهى القواعد العامة أو جداول التطابق التى أقرت التشابه بين مجموعة محددة من الأصوات فى لغة بعينها ومجموعة أخرى من الأصوات فى لغة أخرى. وقد كان قانون جريم **Grimm's Law** الذى سمى باسم ياكوب جريم **Jacob Grimm** أحد النحاة المقارنين الأوائل (بوب **Bopp** وشليجل **F. Von Schlegel** وراسموس راسك **R. Rask**) من أكثر هذه القوانين شهرة، وهو يمثل فى الحقيقة سلسلة مكونة من تسعة متطابقات: حين نجد فى اللغات الجرمانية /**t**/ نجد فى اللاتينية واليونانية والسنسكريتية /**d**/، وحين نجد فى اللغات الجرمانية /**f**/، نجد فى هذه اللغات الثلاث /**p**/ (تتضح تلك المتطابقات فى الكلمات التى تشير فى تلك اللغات إلى '**foot**' فالكلمة الجرمانية المبكرة **fotus** هى المقابل للكلمة اليونانية **podos**، وللكلمة اللاتينية **pedes**، وللكلمة السنسكريتية **padas**)،. وحين نجد فى اللغات الجرمانية /**d**/، نجد فى اللاتينية /**f**/، وفى اليونانية/**ph**/، وفى السنسكريتية /**bh**/ وهكذا فيما يتعلق بالستة متطابقات الباقيات من هذا القانون.

ويقرر دوسوسير أن عدم نجاح هؤلاء النحاة المقارنين فى تأسيس علم لغة حقيقى يعود إلى عدم محاولتهم تحديد طبيعة الموضوع الذى كانوا يدرسونه، وإلى عدم تساؤلهم عن مغزى العلاقات التى قاموا باكتشافها [٤]. فقد كان منهجهم منهجاً

(٣) Foucault, M. (1970): The Order of Things, London, p. 296.

(٤) Course, p. 3; Cours, p. 16.

مقارناً شاملاً ولم يكن منهجاً تاريخياً، وقد تحدثوا وكأن هناك نمطاً عالمياً مجرداً ومتوالية من الشقوق على كل لغة أن تملأها بعناصرها. ولذلك خلطوا بين المنظورين التزامنى والتعاقبى. لقد كانت التوازيات التى تم اكتشافها بين اللغات تشير فى الواقع إلى إحدى الصلات التاريخية، هذا مع أن المهمة التعاقبية بالتحديد هى إعادة التركيب التفصيلى للخطوات التى أصبحت بها عناصر اللغة الهندية الأوربية الأصلية عناصر فى اللغات السنسكريتية أو اليونانية أو اللاتينية...إلخ. والمهمة التزامنية - على الجانب الآخر - بالتحديد هى إظهار الكيفية التى انتظمت العناصر التاريخية العرضية (فى مرحلة معينة من تطور اللغة) فى أحد الأنساق الخاصة بهذه اللغة. ويمكن مشاهدة الخلط بين هاتين المهمتين عند «جريم» الذى لم يكن على أى حال أحد علماء اللغة التاريخيين المعترف بهم. فقد فشل جريم - كما يذهب دوسوسير - فى التمييز بين التغيرات التعاقبية وبين الوظائف التزامنية التى يمنحها النسق اللغوى للعناصر الجديدة. وكما رأينا فى الفصل السابق[٥] فقدكان تغير الصائت (كما يظهر فى foot: feet و goose : geese أو tooth : teeth) ناتجاً عن أحد التغيرات الفوناتيكية الخالصة التى لم يكن لها أية صلة بالقواعد، ومع ذلك فقد كان «جريم» يرى أن تغير الصائت الموجود فى foot إلى الصائت الموجود فى feet له معنى فى ذاته، حيث تم هذا التحول من أجل تمثيل صيغة الجمع [٦]. لقد بدا الأمر كما لو كان هناك إحدى الوظائف التى يجب شغلها، وأن اللغة أنشأت أحد الأقسام أو الأجزاء الجديدة ونمته كى يقوم بشغلها. لقد عد دوسوسير هذا النوع من الاقناع السطحى أشبه ما يكون بالتفكير الصوفى الأكثر مكراً ودهاءً.

وبطبيعة الحال لقد كان لمثل هذا النوع من التفكير مبرراته: نموذج الكائن الحى المهيب الذى كان يتطلع إليه علماء اللغة، أو تلك الكينونة المكتفية بذاتها التى نمت وفقاً لقوانين عامة وتطورت بناء عليها. فقد ربط شليجل - فى الفقرة التى سبق اقتباسها - بين القواعد المقارنة والتشريح المقارن - وهو «مجاز» لم يكن شائعاً فى الكتابات اللغوية فى ذلك الحين، فلقد وجه التشريح المقارن (الذى ترأس التحول الذى أصبح التاريخ الطبيعى عن طريقه علم الحياة) البحث نحو البناء العضوى الداخلى للكائنات الحية، ومن ثم أمكن ربط النباتات أو الحيوانات معاً فى ضوء السبل المختلفة

(٥) انظر الفصل السابق ص ٦٧.

(٦) Engler, p. 15

التى تسلكها فى إشباع الوظائف الأساسية (مثل التنفس والتناسل والهضم والحركة أو الانتقال من مكان لآخر) وبالتالى فقد أدت هذه العلاقات إلى ظهور تصنيفات تاريخية، وهى المشروعات التطورية التى أُستخدم تصور التاريخ فيها لتبويب الاختلافات القائمة فى النسق العضوى للأنواع الحية كما كشفت عنها المقارنة وتفسيرها.

فى بداية القرن التاسع عشر كان الأساس المشترك بين علم اللغة والبيولوجيا كالآتى: إن كليهما انشغل بالانفصال عن فكرة الدوام التاريخى الخيالى **fictional** التى أنعشت البحث طوال القرن الثامن عشر؛ فقد كانت الطريقة الوحيدة السائدة لتقديم تاريخ معترف به هى التخاصم مع التاريخ ذاته فى المحل الأول، ثم معالجة اللغات المنفردة أو الأنواع الحية بوصفها كينونات مستقلة يمكن وصفها ومقارنتها فيما بينها بوصفها وحدات كلية. ومن ثم – وبافتراض تلك الكائنات الحية المنفردة – يصبح فى الإمكان إعادة اكتشاف التاريخ وإن يكن على مستوى جديد. وبمجرد الانتهاء من تحليل الكيان الحى كما لو كان كائناً حياً قادراً على إيجاد الأساليب الخاصة بإشباع الوظائف الأساسية، يتم إخضاعه للتحليل فى ضوء الشروط التى مكنته من امتلاك تاريخ. وهذا يعنى أن تاريخ الكائن الحى أو تاريخ الأنواع الحية قد أصبح بمثابة سرد لقصة الأسلوب الذى تم إشباع الوظائف الأساسية به. أو سرد لقصة التغيرات التى صادفها الكائن الحى أثناء تأقلمه مع البيئة للحفاظ على وجوده، فقد أصبحت الوظائف الأولية بمثابة الأساس فى أية سلسلة تاريخية. وهكذا فقد أتاح بحث التشريح المقارن «لا التاريخى» إمكانية ظهور نظرية داروين **Ch. Darwin** فى التطور.

وفى حالة اللغة فقد تخاصم المنهج المقارن بالطريقة نفسها مع الايتمولوجيا الفلسفية بغاية دراسة اللغات بوصفها أنساقاً طبيعية يمكن المقارنة بينها، حيث توضح المقارنة مختلف السبل التى تؤدى اللغات بها وظائفها المتشابهة (مثال: الأنساق الصرفية المختلفة للأسماء) وقد اقتضت تلك التناظرات الوظيفية تفسيراً تاريخياً من أجل شرح أية شجرة تطورية أو توضيحها، ومع ذلك فالظاهر أن علم اللغة قد استعان بالنظرية التطورية اللاماركية **Lamarkian** بوصفها نموذجاً للتفسير ولم يستعن فى هذا الشأن بالنظرية الداروينية **Darwinian**، مما أدى إلى فهم اللغات كما لو كانت قد نشأت عن قصد تلبية لوجهة غرضية، وكما لو كانت قد تكيفت عن عمد للتغيرات. ومن ثم شاع الخلط بين الحقائق التزامنية (الاستخدام الذى وضعه النسق النحوى للأشكال المتغيرة) والحقائق التاريخية (التغيرات الصوتية ذاتها).

إلا أن إقرار المقارنة بهذا المنوال – تحت تأثير البيولوجيا السئ – لم يكن جائزاً في البيولوجيا ذاتها. لأن داروين نفسه أثبت بشكل صريح المبدأ الذى عده دوسوسير المبدأ الجوهرى فى الفهم السائد لعلم اللغة. فقد أقر داروين أن أية قصدية فى التصور البيولوجي لا تكمن فى التغيرات البيولوجية ذاتها، بقدر ما تكمن فى عملية الانتخاب الطبيعى (وهى عملية تزامنية بمعنى ما) فالأنواع الحية الجديدة تتطور بفعل التغايرات الإحيائية العشوائية أو العرضية التى لا تتميز بذاتها بأى اتجاه محدد أو أى غرض، ومع ذلك تصبح حالة بعض المواليد الجديدة أفضل من حالة بعضها الآخر فى النسق الايكولوجى فى لحظة معينة، فتفنى المواليد المخفقة وتدوم المواليد الفائزة داخل النسق، وهكذا يحدث أحد التغيرات فى النوع الحى. ولكن التغيرات الإحيائية – مثلها فى ذلك مثل التغيرات الصوتية – لا تقع بغاية **in order** إيجاد أنواع حية أفضل تكيفاً مع البيئة، لأن التغير فى النوع الحى ما هو إلا الاستخدام الذى وضعه النسق للتغايرات الإحيائية، أى أنه نتيجة التغاير الإحيائى، وليس هدف الحدث الأصلى أو غايته مثله فى ذلك مثل الوقائع التزامنية تماماً.

٢ – النحاة الشبان (النحاة الجدد):

لم يبدأ علماء اللغة فى وضع أساس الدراسة المناسبة للغة – كما كتب دوسوسير – إلا فى عام ١٨٧٠، فقد حدث فى ذلك العام تطوران لغويان مهمان أدى دوسوسير نفسه فيهما دوراً بارزاً. التطور الأول حدث حين أظهر عدد من علماء اللغة (الذين عرفوا باسم النحاة الشبان أو "النحاة الجدد **'Neo Grammarians'** وكان من ضمنهم أساتذة دوسوسير بجامعة ليبزج) أن القوانين الصوتية (التى كانت تعالج حتى ذلك الحين بوصفها تشابهات ظهرت فى حالات دون أخرى) تعمل بدون استثناء. وكما كتب هرمان أستوف **H. Osthoff** وكارل بروجمان **K. Brugmann**: «بقدر ما يظهر كل تغير صوتى كما لو كان تغيراً آلياً، فإنه يحدث وفقاً لقوانين لا تسمح بأية استثناءات. وهذا يعنى تماثل إتجاه التحول الصوتى بالنسبة لجميع أعضاء أى مجتمع لغوى إلا فى حالة انشطار لغة هذا المجتمع إلى لهجات. فكل الكلمات التى يظهر الصوت المتغير فيها العلاقة ذاتها تتأثر بالتغير دون استثناءات». لقد اقتضى هذا الإيضاح اكتشاف الانتظام الدقيق للتغيرات الصوتية بحيث لو تم استنباط إحداها بطريقة دقيقة ظهرت البيئات الفوناتيكية التى يتغير فيها (على سبيل المثال يتماثل الحرف السنسكريتى **t** مع الحرف الجرمانى **th** حين يعقب أحد المقاطع التوكيدية، ويتماثل مع الحرف الجرمانى المبكر **d** إن لم يعقب أى مقطع توكيدى).

قد يبدو ذلك على أنه أحد الانتصارات التقنية الضئيلة، ومع ذلك فقد كان المبدأ الراسخ – التغير دون استثناء – يمثل فى الواقع أحد المبادئ الحاسمة ولأسباب لم يفهمها أحد سوى دوسوسير. فقد كانت الطبيعة المطلقة للتغير الصوتى أحد النتائج المترتبة على الطبيعة العشوائية للعلامة. فلأن العلامة عشوائية لم يكن هناك من سبب يؤدى لعدم انطباق التغير الذى خضع الصوت له على جميع أمثلة أو نماذج هذا الصوت. لأنه لو كانت الأصوات محفزة **movtivated** (بمعنى معبرة بالفطرة مثل **baw bow**) لكانت هناك مقارنة، تعتمد على درجة الحافزية والاستثناءات، ولكن عدم وجود الاستثناءات يعود إلى عدم انطباق التغير (بافتراض الطبيعة العشوائية للصوت ومظاهره الفوناتيكية الفعلية) مباشرة على العلامات ذاتها، وإنما انطباقه على الأصوات أو بالأحرى على أحد الأصوات المحددة فى أحد البيئات الخاصة، وكما يقول دوسوسير: «إنه أشبه شئ بمثابة شد أحد أوتار البيانو أو ارتخائه. ولذلك فحين نقوم بعزف أحد الألحان سنجد كما ما من النغمات المزيفة، ولكن ذلك ليس مدعاة للقول إن النغمة الموسيقية الأولى فى الفصلة الموسيقية الثالثة، والنغمة الموسيقية الثانية فى الفصلة الموسيقية الرابعة، أو النغمة الموسيقية الأولى فى الفصلة الموسيقية السادسة... وهكذا قد تغيرت جميعها. لأن تلك التغيرات جميعها ليست سوى نتاج لأحد التغيرات المحددة التى حدثت فى نسق التحقيق. وهكذا فنسق الأصوات هو الآلة التى نوزع عليها كلمات لغاتنا، ولو حدث وتغير أحد هذه العناصر فسوف يترتب عليه نتائج متشعبة. إلا أن الواقعة فى ذاتها لا تتعلق بالكلمات التى لا تعد بذاتها سوى ألحاناً فى ذخيرتنا اللغوية» (٧).

أما التطور الثانى المهم الذى حدث بعد عام ١٨٧٠ – كما ذهب دوسوسير – فهو يتعلق بإقحام نتائج الدراسة المقارنة فى السياق التاريخى. فقد اهتم علماء اللغة بالتركيب العقلى التفصيلى للسياق التاريخى، على اعتبار أنه السياق الوحيد الذى بمقدوره تفسير نتائج المقارنة (٨). ولقد قدم دوسوسير إسهاماً رئيسياً لعلم اللغة التاريخى بتقريره الذى نشره عام ١٨٧٨ حول «النظام الأساسى للصوائت فى اللغات الهندية الأوربية»، وهو يعد على أى حال أحد البحوث التى أظهرت خصوبة تفكيره فى اللغة بوصفها نسقاً من الحدود العلاقية المحضة حتى وإن كان قد أهتم بإعادة التركيب التاريخى.

(٧) Course, p. 34; Cours, p. 134.

(٨) Engler, p. 7.

في هذا البحث اهتم دوسوسير بمشكلة تبديل الصائت في اللغات الهندية الأوربية، وكان السؤال يتعلق بهوية نسق الصوائت في اللغة الهندية الأوربية الأصلية. وهو النسق الذى كان عليه أن يأخذ في الاعتبار أنماط تبديل الصوائت التى عُثر عليها فى اللغات التى يعرف أنها اشتقت من اللغة الهندية الأوربية الأصلية. ولقد كان من أكثر مظاهر نسق الصوائت هذا صعوبة الصائت /a/. فقد أثبت كثير من العلماء أشكالاً عديدة للصائت /a/ بهدف تفسير النتائج المتشبعة التى ترتبت عليه فى اللغات الأخرى. ومع ذلك فقد وجد دوسوسير أن حلولهم لم تكن مرضية لأنه اعتقد فى وجود فونيم آخر (بالإضافة إلى شكل الصائت /a/) يمكن تحديده بحدود شكلية، وأن هذا الفونيم لم يرتبط بالصائت /e/ أو بالصائت /o/ (وهما شكلان للصائت /a/)، وإنما يحتل موقعاً يمكنه منه تشكيل أحد المقاطع اللفظية مثل أى صائت آخر، بل يمكنه أيضاً الانضمام إلى أى صائت كأى صامت آخر. ولكن دوسوسير لم يقم بتعريف جوهر هذا الفونيم، فقد اكتفى بأن أطلق عليه «المعامل الصوتى **sonont coefficient**»، وعالجه بوصفه إحدى الوحدات الشكلية العلاقية المحضة فى نسق الصوائت. ومع ذلك لم تظهر أهمية بحث دوسوسير إلا بعد مرور ما يقرب من خمسة عشر عاماً من نشره، وبالتحديد حين اُكتشفت اللغة الحيثية المسمارية **Hittite** وحُلت شفرتها. وتيقن العلماء من احتوائها على أحد الفونيمات (كتب هكذا **h**) وقد كان سلوك هذا الفونيم فى تلك اللغة كما تنبأ دوسوسير تماماً. وهكذا اكتشف دوسوسير – وعن طريق أحد التحليلات الشكلية المحضة – ما يعرف الآن باسم حلقيات **Laryngeals** اللغات الهندية الأوربية [٩].

لقد أثبت دوسوسير بالتأكيد أنه أحد النحاة الشبان أو النحاة الجدد البارعين، وعبر عن إعجابه بإنجازاتهم فى العديد من القضايا وأثنى عليهم لعدم تجاهلهم ظاهرة التناظر الوظيفى المزيف، لأنها كانت تعد فى رأيه إحدى الظواهر المهمة فى التطور اللغوى، أو بمثابة المقابل المعادل للتغير الصوتى. ولنتأمل الكلمة اللاتينية **honor**: فقد كان الشكل الأصلى لها هو **honos**و **honosem** (حالتا الرفع والنصب)، وبفعل أحد التغيرات الصوتية التى أوضحناها من قبل (فى معرض مقارنتنا بين السنسكرتية

(٩) يمكن العثور على التقرير **Mémoire** وبعض الأبحاث الفنية الأخرى في:

Recueil des publications scientifiques de F. de Saussure, Geneva, 1922.

واليونانية واللاتينية)[١٠] أصبح الفونيم /s/ (الواقع بين صائتين) الفونيم /r/، ليقدم honos و honorem ومع ذلك ولعدم وجود تصريفات أخرى للكلمة مثل orator و oratorem، وهي تصريفات كانت مألوفة تماماً تطور شكل جديد قياساً عليها وهو: honor.

كان النحاة الشبان في الواقع هم أول من اعترف بأهمية هذا الإجراء في إعادة تركيب اللغات. ومع ذلك فقد أخطأوا - كما يشير دوسوسير - في فهم حقيقته الفعلية، ولذا فقد خلطوا بين المظاهر التزامنية والتعاقبية [١١]. فقد كان إنتاج أحد الأشكال الجديدة يمثل - من وجهة نظر دوسوسير - أحد المظاهر التزامنية التي يمكن مقارنتها مع الاستثمار الإبداعي للإمكانات التراصفية التي تظهر على سبيل المثال حين تخلق اللغة من Market الشكل Marketeer قياسا على - ولنقل - Profiteer. فعند دوسوسير - ولنكرر - لم يكن هناك اختلاف في النوع بين التركيبات المورفولوجية والنظمية، ولذلك يمكن مقارنة هذا النوع من التشكيل الجديد مع إنتاج إحدى الجمل الجديدة، وهو لم يكن على أي حال مجرد مثال على التغير الدال في اللغة وحسب. وما حدث في الحالة التي درسها أن الشكلين القديم والجديد honor و honos استمرار في التواجد جنباً إلى جنب بوصفهما متغيرين اختياريين. وعندما اختفى الشكل القديم بالفعل لم يعد هذا الاختفاء يمثل أي تغير دال، وإنما عُد بمثابة إقصاء لأحد تحققات المتغير. لقد أعطى النحاة الشبان الوزن الأكبر للمنظور التاريخي، ومن ثم فقد أخفقوا في إدراك الطبيعة المنهجية والنحوية (التزامنية أساساً) للظواهر التي كانوا يدرسونها. على أي حال فقد ارتكب النحاة الشبان معاصروا دوسوسير خطأ جوهرياً لإخفاقهم في أن يطرحوا على أنفسهم الأسئلة الأساسية الضرورية: الأسئلة المتعلقة بطبيعة اللغة ذاتها، الأسئلة التزامنية والتعاقبية على حد سواء. ولقد كان إخفاق هؤلاء النحاة الشبان في طرح تلك الأسئلة المهمة يعود في الحقيقة إلى تخليهم عن فكرة التمثيل بوصفه أساساً لدراستهم، وعدم تفكيرهم في العلامات، وكما رأينا فقد كان التفكير في العلامات وطبيعتها - عند دوسوسير - هو الأمر الوحيد الذي يكفل للمرء القيام بالتمييز بين المظاهر الوظيفية في اللغة والمظاهر غير الوظيفية فيها، والحصول على أحد التصورات العلاقية الملائمة للوحدات اللغوية.

(١٠) انظر ص ٩٢ من الفصل الحالي.

(١١) Course, p. 163; Cours, p. 224.

لم يكن لدى النحاة الشبان أدنى اهتمام بالعلامات، حيث انصب جل اهتمامهم على الأشكال، ولو تساءل المرء عن الشروط التى يمكن أن تصبح الأشكال اللغوية فى ضوئها موضوعا للمعرفة، أى تصبح مادة لأحد العلوم بالمعنى الدقيق فإنه يكون قد وصل إلى قلب موقف النحاة الشبان. فلم يكن تمسك علماء اللغة المقارنين الأوائل من أمثال بوب F. Bopp بالمعنى ومن ثم بالتمثيل يعكس نظرتهم إليهما بوصفهما الموضوع الذى يشغل اهتمام علم اللغة (كما كان الوضع بين الايتمولوجيين الفلسفيين فى القرن الثامن عشر) وإنما كان يعكس فى الحقيقة شرط المقارنة لديهم: فقد كان من السائد أن ينظر المرء فى الكلمات التى تستخدمها اللغات المختلفة فى التعبير عن أحد التصورات المحددة، ثم يستخدم متصلاً من المعنى بوصفه أحد مبررات تجميع الأشكال معاً وتبريراً للمقارنة، ولكن بمجرد أن تساءل علماء اللغة عن مغزى تلك المقارنات اتجهوا إلى بناء علمهم على فكرة المتصل التاريخى. إذا لم تكن تشابهات الشكل تشابهات اتفاقية أو تصادفية فإنها تشير إلى أصل مشترك، ومن ثم تمثلت المهمة الأساسية لديهم فى توضيح الأشكال الأصلية، وتعقب تطورها التاريخى الذى يصلها بالأشكال المتأخرة فى إحدى السلاسل المتعاقبة المتصلة. وهكذا فقد كان من نتائج إضافة المجازات البيولوجية أن أقصيت أسئلة التمثيل، فلم يكن النبات يشير إلى شئ ما، ولم يكن حاملاً لأى معنى، وإنما هو شكل ينمو وفقاً لقوانين يجب اكتشافها.

فى الواقع لقد هجر النحاة الشبان المجازات البيولوجية التى ارتبطت بمنتصف القرن التاسع عشر، إلا أنهم وفى معرض رفضهم لتلك المجازات لغموضها احتفظوا بنتيجتين كانتا قد ترتبتا على تلك المجازات، الأولى: هى إهمال أسئلة التمثيل، والثانية: هى افتراض قيام دراساتهم على المتصل التاريخى، وضرورة تحليل التطور التاريخى. لقد شك دوسوسير فى تصورات المتصل التاريخى، ورأى أن دراسة التطور التاريخى للأشكال يمكن أن يؤدى إلى شئ من سوء الفهم، وإلى إهمال أسئلة الوظيفة اللغوية. فقد كان المنظور التعاقبى - فى رأيه - يمنع المرء من طرح الأسئلة الوثيقة بالوصف التزامنى، ومن ثم عدّ طرح عالم اللغة الأمريكى وليام ويتنى W. D. Whitney (الذى كان يعمل داخل تراث النحاة الشبان) لأسئلة العلامة بمثابة أحد التطورات الجوهرية فى الدرس اللغوى. لقد ناقش «ويتنى» فى كتابيه: «اللغة ودراسة اللغة: Language and the study of language» و «حياة اللغة ونموها: Life and growth of language» اللغة بوصفها نظاماً نشأ وفقاً للعرف الاجتماعى، وبوصفها تجسيداً للاستخدامات السائدة فى أحد المجتمعات المحددة وبوصفها ثروة من الكلمات والأشكال التى تعد كل كلمة فيها أو كل شكل منها بمثابة علامة عشوائية وعرفية فى آن

واحد. لقد «وضع ويتني بتأكيده على الطبيعة النظامية والعرفية للغة – كما يقول دوسوسير – علم اللغة على محوره الحقيقى» (١٢). إلا أنه لم يتحقق من النتائج المترتبة على المنظور الجديد ومحتوياته، فقد ظل يؤكد على ضرورة أن يكون علم اللغة علماً تاريخياً: تنحصر مهمته فى البحث عن الأسباب التى تجعلنا نتحدث بالطريقة التى نتحدث بها وتفسيرها. ومن ثم فقد بخس قدر علم اللغة التزامنى. مشيراً إلى أن أى فهم مجرد لظواهر أية لغة (كلماتها، أشكالها، قواعد استخدامها) لهو أمر من صميم عمل النحاة وصناع المعاجم. وهكذا أظهر ويتنى عدم وعيه بمشكلات التعريف والهُوية، ومشكلات الطبيعة العلاقية للوحدات اللغوية، ولم يظهر أى اهتمام بتلك المبادئ التى أقلقت مضجع دوسوسير.

ومع ذلك فقد كان ويتنى هو الذى دفع دوسوسير للمزيد من التفكير ومهد له السبيل للعودة لمشكلة العلامة، ولأن يفهم أن العلامة وحدها هى التى تجعل من «التمثيل» – وليس من «التاريخ» – أساساً للعلم، فهى التى تمكن المرء من البدء فى التمييز بين ما له صلة وما ليس كذلك، أو بين الوظيفى واللاوظيفى. وهكذا عاد دوسوسير إلى فكرة التمثيل وفهمها واستخدامها بأسلوب مختلف تماماً. وهكذا أيضاً لم يعد علم اللغة يقوم على متصل التمثيل (أو أحد المعانى الشائعة لأية سلسلة كلية من الأشكال) كما كان الأمر سائداً بين الابيتمولوجيين الفلسفيين، وإنما أصبحت فكرة «اللا متصل» هى أساس فكرة التمثيل. فلم يعد للمعانى وجود إلا بوصفها نتيجة لاختلافاتها فيما بينها، وأصبحت تلك الاختلافات هى الأساس الذى يمكن المرء من تأسيس الروابط بين الأشكال. ولم يعد هناك فرصة لفهم الأشكال ببقائها فى متصل تمثيلى أو تاريخى، وإنما أصبحت هذه الأشكال تفهم بوظائفها المختلفة: أى بقدرتها على التمييز وبقدرتها على توليد المعانى المتمايزة.

لقد كان لمثل هذا الفهم الذى لا نجد له مثيلاً عند ويتنى أو عند أسلاف دوسوسير دلالة ثورية، حيث يعتمد المعنى على اختلاف المعانى: فلم يعد بمقدور المرء تحديد هوية الأشكال ومبرراتها الوظيفية المحددة إلا عن طريق اختلاف المعانى. ولم تعد الأشكال شيئاً ممنوحاً، وإنما أصبحت هناك ضرورة ما لتأسيسها عن طريق تحليل نسق العلاقات والاختلافات. وهكذا أفسح هذا التصور الجديد – كما سنرى فى

(١٢) Course, p. 76; Cours, p. 100.

الفصل القادم – الطريق لدراسة السلوك الإنسانى والمسميات الإنسانية، حيث ساعد دوسوسير بإعادته الاهتمام بالتمثيل وبتركيزه على فكرة «اللامتصل» فى وضع أسس التفكير الحديث.

٣ – فرويد، دوركايم، والمنهج:

لكى نفهم بشكل واضح حداثة فكر دوسوسير يجب أن نتخلى عن علم اللغة لبعض الوقت، وأن نقرن مؤسس علم اللغة الحديث بمعاصريه المبدعين: سيجموند فرويد **S. Freud** مؤسس علم النفس الحديث، وإميل دور كايم **E. Durkheim** مؤسس علم الاجتماع الحديث. فقد أحدث كل من هؤلاء المفكرين الثلاثة ثورة فى العلم الذى ينتمى إليه نتيجة لإبداع كل منهم أحد السياقات الابستمولوجية الجديدة لأبحاثه: بمعنى أنهم فهموا موضوعات دراساتهم بأسلوب مختلف عما كان سائداً وقدموا له نموذجاً جديداً من التفسير.

تنحصر المشكلة الأولية فى أى علم اجتماعى فى طبيعة الحقائق التى يعالجها ووضعها الصحيح، وقد كانت هذه المشكلة إحدى المشكلات الخطيرة التى سادت فى أواخر القرن التاسع عشر على وجه الخصوص. وهو أمر يعود إلى النزعتين المتوارثتين من الإرث الفلسفى للعصر، وهما المثالية الألمانية **German Idealism** والوضعية التجريبية **Empiricist Posivitism** اللتين التقيتا فى نقطة واحدة، انحصرت فى ميلهما كليهما إلى عدم النظر إلى المجتمع بوصفه ظاهرة أولية وإنما بوصفه نتيجة أو ظاهرة ثانوية أو مشتقة، ولذلك ميز الوضعيون فى التراث الهيومى (نسبة إلى هيوم) بين الحقيقة الفيزيائية الموضوعية للأشياء والأحداث، وبين أى إدراك ذاتى مستقل لها، ولأن المجتمع لا يكتسب شرعية الحقيقة الفيزيائية الموضوعية فقد عولج المجتمع فى هذا التراث بوصفه نتاجاً لأحاسيس الأفراد وأفعالهم. وكما كتب بنتام **J. Bentham** «ما المجتمع إلا تجسيد وهمى، إنه حصيلة الأعضاء الذين يؤلفونه». وقد كان افتراض المجتمع بوصفه نتاجاً للأفراد الذين يعمل كل منهما وفقاً لمصلحته الشخصية يمثل فى الواقع الأساس البديهى للمذهب النفعى **Utilitarianism**، ولذلك كتب دور كايم ناقداً أسلافه: «لم يجد هؤلاء فى المجتمع شيئاً حقيقياً سوى الفرد... فقد كان الفرد عندهم بمثابة الحقيقة الملموسة الوحيدة التى يمكن للمُلاحظ التوصل إليها». أما هيجل **Hegel** فلم تكن القوانين والطرائق والأعراف والدولة سوى تعبيرات للعقل، ومن ثم فهى تدرس – فى رأيه– بوصفها شواهد أو نتائج وليس بوصفها ظواهر أولية.

وكما هو واضح فقد أدرك دوسوسير ودوركايم وفرويد إلى أى حـد تقلب « وجهة النظر» هذه الأشياء. فلم يكن المجتمع بالنسبة لهؤلاء العلماء نتاجاً للنشاطات الفردية، أو مجرد مظاهر طارئة للعقل، وإنما كان بمثابة الحقيقة الأولية. ولو أراد المرء دراسة السلوك الإنسانى يجب أن يسلم بوجود الحقيقة الاجتماعية. لأن الإنسان لا يعيش ببساطة بين موضوعات وأفعال فحسب، وإنما يعيش فى الواقع بين موضوعات وأفعال مفعمة بالمعانى. ومن ثم لا يستطيع المرء معالجة هذه المعانى كما لو كانت حصيلة من الإدراكات الذاتية، فتلك المعانى تمثل الأثاث المجرد للعالم، ولا يمكن غض البصرطرفة عين عن الدلالة الاجتماعية للأفعال، أو عن معان التعبيرات وأحاسيس الحب، والغضب، والذنب... إلخ؛ لأنها تعد حقائق اجتماعية. كما أثبت دور كايم ذلك وأيده معصراه الاثنان. فقد أقام علمه على الواقع الموضوعى للحقائق الاجتماعية.

باختصار لم تكن هناك إمكانية لوجود علم الاجتماع، أو علم اللغة، أو علم نفس التحليل النفسى إلا بأن يضع المرء نصب عينيه المعانى التى نسبت للموضوعات والأفعال وميزت بينها فى المجتمع بوصفها حقائق أولية، أى بوصفها حقائق يمكن تفسيرها، ولأن المعانى نتاج اجتماعى فإنه يجب تفسيرها بحدود اجتماعية. فالأمر يبدو كما لو أن دوسوسير وفرويد ودوركايم قدطرحوا الأسئلة التالية: ما الذى يجعل من الخبرة الفردية ممكنة؟ وما الذى يدفع البشر للتأثر بالموضوعات والأفعال المليئة بالمعنى؟ وما الذى يمكنهم من الاتصال والفعل بطريقة ذات معنى؟. وقد كانت الإجابة: إنها النظم الاجتماعية التى قدمت الشروط الأولية للخبرة الإنسانية. فعلى الرغم من أن تلك النظم الاجتماعية قد نشأت عن النشاطات الإنسانية إلا أنه لكى نفهم الخبرة الفردية يجب علينا دراسة المعايير الاجتماعية التى جعلت مثل تلك الخبرة الفردية ممكنة.

ليس من الصعب فهم سبب كون الأمر هكذا، فحين يتقابل شخصان، فهما قد يتصرفان بأسلوب مهذب أو غير مهذب. وتهذيب السلوك أو عدم تهذيبه يعد فى الواقع إحدى الحقائق الاجتماعية والثقافية، ومع ذلك فإن أى وصف موضوعى للأفعال الفيزيائية التى أداها هذان الشخصان لا يعد فى حد ذاته وصفاً لإحدى الظواهر الاجتماعية، وذلك لأن هذا الوصف يهمل معالجة الأعراف الاجتماعية التى جعلت الأفعال المؤداة على ما هى عليه، فلا يكون سلوك هذين الشخصين سلوكاً ذا معنى إلا حين نأخذ فى الاعتبار مجموعة الأعراف الاجتماعية التى جعلت من سلوك بالذات سلوكاً يتصف بالتهذيب ومن سلوك آخر بالذات سلوكاً يتصف بعدم التهذيب، ولما كانت

الأعراف الاجتماعية تخلق السلوك إذن فمن الواجب وصفه بحدودها. وبطريقة مماثلة نقول إن إصدار أي ضوضاء لا يعد بحد ذاته ظاهرة اجتماعية، لأن الذي يعد كذلك هو نطق إحدى الجمل، فالظاهرة الاجتماعية ممكنة فقط بفعل أحد أنساق الأعراف المتبادلة بين الأشخاص، أي بفعل أحد اللغات.

وهكذا عكس دوسوسير وفرويد ودوركايم المنظور الذي جعل المجتمع نتاجاً للسلوك الفردي، وأصروا جميعاً على أن السلوك الإنساني ممكن بفعل الأنساق الاجتماعية الجمعية التي تمثلها الأفراد سواء عن وعي أو عن غير وعي، يقول ليونل تريلنج L. Trilling: «إنه فرويد هو الذي وضح لنا إلى أي حد قد انغمرنا كلية في الثقافة التي نمثلها، وإلى أي حد تغمر الثقافة الأجزاء الأقصى من عقل الفرد، لتقدم إمكانية لسلسلة كاملة من الأحاسيس والأفعال حتى إحساس الفرد بذاتيته، وإذا كان هناك إمكانية لتأويل الأفعال والأعراض الفردية عن طريق التحليل النفسي فإن ذلك كذلك لكونها نتاجاً للعمليات العقلية المشتركة، أي نتاجاً للدفاعات غير الشعورية التي دعتها المحظورات الاجتماعية وأدت إلى وجود أنماط محددة من الكبت والإحلال». وبالمثل إذا كانت هناك إمكانية لتحقيق الاتصال اللغوي فإن ذلك يعود إلى تمثلنا لأحد أنساق المعايير الجمعية التي تنظم العالم وتمنح المعنى للأفعال اللفظية الفردية، أو بالأحرى – وكما ناقش دور كايم – ليست البيئة الفيزيائية هي الحقيقة الحاسمة عند الفرد وإنما هي الوسط الاجتماعي، أي أحد أنساق القواعد والمعايير أو التمثيلات الجمعية التي تجيز السلوك الاجتماعي أو لا تجيزه».

ولهذا الغرض يقتضي المنظور الجديد نمطاً خاصاً من التفسير، لا يمكن تفسير أي فعل سوى بربطه بالنسق الكامن من المعايير الذي يجيز هذا الفعل، أي يفسر الفعل بوصفه شاهداً في أحد أنساق التمثيلات أو بوصفه أحد مظاهره، سواء عددنا ذلك تفسيراً سببياً يمكن أن يتباين من حالة لأخرى أم لا، ولقد زعم دوركايم في دراسته السوسيولوجية المشهورة للانتحار أنه يقدم أحد التفسيرات السببية له، مع أنه كان يقوم بتعيين أسباب معدلات الانتحار العالية في أحد المجتمعات. ولم يكن يفسر أسباب إقدام أفراد معينين بالذات على الانتحار في إحدى الفترات الزمنية المفترضة. فإقدام الأفراد على الانتحار لم يكن سوى الشواهد الخاصة بضعف الروابط الاجتماعية الناتجة عن أحد الترتيبات الخاصة للمعايير الاجتماعية. أما التحليلات السيكولوجية عند فرويد فلقد تم تقديمها دائماً على أنها تفسيرات سببية، هذا مع أنه لم يكن لها أية قوة تنبؤية (بمعنى أنه لم يزعم فرويد أن إحدى متتاليات الأحداث

المفترضة سوف ينتج عنها بالضرورة أفعال أو أعراض بعينها) وعلى أى حال يمكن اعتبار هذه التفسيرات على أكثر تقدير مجرد محاولة للربط بين الأفعال والتنظيم العقلى الكامن. أما علم اللغة - على الجانب الآخر - فلم يتظاهر بتقديم التحليل السببى، أى لم يحاول تفسير أسباب نطق أحد الأفراد لإحدى المتتاليات الصوتية الخاصة فى إحدى اللحظات المفترضة، وإنما حاول إظهار الأسباب التى جعلت للمتتالية هذا الشكل وهذا المعنى بربطها بنسق اللغة.

فى كل الحالات - وعلى الرغم من وجود موانع للتحليل السببى - قد يقول المرء إن ما تم تقديمه فى كل حالة منها لم يكن تفسيراً سببياً وإنما هو تفسير بنائى: محاولة المرء إظهار سبب اكتساب فعل بعينه دلالة معينة وذلك بربطه بنسق الوظائف والأعراف والمقولات الكامن الذى يجعل هذا الفعل ممكناً.

والأمر الذى له مغزاه فى هذا المقام هو الابتعاد عن التفسير التاريخى، فلم يعد تفسير الظواهر الاجتماعية يتطلب اكتشاف الظواهر السابقة عليها زمنياً والربط بينها (أى بين الظواهر السابقة واللاحقة) فى إحدى السلاسل السببية، وإنما يتطلب تحديد وضع الظواهر الاجتماعية ووظائفها داخل أحد الأنساق؛ فقد حدث انتقال من المنظور التعاقبى إلى المنظور التزامنى. فبدلاً من فهم علاقة السبب والمسبب تاريخياً (حيث يعتقد أن التطور الزمنى هو الذى يجعل من الشئ ما قد أصبح عليه) تم نزع الصفة الزمنية عن الأشياء وتمت معالجتها مباشرة (ليس بوصفها نتائج تاريخية) وإنما بوصفها حالات اجتماعية قائمة بذاتها.

على الرغم من أهمية الانتقال من المنظور التاريخى إلى المنظور التزامنى إلا أن عملية الانتقال ذاتها اتسمت بالتعقيد، وقد سبق وأن رأينا كيف أثبت دوسوسير عملياً أن التغير التاريخى الفعلى الذى ينتج عنه أشكال مثل **foot** و **feet** لم يكن بذاته أحد العوامل التفسيرية المهمة فى التحليل التزامنى للغة الإنجليزية؛ فمع أن ظهور مثل هذا التقابل (حالة صيغة الجمع التى تميزت بالاختيار بين الصائتين) داخل النسق كان ناتجاً بالفعل عن إحدى العمليات التاريخية، إلا أن استخدام النسق له (أى للتقابل) هو الذى أكسبه إحدى القيم التفسيرية، وعلى أى حال يمكن العثور على المثال الحاسم للانتقال من المنظور التعاقبى إلى المنظور التزامنى فى بحث فرويد عن عقدة أوديب **Oedipus Complex**، ففى هذا البحث كان فرويد مشدوداً للتفسير التاريخى السببى وواعياً فى الوقت نفسه أن هذا التفسير (التاريخى السببى) لم يكن التفسير الذى يتطلع إليه نموذج التحليل التزامنى الجديد.

فى كتاب «الطوطم والتابو Totem and Toboo» وفى معرض حديثه عن تحريم الزنا بالمحارم والتحريمات الاجتماعية الأخرى يقدم فرويد أحد الأحداث التاريخية التى وقعت فى أحد العصور البدائية: أب غيور ومستبد (كان يشتهى النساء، وكان يحرص على إبعاد أبنائه عنهن بمجرد بلوغهم) تعرض للقتل على يد أبنائه الذين اجتمعوا عليه ثم استبد الندم بهم. ولقد كان هذا الفعل الإجرامى الذى لا ينسى يمثل بداية نشأة التنظيم الاجتماعى والقيود الأخلاقية والدين، حيث خلق الإحساس بالذنب لاقتراف الأبناء لمثل هذا الفعل الإجرامى والندم عليه «التحريمات»، ويعترف فرويد أن ارتكاب هذا الفعل الإجرامى كان السبب التاريخي لوجود المعايير الاجتماعية والعقد النفسية التى ما زالت موجودة حتى الآن، مفترضاً دوام أحد العقول الجمعية التى أطلق عليها «اللاوعى unconscious»، ومع ذلك فالسؤال الذى يطرح نفسه هنا هو: كيف يمكن لأحد الأفعال الفردية أن يستمر فى ممارسة مثل هذه التأثيرات العميقة على الإنسانية؟. يقول فرويد: يكمن جانب من تفسير هذا الاستمرار فى أن أحاسيس الذنب قد تنشأ داخل تدابيرنا العقلية عن الرغبات المكتوبة مثلما تنشأ عن الأفعال الفعلية. ولذلك يساعد الإحساس بالذنب على الاحتفاظ بالنتائج ذاتها (التى تترتب على الأفعال الفعلية) حية، ويضيف فرويد فى الواقع من المحتمل أن يكون الفعل الأصلى لم يحدث بالفعل قط، وأن الندم على مقتل الأب كان نتاجاً لخيال الأبناء، وهذا يمثل إحدى الفرضيات المقنعة. هذا مع أن التساؤل عما إذا كان الفعل الأصلى قد حدث بالفعل أم لم يحدث لا يؤثر – كما يقول فرويد – على جوهر المسألة على شرط أن لا يكون لدى البدائيين أى كبت، وذلك لأن التفكير عند البدائيين ينتقل إلى الفعل مباشرة، وهذا هو سبب اعتقادى (دون اقفال باب الاجتهاد) أن من الأسلم فى الحالة الماثلة أمامنا أن نفترض أن هذا الفعل الإجرامى قد حدث فى البداية.

هنا يظهر فرويد فى هيئة أحد مفكرى القرن التاسع عشر الذين استخدموا الخيالات الأدبية للنشوء فى مناقشة طبيعة الأشياء، والمهم هنا هو اعترافه بأن استخدام الفعل الأصلى (بوصفه أحد الأسباب التاريخية الحقيقية) يفرض على المرء ضرورة التسليم بوجودأحد الأنساق العقلية الكامنة. فقد جعل هذا الاعتراف من الفعل الأصلى ذاته فعلاً لا أهمية له. لأن الاحساس بالذنب الناتج عن الرغبات غير الشعورية فى الموقف العائلى هو الذى يشكل بذاته التفسير الملائم للتحريمات. وهنا نجد فرويد وللمرة الأولى ينكر أهمية السبب التاريخى الذى سبق وأن سلم به، ويخرج على نفسه ويستنتج الحدث التاريخى من النسق العقلى، لدى كل فرد مثل هذه الرغبات غير الشعورية ومع ذلك فهى ليست نتاجاً للفعل الأصلى التاريخى الذى ربما لم يكن قد

حدث قط؛ لأن الأبناء البُدائيين لم يتعرضوا للكبت، إلا أنهم تصرفوا هكذا. فالحدث التاريخي حدث مؤكد وقد يكون أحد الأسباب التفسيرية، إلا أننا لا نستدل عليه الآن إلا من خلال النسق العقلي غير الشعوري. ويمثل هذا المثال أحد الأمثلة المشهورة للشد والجذب بين التفسير التاريخي والتفسير في حدود النسق، وهو يعد أحد الأمثلة التعليمية بقدر ما يعد أيضاً درساً من دروس الحداثة، وذلك لانتصار «النسق» على «التعبير عن الرغبات» عند فرويد.

كان دوسوسير ودوركايم وفرويد هم المسئولين في الواقع عن اتخاذ مثل هذه الخطوة الحاسمة في تطور علوم الإنسان. وبالفعل فحين ينتزع المرء «الأصول» من التاريخ الزمني ويقوم بإدراجها في صميم «الذات» فإنه يكون قد خلق بذلك حيزاً جديداً للتفسير، وهو الحيز الذي عُرف باسم «اللاوعي». صحيح أن الأمر لم يصل بهم إلى درجة إحلال «اللاوعي» محل «التسلسل التاريخي»، إلا أن اللاوعي أصبح مستقراً للتسلسلات التاريخية السابقة، وهي التسلسلات التي كانت تقوم بالوظيفة التفسيرية. فقد قام التفسير البنائي بربط الأفعال بنسق من المعايير: قد يكون أحكام لغة بعينها، وقد يكون التمثيلات الجمعية لأحد المجتمعات، وقد يكون الميكانيزمات الخاصة بالتدابير العقلية ذاتها. وقد كان «اللاوعي» هو السبيل المستخدم في تفسير كيفية استحواذ هذه الأنساق (المستترة) على مثل هذا الحضور الفعال؛ فإذا سلمنا بأن وضعاً ما لأحد الأنساق اللغوية يمثل تحليلاً للغة بعينها، فإن الأمر كذلك ليس لأن النسق الموصوف شئ ممنوح مباشرة للوعي الواصف، وإنما لأننا سلمنا بأن لهذا النسق حضوراً دائماً، وأنه مشغول أبداً بالسلوك الذي يبنيه ويخلقه.

وهكذا ظهر مفهوم «اللاوعي» في أعمال فرويد، ومع ذلك فقد كان بمقدور هذا المفهوم أن يتطور بالتأكيد دون مساعدة فرويد لأنه يمثل أحد المفهومات الجوهرية التي كانت تسعى إليها كل العلوم الحديثة. وفي الواقع يمكن إثبات أن أكثر أشكال مفهوم اللاوعي وضوحاً ورسوخاً قد ظهرت في علم اللغة، ففي هذا «العلم» بالتحديد كان هذا «المفهوم» هو أحد المفهومات الرئيسية التي تمكن المرء من تفسير الوقائع اللغوية الثابتة؛ فمع أنني أعرف إحدى اللغات (بمعنى أن بمقدوري انتاج التعبيرات الجديدة فيها وفهمها، وبإمكاني تحديد ما إذا كانت إحدى المتتاليات الصوتية تمثل إحدى جمل هذه اللغة أم لا... إلخ). إلا أنني لا أعرف ما أعرف بالفعل من هذه اللغة، بمعنى أنني أعرف بالفعل إحدى اللغات إلا أنني في حاجة دائمة لأحد علماء اللغة كي يفسر لي على نحو دقيق ما الذي أعرفه من هذه اللغة. وهكذا يربط مفهوم اللاوعي بين الواقعتين

(معرفتى لأحدى اللغات، ومعرفة ما أعرفه منها أو معرفة عالم اللغة بها) ويجعل منهما واقعتين مفهومتين، ويفسح المجال للاكتشاف. وهكذا أيضاً يفسر علم اللغة - مثله فى ذلك مثل علم النفس وعلم الاجتماع - أفعالى اللغوية باستجلاء المعرفة المستترة التى لا أستطيع أنا نفسى أن أعيدها إلى الوعى بالتفصيل.

يمكن وصف هذه الخطوة الأساسية بأسلوب آخر (وهو أسلوب ستتضح أهميته فى الفصل الأخير من هذا الكتاب) ونقرر أن هذه الخطوة (الانتقال من المنظور التعاقبى إلى المنظور التزامنى) تتألف من وضع «الفاعل» أو الـ «أنا» فى قلب المجال التحليلى للمرء، وتفكيكه، وفى هذا السياق تعنى كلمة «فاعل» فاعل الخبرة. أى الـ «أنا» أو الـ «ذات» التى تفكر وتدرك وتتحدث... إلخ. فقد استطاع علم اللغة المقارن والتاريخى تنفيذ خطته التحليلية دون أية إشارة صريحة للفاعل، فقد كان بمقدوره ملاحظة الاختلافات القائمة بين الأشكال اللغوية الصحيحة وتعقب تطور هذه الأشكال دون الحاجة للجوء إلى مفهوم «الفاعل» الذى يتحدث، أو الذى يعرف لغة بعينها أو يستخدمها، ومع ذلك فقد وضع دوسوسير مفهوم «الفاعل» مباشرة فى قلب مشروعه التحليلى، وأصبح مفهوماً مركزياً فى تحليل اللغة.

كيف يمكن لنا تحديد الوحدات اللغوية؟

- والإجابة لا تحدد الوحدات اللغوية مطلقاً إلا بالإشارة إلى «الفاعل»، فنحن لا نجد أن الفونيمين /b/ و /p/ يمثلان فونيمين متميزين إلا لأن bet و pet تشكلان علامتين متميزتين بالنسبة للفاعل، حيث لا يفرق التقابل بين الفونيمين /b/ ، / p/ ، أو بين العلامتين bet ، pet إلا بالنسبة للفاعل المتحدث.

ما الذى يجعل من التعبيرين تعبيرين متطابقين؟

فى الواقع إنه على الرغم من تلك الاختلافات الفيزيائية التى يمكن قياسها، فإن أى تطابق بين أى ملفوظين لا يعد كذلك إلا من منظور الفاعل المتحدث. ولذلك فلكى نقرر إلى أى حد يمثل أى شئ ما حقيقة ما - على أقل تقدير من منظور التحليل التزامنى للسان la langue - فمن الضرورى أن نتساءل إلى أى حد يوجد هذا الشئ فى عقول الفاعلين المتحدثين(١٣).

(١٣) Course, p. 90; Cours, p. 128.

لقد تعهد «الفاعل» أحد الأدوار المهمة فى كل الحالات التى تناولنا فيها ما أطلق دوسوسير عليه مصطلح القيم، أو بالأحرى فى كل الحالات التى عالجنا فيها المغزى الاجتماعى للموضوعات والأفعال. وهكذا يقدم الفاعل (معتمداً على حدسه وأحكامه) كل الحقائق التى يحرص علم اللغة على تفسيرها، ولذلك فبمجرد أن أصبح «الفاعل» فى الموضع الصحيح، وبمجرد أن استقر فى قلب المجال التحليلى للعلوم الإنسانية، سرعان ما أصبح المشروع التفسيرى لهذه العلوم مشروعاً لتفكيك «الفاعل» ولتفسير المعانى فى لغة أنساق العرف، وهى الأنساق التى تخرج عن مجال الفهم الواعى للفاعل، لأن المتحدث بأية لغة لا يعنى الأنساق الفونولوجية والنحوية التى سوف يتم تفسير أحكامه الخاصة بتلك اللغة فى ضوئها، أو أنه لا يعى بالضرورة التدابير العقلية التى يقوم بها عقله «هو» والنسق المحكم من الأعراف الاجتماعية الذى يحكم سلوكه اللغوى.

وهكذا تم تفكيك «الفاعل» إلى مقوماته الأساسية، وهى المقومات التى أصبحت فى نهاية المطاف تتمثل فى أنساق العرف المتبادلة بين الأشخاص، وتم نسب الوظائف التى يقوم «الفاعل» بها إلى مجموعة الأنساق المتنوعة التى تعمل من خلاله. وكما كتب ميشيل فوكو **M. Foucault**: «لقد أبطلت أبحاث التحليل النفسى وعلم اللغة والأنثربولوجيا مركزية الفاعل فيما يتعلق بأحكام رغبته، وأشكال لغته وأحكام أفعاله، أو أبطلت هذه الأبحاث الاشتراك فى خطابه الباطنى والتخيلى»، فالتمييز بين الفاعل والعالم هو أحد التمييزات المتغيرة، لأنه يعتمد على ترتيبات المعرفة فى إحدى الفترات المفترضة، فقد انصرفت العلوم التى أسسها كل من دوسوسير ودوركايم وفرويد عن الفاعل حتى فقد موضعه بوصفه مركزاً للمعنى أو مصدراً له، وما أن تفكك الفاعل، وتحلل إلى أنساق مركبة ذاتية التحول بدأت الأنا أو الذات أو بدأ الفاعل فى الظهور شيئاً فشيئاً بوصفه مركباً، أى بوصفه إحدى نتائج أنساق الأعراف، حين يتحدث الإنسان فهو «يستجيب للغة ببراعة»، فاللغة تتحدث من خلاله، كما تفعل الرغبة أو المجتمع تماماً، حتى فكرة الذاتية الشخصية فهى تنشأ من خلال خطاب ثقافة ما، فالـ «أنا» ليست شيئاً موهوباً، وإنما هى شئ يبلغ إلى حيز الوجود – فى إحدى المراحل الانعكاسية التى تبدأ فى الطفولة – وبقدر ما يراها الآخرون ويخاطبونها.

سوف نعود لمشكلة الفاعل باختصار فى الفصل الأخير حين نتناول بعض المعانى الضمنية لعلم العلامات، والطرق التى تأثر بها المتخصصون العاملون فى العلوم الأخرى بدوسوسير وببرنامجه المنهجى العلمى. وبطبيعة الحال فنحن لم نهتم بمشكلات التأثر والتأثير، عدم وجود دليل على معرفة كل من دور كايم ودوسوسير وفرويد لأبحاث

بعضهم بعضاً، وعلى الرغم من كثرة اقتراح تأثير دوركايم على دوسوسير، فإن الأهم من أية استعارات سطحية محتملة بين هؤلاء المفكرين الثلاثة هو الصلات الوثيقة بين المشروعات الأساسية لديهم، وعلى الأخص الترتيبات الابستمولوجية للعلوم التى أقاموها.

لقد أوحت الصفحات السابقة بأن دوسوسير على الأخص كان أحد المفكرين المهمين والموحين بالأفكار مثلما كان فى الوقت نفسه مفكراً استراتيجياً بارعاً اهتم بمبادئ المنهج والتعريف، ومع ذلك، ولأنه كان بمثابة الأب الموجد لعلم اللغة الحديث كما اشتهر فى الأساس، فمن الواجب النظر فى بعض الموضوعات التى تبناها كى نرى الانتصارات التى ساعدت أبحاثه فى تحقيقها، والمواضع التى كانت نظرياته اللغوية غير ملائمة لها.

٤ - تأثير دوسوسير:

لقد تميز تأثير دوسوسير فى علم اللغة الحديث بميزتين أساسيتين، الميزة الأولى تتمثل فى التوجيه العام الذى قدمه لعلم اللغة (أو فهمه الدقيق لمهام علم اللغة) الذى اتصف بالفاعلية العميقة، وبعدم إثارة الجدل بالفعل إلا نادراً، فقد تم التسليم بهذا التوجيه على أنه جوهر الموضوع ذاته. لقد انحصرت مهمة عالم اللغة عند دوسوسير فى تحليل إحدى اللغات بوصفها نسقاً من الوحدات والعلاقات، وقد كان وضع علم لغة يعنى - فى رأيه - محاولة تعريف وحدات إحدى اللغات والعلاقات القائمة بين تلك الوحدات وأحكام التوليف بينها، وهو توجيه لا نعثر عليه عند أسلافه على الرغم من انطلاق بعضهم عرضاً فى هذا الاتجاه. ومع ذلك فقد أصبح هذا التوجيه منذ دوسوسير تقريباً بمثابة التعريف السائد للبحث اللغوى، ولم يحتل علم اللغة الوصفى والنظرى ذلك الموضع المركزى الذى حدده دوسوسير فقط، وإنما اضطر العاملون فى علم اللغة التاريخى وعلم اللغة الاجتماعى إلى استخدام نعوت مثل نعت «تاريخى» لإثبات كيف انطلقت أبحاثهم من النشاط المركزى لهذا العلم. وعلى أى حال فإن أية معارضة لوجه نظر دوسوسير فيما يتعلق بمهمة علم اللغة لن تنحصر فى مهاجمة رؤية دوسوسير نفسه لتلك المهمة بقدر ما ستتعلق بتحديد فكرة علم اللغة ذاته.

على هذا الأساس يعد دوسوسير مؤسس علم اللغة الحديث، لأن أكثر إسهاماته أهمية وأصالة هو التأثير الذى مارسه دوسوسير فى تحديد طبيعة علم اللغة ذاته، وهو

التأثير الذى لم يذكره أحد. وفى الواقع فإن أية معالجة لعلم اللغة البنائى كما افتتحه دوسوسير تتضمن جميع المدارس الرئيسية فى علم اللغة الحديث. وهكذا يغطى بحثا مثل بحث چوليو ليبسكى J. Lepschy المعنون: « مسحُ لعلم اللغة البنائىA Survey of Structural Linguistics » علم اللغة ابتداء من مدرسة براغ Prague Schoo(چاكبسون R. Jakobson وترويتسكوى N. Trubetzkoy وآخرين) ومدرسة كوبنهاجن Copenhagen (هيلمسليف L. Hjelmslev وبقية الجلوسماتيكيين) [١٤]والوظيفيين (بنفنيست E. Benveniste ومارتينيه A. Martinet وعدد من علماء اللغة البريطانيين المعاصرين) والمدرسة البنائية الأمريكية (بلومفيلد L.Bloomfield وأتباعه) حتى المدرسة التحويلية التوليدية (نوعام تشومسكى N. Chomsky وبقية النحاة التحويليين)، وكما سنرى فهذه المجموعة الأخيرة وحدها هى التى بدلت من التوجيه الأساسى لتصور علم اللغة كما ورثه دوسوسير إلى تلاميذه.

أما الميزة الثانية التى تميز بها تأثير دوسوسير فى علم اللغة الحديث فقد ارتبطت بمجموعة من المفاهيم الذى ساعد بمفرده على رفع منزلتها على الرغم من عدم أصالتها لديه، أقصد التفرقة بين لغة langue وكلام parole، والفصل بين المنظورين «التزامنى» و «التعاقبى» وتصور اللغة بوصفها نسقاً من العلاقات التراصفية syntagmatic والاستبدالية paradigmatic بمستوياتها التصاعدية المختلفة. حيث يمكن وصف الإسهامات التى قدمها علم اللغة الحديث على أقل تقدير بأنها أبحاث دارت فى

(١٤) الجلوسماتيكس Glossematics هو نمط من التحليل اللغوي « شبه الجبري» ارتبط باسم عالم اللغة الدانماركي لويس هيلمسليف L. Hjelmslev فمثل كثير من علماء اللغة الدوسوسيريين رفض هيلمسليف النظر للغة بوصفها مزيجاً من الوقائع الفيلولوجية (علم اللغة التاريخي)، وأكد على أنها نسق مكتف بذاته. ومن ثم يعد علم اللغة علماً ذاتياً مستقلاً عن غيره من العلوم الأخري، لديه أدواته المنهجية والاصطلاحية الخاصة، ومن هنا رأي هيلمسليف أن مهمة عالم اللغة تنحصر في تحليل تعبيرات النصوص في ضوء العلاقات الاستبدالية والتركيبية القائمة بين العناصر المكونة للنصوص سواء في إطار الشكل (أي العلاقات النحوية الداخلية والماهيات) أو في إطار التعبير (أي الوسيط الكلامي أو الكتابي)، أو في إطار المحتوي (أي الدلالة والمعني). وقد كان الهدف من هذا الإجراء التحليلي شبه الجبري للغة تقديم الوحدة اللغوية الأساسية الثابتة وهي «الجلوسيم Glosseme» وتعني «وظيفة» . (المترجم). يمكن الرجوع إلي :
Dictionary of Language & Linguistics; R. Hartmann & F. C. Stock; Applied Science Publisher Ltd., London 1972.

الغالب حول التفاصيل الدقيقة لتلك المفاهيم والمعانى الخاصة بها، ولذلك فإن دراسة هذه المفاهيم تمكننا من فهم إلى أى حد نجح دوسوسير فى طرح الأسئلة الأصيلة التى أحيت علم اللغة الحديث وهو ما سنتحول إليه الآن.

أ - التميز بين اللغة و الكلام:

فى عام ١٩٣٣ كتب أحد علماء اللغة البريطانيين وهو السير آلان جاردنر **Sir A. Gardiner**: «يعود الفضل إلى فردينان دوسوسير فى لفت الانتباه إلى التمييز الحاسم بين «لغة **langue**» و «كلام **parole**»، فقد استطاع هذا التمييز دون شك تحقيق أقصى النتائج، وكان من الصعب جداً - فى رأيى - أن يصيبه الإخفاق، وسوف يصبح هذا التمييز عاجلاً أو آجلاً بمثابة الأساس الذى لا يمكن الاستغناء عنه فى أية معالجة علمية للقواعد، وذلك لأن معظم الخلافات اللغوية بين العلماء يمكن تصنيفها فى ضوء الجدل الدائر حول التفاصيل الدقيقة لهذا التمييز: ما يتعلق بالـ «لغة **langue**» وما يتعلق بالـ «كلام **parole**»».

ولقد استعان دوسوسير عند تقديم هذا التميز بعدد من المعايير: بفصل «اللغة» عن «الكلام» يفصل المرء الجوهرى عن العرضى، والاجتماعى عن الفردى الصرف، والمادى عن السيكولوجى. وبالرغم من ذلك لم يكن بمقدور تلك المعايير تقسيم اللغة ذاتها بالمنوال نفسه، ومن ثم فقد تركت تلك المعايير حيزاً كبيراً لإثارة الجدال، ففى ضوء المعيار الأول (الذى يتعلق بفصل الجوهرى عن العرضى) أصبحت اللغة **langue** بمثابة أحد الأنساق الشكلية أو المجردة تماماً، وتعلق بالكلام **parole** كل شئ ارتبط بالأصوات، بحيث تظل الإنجليزية هى ذاتها اللغة الإنجليزية حتى وإن تم التعبير عن وحداتها بأسلوب آخر، إلا أنه فى ضوء المعيار الثانى(الفصل بين الاجتماعى والفردى الصرف) كان علينا تنقيح هذه النظرة، لأن كون الفونيم /**b**/ فونيما شفويا مجهورا، وكون الفونيم /**p**/ فونيما شفويا مهموسا يمثل بذاته إحدى الحقائق الوثيقة بالنسق اللغوى بحيث لا يستطيع المرء اختيار أسلوب آخر لتحقيق هذين الفونيمين إذا كان حريصاً بالفعل على تحدث اللغة الإنجليزية، وفى ضوء المعيار الثالث (الفصل بين المادى والسيكولوجى) كان على المرء أن يسلم بوجود مظاهر سمعية **acoustic** للغة **la**

langue، حيث تشكل الاختلافات بين اللكنات accents أو بين طرق التلفظ بذاتها إحدى الحقائق السيكولوجية الثابتة لمتحدثى اللغة.

لقد كان لتمييز دوسوسير بين «لغة» و «كلام» نتائج مثمرة نظراً لاتساعه، وفى الواقع أثبتت النتائج المتفاوتة التى توصل العلماء إليها نتيجة تطبيقهم لتلك المعايير الثلاثة اختلاف الأساليب التى يمكن أن تنتظم اللغة بها. فقد أثبت عالم اللغة الدانماركى لويس هيلمسليف L. Hjelmslev إمكانية استبدال مصطلحى «لغة / كلام» أو langue / parole بمصطلحات: خطة schema، معيار norm، استعمال usage وكلام parole، حيث يشير مصطلح «كلام» عنده إلى الفعل الكلامى الفردى الذى لا يشكل بذاته أى جزء من النسق، أما مصطلح «استعمال» فيشير إلى الانتظامات الإحصائية للعناصر اللغوية، حيث يستطيع المرء جدولة تواترات مختلف طرق التلفظ الخاصة بالعناصر اللغوية أو جدولة استخداماتها الأخرى، حيث يكون لمتحدثى أية لغة فى العادة الحرية الكاملة فى اختيار العناصر اللغوية وأوجه استعمالها أما مصطلح «معيار» فهو لا يمثل موضوعاً للاختيار الفردى ولايمكن وصف الـ «معيار» إحصائياً، لأنه يتمثل فى سلسلة الأحكام التى تتحقق بها العناصر اللغوية، على سبيل المثال أن الفونيم /p/ تحقق فى اللغة الإنجليزية بوصفه فونيما شفويا صامتا، أما مصطلح «خطة» فهو يمثل أكثر تصورات البناء اللغوى تجريداً، ولا يتضمن أية إشارة إلى العناصر الصوتية، حيث لا يتم تعريف تلك العناصر إلا فى ضوء الحدود العلاقية المجردة. فيتم تحديد الفونيم /p/ بالمقارنة مع الفونيم /b/، ويتم تحديد الفونيم /t/ بالمقارنة مع الفونيم /d/... وهكذا، وذلك لأن مصطلح «خطة» لا يرتبط مباشرة بنوعية المظاهر الصوتية الفعلية التى استخدمت فى تحقيق مثل هذه الاختلافات.

وفى ضوء هذا التمييز الرباعى الذى قدمه «هيلمسليف» يمكن للمرء تحديد الحد الفاصل بين مصطلحى لغة / كلام langue / parole وفقاً لأى طرف من الأطراف الثلاثة التالية: فقط تتكون اللغة la langue من «خطة» فقط، وقد تتكون من «خطة» و «معيار»، وقد تتكون من «خطة» و «معيار» و «استعمال». فقد كانت المناقشات الجدلية التى دارت حول طبيعة اللغة la langue دائماً من هذا القبيل. لقد عالج علماء اللغة فى مدرسة براغ – على سبيل المثال – اللغة la langue على أنها مركب يتكون من «خطة» و «معيار» واثبتوا فى ضوء تمييزهم بين علم الصوتيات Phonetics وعلم الفونولوجى Phonology أن علم الفونولوجى علم يختص ببحث الاختلافات الصوتية المرتبطة باختلاف المعنى. هذا مع أنهم وصفوا السمات الفارقة أو المظاهر التمييزية

distincitive features بمصطلحات طريقة التلفظ (أى بمصطلحات علم الصوتيات). وعلى ذلك لم تكن التقابلات التى قدمها رومان ياكبسون للمظاهر التمييزية (كالتقابل بين المجهور/ المهموس) مجرد مظاهر تجريدية للاختلافات الصوتية المرتبطة باختلاف المعنى فحسب، وإنما كانت فى الوقت ذاته تمثل معايير التحقق الفيزيائى أو الصوتى لها.

أما دانيال جونز D. Jones وأتباعه البريطانيون فقد فضلوا تعريف «الفونيم» بوصفه عائلة من الأصوات، ولذلك أدرجوا مصطلح «استعمال» فى اللغة la langue: لقد كان وصف النسق الصوتى لإحدى اللغات عندهم بمثابة وصف للاستعمال اللغوى وللمعايير الوظيفية وللخطط المجردة فى آن واحد. أما هيلمسليف وأنصار الجلوسماتيكس Glossematics فقد عالجوا اللغة la langue بوصفها «خطة» مجردة، فلم تكن الخواص الصوتية لتدخل عندهم على الإطلاق فى الطريقة التى يتم وصف الفونيمات بها، ولا ينتهى الجدل... ومع ذلك بإمكان المرء أن يقرر على الأقل فى علم الأصوات الفونولوجيا أن الأسئلة الجوهرية التى طرحت فى هذا العلم كانت نتاجاً مباشراً للتمييز الذى قدمه دوسوسير بين «لغة/كلام».

وعلى المستوى النظمى syntactic كانت وجهة نظر دوسوسير فيما يتعلق بثنائية «لغة/كلام» وجه نظر غامضة وغير حاسمة ومثيرة للتساؤل، وذلك لأنه سلم بـ «الجمل sentences» بوصفها نتاجاً للاختيارات الفردية، ومن ثم عالجها بوصفها أمثلة من الـ «كلام parole» وليس بوصفها كينونات فى ال «لسان langue» وقد ينزلق المرء ويقرر أن دوسوسير فشل فى التمييز بين «الجمل» ذاتها بوصفها أشكالاً نحوية و « الملفوظات utterances» التى تتحقق الجمل بها أثناء الكلام، إلا أن القضية أعمق من ذلك بكثير، لأن دوسوسير أدخل فى حسابه العبارات الاصطلاحية المقررة بوصفها جزءاً من النسق اللغوى، بل إنه أدخل كذلك «الجمل» ومجموعات الكلمات المبنية وفق أنماط منتظمة فى هذا النسق، ولكنه عارض بالرغم من ذلك – وكما هو واضح – إمكانية امتداد مفهوم «النمط المنتظم» إلى أبعد من ذلك، لأنه استنتج (فى ضوء الخطة التراصفية synatgmatic) عدم وجود حد فاصل بين حقائق اللغة la langue التى تمثل أمثلة الاستعمال الجمعى، وحقائق الكلام parole التى تعتمد على الاختيار الحر للفرد [١٥].

(١٥) Course, p. 125; Cours, p. 173.

ونتيجة لفشل دوسوسير فى إدراج «الجمل» داخل النسق اللغوى ظهر تصوره لعلم النظم syntax ضعيفاً على نحو لافت للنظر، لأن اللغة الإنسانية تُعد أكثر من مجرد عدها نسقاً من الوحدات المتبادلة الارتباط، حيث تؤلف العلاقات التى تربط بين تلك الوحدات بعضها بعضاً وعدها أيضاً نسقاً من الأحكام rules. وهذا فى الواقع المظهر الذى اهتم به نوعام تشومسكى حين استبدل ثنائية دوسوسير: لغة/ كلام بثنائيته المشهورة: كفاءة/ أداء competence / performance، حيث تشير «الكفاءة» إلى النسق الكامن من الأحكام rules التى ضلع فيها المتحدث، ولوصف تلك الكفاءة علينا تحليل اللغة إلى عناصرها الأساسية وأحكام تركيبها.

يكتب تشومسكى: «من الواضح أن وصف الكفاءة الجوهرية التى تقدمها القواعد grammar لا يختلط بالضرورة مع أية معالجة للأداء الفعلى كما أكد دوسوسير ببعد نظره، إلا أنه - كما يضيف تشومسكى - عدّ اللغة langue مخزناً من العلامات، أى عدها مخزناً من العناصر الشبيه بالكلمة، ومن العبارات الثابتة، وربما من أنماط العبارة المحدودة. وهكذا لم يكن بمقدوره الإمساك بالعمليات المتكررة الكامنة فى تشكيل الجملة. فقد عدّ دوسوسير تشكيل الجملة فيما يبدو إحدى مسائل الكلام parole وليس اللغة langue. أو إحدى مسائل الخلق الإرادى الحر، وليس القاعدة المنهجية العامة للغة، فلم يكن هناك مكان فى مشروعه للإبداع المحكوم بالقانون من النوع المتضمن فى الاستخدام اليومى المعتاد للغة» (١٦).

على أى حال فتلك ملاحظة جديرة بالاحترام لدقتها البالغة، لأن تشومسكى يعترف فيها بإبداع استخدام اللغة العادية، فى حين لم يهتم دوسوسير بإدراج تشكيل الجملة فى اللغة la langue، ولم ينجح فى التوفيق بين حقيقة قدرتنا على إنتاج جمل جديدة تماماً وحقيقة احتواء اللغة على أنماط العبارة. فما كان ينقص دوسوسير هو مفهوم الإبداع المحكوم بقانون a rule: فالإبداع اللغوى ممكن بفعل أحد أنساق القوانين. ولكن دوسوسير لم يتحقق من إمكانية بناء المجموعة المحددة من القوانين التى ستولد الوصف البنائى للعدد اللانهائى من الجمل وهو الأمر الذى يمكن إنجازه -

(١٦) Chomsky, N. (1964): Current Issues in Linguistic Theory; The Hague, p. 29.
وللاطلاع على المزيد من المناقشات الخاصة بنظريات تشومسكي ومكانته في تاريخ علم اللغة يمكن الرجوع إلي: John Lyons (1970): Chomsky; Fontana Modern Masters (وقد قمنا بترجمة هذا الكتاب وسنقوم بنشره قريباً إن شاء الله).

كما يقول تشومسكى – بالاستعانة بالقوانين المتكررة: قوانين يمكن تطبيقها مرة بعد مرة مثل القانون الذى يمكن المرء من إلحاق العبارة الموصولة بالعبارة الاسمية (مثال:

This is the dog that chased the cat that worried the rat that ate the cheese, etc).

بإمكان أى شخص على معرفة بإحدى اللغات أن يدرك ما إذا كانت إحدى الجمل التى تشكلت وفق قوانين هذه اللغة قد سبق له أن صادفها من قبل أم لا، وهو يستطيع بنفسه إنتاج الجمل الجديدة التى تتفق وقواعد هذه اللغة، وتلك الحقيقة هى الدليل الملائم على ضرورة اعتبار الجملة إحدى وحدات النسق اللغوى، وهى حقيقة تركت على أى حال لتشومسكى لكى يثبت كيف يفسر النسق تشكيل الجملة، وفى الوقت ذاته كيف يفسر النسق إبدا ع المتحدثين الأفراد، وعدم قيام دوسوسير بذلك أمر غير مفهوم، فقد كان دوسوسير على وعى بطبيعة المشكلة، إلا أن إهماله للجملة بوصفها وحدة لغوية كان يمثل إخفاقاً ذريعاً له. فلقد نسخ هذا الإخفاق مدخل دوسوسير فى مجال علم النظم **Syntax** نسخاً تاماً أكثر من أى مجال آخر (١٧).

ب – التمييز بين الـ "تزامنى" والـ "تعاقبى":

وهو التمييز الأقل خضوعاً للفهم الواضح، والأقل عرضة للبحث التعليمى بين خلفاء دوسوسير من بين كل التمييزات التى قدمها دوسوسير لعلم اللغة، فعلى الرغم من قبول الكثيرين لأسبقية الوصف التزامنى **synchronic** للغة كانت هناك بعض المحاولات (أثناء مناقشة العلماء لقضية التغير اللغوى) لتوضيح المشكلة النظرية الأساسية التى طرحها دوسوسير حول ما يتعلق بالمنظور التزامنى، وما يتعلق بالمنظور التعاقبى، ولقد أكد العديد من العلماء ضرورة التغاضى عن هذا التمييز أو على الأقل تجاوزه بغاية تقديم وجهة نظر كونية **global** للغة. ومع ذلك لم يبلغ هؤلاء حد التفاهم

(١٧) لقد ناقش واليس ريد **Wallis Reid** الضعف الغريب الذي أظهره دوسوسير في علم النظم **Syntax** في مقال له بعنوان :

"The Saussurian Sign as a Control in Linguistic Analysis"; Semiotexte 1, 2 (1974).

مع الأسباب التى اعتقد دوسوسير فى ضوئها استحالة إنجاز ذلك. لقد كان تشارلز هوكت Ch. Hockett على صواب – دون شك – حين لاحظ فى المسح الذى أجراه لعلم اللغة عام ١٩٦٨ أن مشكلة العلاقة بين الدراسات التزامنية والتعاقبية لم ترسخ كثيراً.

لقد انقسم الباحثون عن تجاوز التمييز بين التزامنى والتعاقبى فى عرض دعواهم إلى فريقين، وقد اعترض أعضاء الفريق الأول بقولهم: فى كل لحظة يحتوى النسق التزامنى على عناصر تعاقبية تتمثل فى استعمال أساليب أو ألفاظ مهجورة archaisms أو فى استخدام تعبيرات وألفاظ جديدة neologisms، أو فى التمييزات التى تتم نتيجة عملية الاندثار... إلخ. وهذا الاعتراض غير ذى صلة بقضية دوسوسير، لأن دوسوسير قرر صراحة أن اللغة تحتوى فى كل لحظة على نسق قائم، وعلى تطور له، وأن اللغة تعد فى كل لحظة نظاماً آنياً ومنتوجاً للماضى على حد سواء، ومع ذلك فلم يكن التزامنى والتعاقبى عنده بمثابة نمطين من الشئ نفسه، وإنما كانا مدخلين لدارسة اللغة. فالموضوعات (أو المفردات) التى عُرفت بقدمها فى لحظة بعينها ستتحدد هويتها هكذا فى أى تحليل تزامنى، وعلى الرغم من ذلك فلن يكون لمثل هذا التحليل أية أهمية فى البحث التاريخى لها (بل إنه قد لا يختلف البحث التاريخى عن الوصف التزامنى – إذا كانت الأشكال التى شعر المتحدثون بقدمها قد استعيرت بالفعل من لغة أخرى).

أما أعضاء الفريق الثانى من المعترضين فقد عرضوا دعواهم فى أسلوب أكثر ملائمة وأهمية، فلم يكن التغير اللغوى عند علماء اللغة فى مدرسة براغ بمثابة إحدى القوى العمياء وإنما كان إحدى القوى العقلية المنهجية والمنظمة أساساً، حيث كان التغير اللغوى عندهم يمثل إحدى وظائف النسق، ولذلك اتخذ هؤلاء الباحثون فى مجال علم الفونولوجى داخل سياق النحو التحويلى transformational grammar موقفاً معارضاً لدوسوسير. فعلى الخلاف من دوسوسير الذى يحتفظ بالتغير الصوتى خارج النسق اللغوى، أى مع العوامل الخارجية المؤثرة فى الكلام parole، يناقش هؤلاء الآن أن التغير الصوتى الذى ينشأ داخل النسق اللغوى ذاته يمكن أن يؤثر على العناصر النحوية، ومن ثم فقد وجدوا أنه من الأفضل وصف التغير اللغوى بوصفه أحد التغيرات التى تصيب الأحكام rules وليس بوصفه تطوراً أصاب عناصر التحقق ذاتها، على سبيل المثال فى أحد العصور كان يتم لفظ الفونيم /k/ فى أشكال مثل knowledge،

ومع ذلك فقد اعتمد التغير الصوتى الذى أصاب kn على البناء النحوى، لأن الفونيم /k/ بقى ملفوظاً فى ackonwledge واختفى فى knowledge.

وليس هذا البرهان برهناً جامعاً مانعاً على أى حال، لأن هناك أساليب أخرى – وإن كان لكل منها هدفه الخاص – يمكنها تفسير مثل هذه التغيرات، ولأنه من غير الواضح كذلك إن كانت هناك ضرورة للتخلى عن معارضة دوسوسير للتصورات الغائية teleological للتغير، بحيث نسلم بأن التغير لا يقع سوى لبحث النسق عن وضع مختلف، من المؤكد لا يمكن توضيح كثير من التغيرات فى حدود غائية، فليس بمقدور المرء إثبات أن عدم التناسب بين fot/ foti هو الذى دفع النسق للبحث عن foot/ feet بوصفه الأسلوب الأمثل لتمييز صيغ الجموع. وربما نتج هذا المثال عن فشلنا فى التمييز بين الوقائع التزامنية فى تغير اللغة والوقائع التعاقبية فيه، وعموماً لم يتم سبر أغوار العلاقة بين التزامنى والتعاقبى بشكل مناسب حتى الآن، ومع ذلك فإن موقف دوسوسير واضح فى تلك المشكلة، وهو موقف ملائم لصياغة المشكلات الأساسية التى لم تظهر بعد حتى الآن.

جـ – العلاقات فى النسق اللغوى:

كما سبق وأن شاهدنا فقد أثبت دوسوسير بشكل واضح أن اللغة نسق من العلاقات، وأن عناصرها لا تتحدد إلا فى ضوء العلاقات القائمة بين بعضها بعضاً داخل النسق، وبإمكاننا أن نذكر أنه توصل إلى هذا الاستنتاج بتأملاته فى طبيعة الهُوية فى علم اللغة، وفى خواص العلامة اللغوية، فلم يكن فى هذا الاستنتاج – من وجهة النظر اللغوية – أى عيب، وقد مارس تأثيراً جديراً بالاعتبار فى علم اللغة، ومع ذلك فعندما يشرع المرء فى تحليل لغة محددة بالذات سيجد من العسير تجنب الحديث عن الحدود الموجبة للغة، فليس من السهل تحليل اللغة بشكل مجرد بوصفها نسقاً من العلاقات، وهى مشكلة لم تتضح متضمناتها النظرية الدالة حتى الآن. وعلى أى حال من الأمانة القول إن علماء اللغة الذين بحثوا أنماطاً محددة من العلاقات كانوا أكثر نجاحاً من هؤلاء الذين اهتموا بمعالجة إحدى اللغات بوصفها نسقاً علاقياً محضاً.

على سبيل المثال فقد أثمرت التقابلات الثنائية binary oppositions التى أعطاها دوسوسير الأولوية المطلقة، وقامت معظم أبحاث علم الفونولوجى على اختزال

متصل الصوت إلى عناصر متميزة كان من السهل تعريفها بوصفها نقطة التقاطع للعديد من السمات الفارقة أو المظاهر التمييزية. وكما يقول چاكبسون: يحتوى كل مظهر تمييزى على الاختيار بين حدين فى إحدى التقابلات التى تكشف عن إحدى الخواص الاختلافية المحددة بالذات (مثال المجهور **voiced** مقابل المهموس **voiceless**). فقد أثبت چاكبسون وآخرون أن استخدام التقابلات الثنائية فى وصف البناء لا يُعد بذاته أحد الإجراءات المنهجية المحتملة بقدر ما يُعد انعكاساً حقيقياً لطبيعة اللغة ذاتها، فتلك التقابلات الثنائية تمثل إحدى الشفرات الأكثر طبيعية والأكثر خضوعاً للاستثمار، لأنها تمثل العمليات الثقافية الأولية التى يتعلمها الطفل بمجرد بدئه فى تبوء اللغة، وبشكل عام فهى تمثل إحدى الصفات الشائعة فى الفكر البشرى كله. وهكذا يعيد دوسوسير والتراث السوسيرى إقامة الصلات الوثيقة بين الفكر واللغة، وإن كان على مستوى العمليات البنائية الأساسية.

لقد شكلت العلاقات التراصفية **syntagmatic** والاستبدالية **paradigmatic** أيضاً بؤرة الاهتمام بين الكثير من علماء اللغة، وبإمكان المرء أن يثبت أن الاختلافات القائمة بين مختلف نظريات الوصف النحوى التى ازدهرت منذ دوسوسير لم تكن فى الأساس سوى النتيجة المترتبة على اختلاف وجهات نظر العلماء حول طبيعة العلاقات التراصفية وأساليب تحديدها، وهى اختلافات ليس من اليسير تلخيصها فى هذا المقام، ومع ذلك فإننا لا نغالى حين نقول إن مفهوم البناء الهرمى للمستويات اللغوية الذى يقول بأن مقومات أحد المستويات (كالفونيمات مثلاً) تتركب معاً لتشكل مقومات المستوى التالى (المورفيمات) هو المفهوم الشائع فى نطاق النظريات الوصفية التى تباينت فى أحكامها فيما يتعلق بالوزن الواجب إعطائه للعوامل المختلفة فى تحديد العلاقات. وعلى سبيل المثال: هل يتناول المرء تعبيرات متشابهة ثم يعالجها بوصفها متتاليات من الأشكال، مصنفاً لها فى ضوء النقاط التى تختلف فيها فيما بينها ثم يدرس التراصفات التى تدخل فيها العناصر المستقلة فى متتاليات أخرى، أم يبدأ بإحدى نظريات الوظائف المختلفة التى يمكن أن تقوم العناصر اللغوية بها، ثم يحدد بعد ذلك هُوية العناصر التى تتراصف معاً لتقوم بهذه الوظائف؟.

على أى حال لم تتقهقر أهمية العناصر التراصفية والاستبدالية كما حددها دوسوسير إلا مع مجئ النحو التحويلى التوليدى فقط، وحتى فى هذا النحو فقد تم

استبدال المشكلة فقط، حيث نشأت في النحو التحويلي التوليدي أنواع متباينة من الفئات الاستبدالية من أمثال الفئات التي تعمل الأحكام **rules** وفقاً لها، أو الفئات الضرورية لأداء هذه الأحكام لعملها بشكل ملائم، ولم تكن هذه الأحكام إلا تمثيلاً حرفياً لما فهمه دوسوسير بوصفه يمثل علاقات تراصفية، فقد كان دوسوسير فيما يبدو يوسع منذ البداية معالجته للعلاقات ليقدم الاحتياط المناسب للعمليات النظمية.

وعلى هذا الأساس يمكن رد الأبحاث المعاصرة للنحاة التحويليين - وإن كان على مستوى مختلف - إلى وجهة النظر التي قدمها دوسوسير: عندما يتأمل المرء العمليات التراصفية غير واضع في الاعتبار أي شيء، فإنه يكتشف عدم وجود أي اختلافات جوهرية بين التراصفات المورفولوجية وبقية التراصفات النظمية الأخرى. ومع ذلك لم تكن وجهة نظره هذه إلا استنتاجاً فقط، لأن ملاحظاته في علم النظم كانت سطحية جداً بقدر لم يمكنها من تقديم أي تدعيم لدعواه. ومع ذلك ولأن اكتشاف اللغة الحيثية **Hittite** قد دعم الآن فرضياته حول صوائت اللغات الهندية الأوربية، فقد يثبت النحو التحويلي بالمنوال نفسه نتيجة إحدى المسلمات أو التبصرات الأخرى عنده.

على أي حال هناك مسألة واحدة خاب فيها ظن أبي علم اللغة الحديث في أبنائه، فقد أكد دوسوسير على أن علم اللغة هو أحد فروع علم العلامات **Semiology**، العلم العام الذي يدرس العلامات وأنساق العلامات، فلم ينتسب علم اللغة عنده للعلوم الطبيعية أو التاريخية وإنما انتسب لعلم العلامات. وكما تقول المحاضرات: «بالنسبة لي فإن مشكلة اللغة أساساً مشكلة سيميولوجية، ولو أردنا اكتشاف الطبيعة الحقيقية للنسق اللغوي فإن علينا دراسة ما يشترك فيه النسق اللغوي مع بقية الأنساق الأخرى المشابهة» (١٨). ومع ذلك تجاهل علماء اللغة هذه النصيحة أو هذا البرنامج، فقد استوعبوا المفاهيم السوسيرية جميعها باستثناء هذا المفهوم الهادي (فكرة العلامة، وفكرة اللغة بوصفها نسقاً من العلامات) الذي صادف منهم الإهمال شبه التام، فقد تزود علماء اللغة بهذا المفهوم شفاهة إلا أنهم لم يسمحوا له على الإطلاق بأن يحكم تحليلهم الطموح للغات.

من المقنع تماماً أنه لو قدر للعلامة القيام بين علماء اللغة بالدور الطموح نفسه الذي قامت به عند دوسوسير لربما أدى ذلك إلى إعادة توجيه علم اللغة - ومع ذلك

(١٨) Course, p. 17; Cours, pp. 34 - 35

وحتى تتم هذه المحاولة لا يستطيع المرء التكهن بالنتائج التى من المحتمل أن تترتب عليها [(١٩)]. وعلى هذا الأساس فإن كل ما يستطيع المرء أن يقوله هو : لقد أدى فشل علماء اللغة فى جعل العلامة موضوعاً للاهتمام إلى وجود وضع شاذ، لقد نشأ علم العلامات بين أشخاص يعملون فى تخصصات متباينة عديدة، ولكن علم اللغة ذاته - وهو العلم الذى وضعه دوسوسير بيده فى قلب علم العلامات والذى اعتقد أنه سيقدم لعلم اللغة أحد الإسهامات الرئيسية - بقى بمعزل عنه. وعلى أى حال فلكى نفهم السياق (الابستمولوچى) الذى وضع دوسوسير فيه علم اللغة علينا أن نتخلى عند دراسة اللغة بهذا الأسلوب، وأن نبحث فى المحاولات التى بذلت لدراسة الظواهر الاجتماعية والثقافية الأخرى بوصفها لغات، أى بوصفها أنساقاً من العلامات.

(١٩) للاطلاع على المناقشات التى دارت حول هذا التساؤل يمكن الرجوع إلى :

Wallis Reid : "The Saussurian Sign as...", op. cit.

الفصل الرابع

علم العلامات
الإرث السوسيرى

لم يخصص لعلم العلامات **Semiology** فى كتاب «محاضرات فى علم اللغة العام» سوى فقرات قليلة جداً، وبدون شك فقد كان ذلك أحد الأسباب الرئيسية التى أدت بعلماء اللغة إلى عدم ملاحقة مبادرة دوسوسير الخاصة بإنشاء علم العلامات العام، وهو العلم الذى كان عليه تحديد موضع علم اللغة وتوجيهه. هذا على الرغم من كون المنظور السيميولوجى - عند دوسوسير - المنظور المركزى للدراسة الجادة للغة، فقد كتب: «أليس من الواضح أن اللغة هى قبل كل شئ نسق من العلامات؟ وأن كونها كذلك يدفعنا للالتجاء لعلم العلامات، وهذا إذا رغبنا فى تحديدها على نحو دقيق» [١].

«اللغة أحد أنساق العلامات التى تعبر عن الأفكار، ومن ثم يمكن مقارنتها مع الكتابة، وأبجدية الصم والبكم، والشعائر الرمزية، وأشكال الإتيكيت والرتب العسكرية... إلخ، ومع ذلك يظل نسق اللغة أكثر هذه الأنساق أهمية على الإطلاق».

«وبالتالى يمكننا أن نتصور علماً يدرس حياة العلامات داخل المجتمع، نطلق عليه علم العلامات **Semiology** (والاسم مشتق من الكلمة اليونانية **semion** وتعنى علامة. وبإمكانه أن يعلمنا مما تتكون العلامات، وطبيعة القوانين التى تحكمها، ولأن هذا العلم لم يوجد بعد فلا نستطيع التكهن كيف سيكون. ومع ذلك فإن له حقا فى الوجود، وموقعه مكفول مقدماً، وما علم اللغة إلا جزء من هذا العلم العام، وسوف تنطبق القوانين التى يكتشفها علم العلامات على علم اللغة، الذى سيجد نفسه ملازماً لأحد المجالات المحددة بدقة من الظواهر الإنسانية» [٢].

لأن الكائنات الإنسانية تقوم بإصدار الضوضاء، واستخدام الإيماءات، واستعمال توليفات الموضوعات أو الأفعال لإرسال المعانى. فهناك مجال لدراسة هذه النوعية من النشاط وتحليلها وبيان أنساق الأعراف التى يستند إليها. ويناقش دوسوسير لو تصورنا علم اللغة بوصفه جزءاً من علم العلامات، فسوف يترتب عليه هذا التصور نتائج مهمة:

«... فمظاهر اللغة التى تظهر أهميتها البالغة (مثل استخدام الميكانيزمات اللفظية)للوهلة الأولى سوف تصبح مجرد مظاهر مساعدة حين يتم استخدامها فى تمييز اللغة عن الأنساق السيميولوجية الأخرى. وهذا النهج لن يوضح فقط مشكلات

(١) Engler, p. 47.

(٢) Course, p. 16; Cours, p. 33

علم اللغة، بل نحن نعتقد أن الشعائر أو الأعراف... إلخ، سوف تظهر للعيان فى ضوء جديد لو تمت دراستها بوصفها علامات. وسوف يتيقن المرء من وجوب إدراجها فى ميدان علم العلامات وتفسيرها بقوانينه» [٣].

وهكذا قام علم العلامات على فرضية تقول: بقدر ما ترسل الأفعال أو الآثار الإنسانية «معنى» بقدر ما تُستخدم بوصفها علامات، أى يجب أن يوجد نسق كامن من الأعراف والتمييزات كى يوجد «معنى». وحيث توجد علامة يوجد نسق، وتلك فرضية تشترك فيها مختلف النشاطات الدالة. وحين يرغب المرء فى تحديد الطبيعة الجوهرية للنشاطات الدالة فإن عليه عدم معالجتها معزولة أو منفصلة، وإنما عليه معالجتها بوصفها أمثلة لأنساق سيميولوجية، وبهذا الأسلوب سوف تتضح المظاهر الكامنة أو المهملة فى أية ممارسات دالة غير لغوية حين تدرس - على الأخص - كما لو كانت «لغات».

ولكن لماذا كان يرجى من علم اللغة (وهو مجرد دراسة لأحد الأنساق الدالة المحددة) تقديم النموذج القياسى لدراسة الأنساق الدالة الأخرى؟! أو لماذا كان يرجى من علم اللغة بالذات تقديم هذا النمط العام **'le patron générale'** من علم العلامات؟! والإجابة على هذه الأسئلة تعود بنا إلى إحدى نقاط الانطلاق المألوفة ألا وهى الطبيعة العشوائية للعلامة.

يناقش دوسوسير: يمكن استخدام علم اللغة بوصفه نموذجاً لعلم العلامات. لأن الطبيعة العشوائية والاصطلاحية للعلامة فى حالة اللغة واضحة على نحو خاص، فقد تبدو العلامات غير اللغوية لمن يستخدمونها علامات طبيعية، وقد يتطلب الأمر بذل الجهد للتحقق من أن تهذيب أحد الأفعال أو أن عدم تهذيبه لا يشكل بذاته إحدى الخواص الجوهرية أو الضرورية للفعل ذاته، وإنما يمثل أحد المعانى الاصطلاحية له، إلا أن التسليم بعلم اللغة بوصفه نموذجاً لعلم العلامات يجبر المحلل (السيميولوجى) على الاهتمام بالأسس الاصطلاحية للعلامات غير اللغوية التى يقوم بدراستها.

على أن ذلك لا يعنى بأى حال أن العلامات عشوائية كلية، فهناك قيود على المعانى التى يمكن أن يستدل عليها من فعل بعينه، وبالعكس هناك قيود جوهرية أيضاً على فئة الأفعال التى تلائم التعبير عن معنى بعينه، على سبيل المثال من الصعب تخيل «اللكمة على الفم» بوصفها فعلاً يمكن أن يعبر عن التحية الودية فى إحدى الثقافات،

(٣) Course, p. 17; Cours, p. 35.

ومع ذلك فبإمكاننا العثور داخل تلك القيود على أحد التصنيفات الإجمالية للأفعال التى يمكن استخدامها للتعبير عن التحيات الودية، حيث يستطيع المرء الحديث - داخل عالم الممكنات الثقافية المتاحة - عن العلامات بوصفها علامات عشوائية واصطلاحية، وكما كتب دوسوسير:

«فى الحقيقة تقوم كل وسائط التعبير المستخدمة فى أى مجتمع من المجتمعات فى الأساس على أحد الأعراف الجمعية، أى تقوم - بتعبير آخر - على الاصطلاح. فمع أن علامات التهذيب - على سبيل المثال - قد تمتلئ بالتعبيرية التلقائية (وليتأمل المرء طريقة انبطاح أحد الصينيين أمام الإمبراطور تسع مرات بوصفه الأسلوب الأمثل للتحية) إلا أنها قد تحددت بقاعدة **a rule** فالمرء لا يستخدم علامات التهذيب لقيمتها التكوينية، وإنما يستخدمها لتلك القاعدة. وعلى أى حال يمكن القول إن العلامات العشوائية الخالصة هى العلامات الوثيقة بالمثال السيميولوجى. وهذا هو الذى يجعل من اللغة - مع أنها أكثر الأنساق التعبيرية تعقيداً وانتشاراً - النسق السيميولوجى، الأكثر تميزاً، ويجعل بالإمكان أيضاً استخدام علم اللغة بوصفه نموذجاً لعلم العلامات، هذا مع أن اللغة فى الأساس ماهى إلا نسق من أنساق هذا العلم» (٤). وبمجرد أن يتخذ المرء من علم اللغة نموذجاً لعلم العلامات سيكون بإمكانه أن يتجنب الخطأ الشائع بأن للعلامات (التى تبدو طبيعية للذين يستخدمونها) معنى تكوينياً، وبأنها لا تستلزم أى أعراف أو اصطلاحات.

ما أهمية هذا الرأى؟ ولماذا ينبغى على المرء تأكيد الطبيعة الاصطلاحية للعلامات غير اللغوية؟ والإجابة على مثل هذه الأسئلة بسيطة للغاية: لو كانت العلامات طبيعية عندئذ لن يوجد فيها ما يمكن تحليله بالفعل، حيث يمكن أن يقرر المرء - على سبيل المثال - أن فتح أحد الرجال لأحد الأبواب المغلقة لإحدى السيدات بدلاً منها فعل يتسم بالتهذيب، ويصبح ذلك هو كل ما فى الموضوع، ولكن حين يفترض المرء أن العلامات اصطلاحية فسوف يستنبط على نحو دقيق الأعراف التى استندت إليها، ويكتشف النسق الكامن الذى جعل من العلامات علامات. ومثلما تدفع الطبيعة العشوائية للعلامة - فى علم اللغة - المرء للتفكير فى نسق الاختلافات الوظيفية الذى يخلق العلامات اللغوية، فسوف تقوده أيضاً فى الحالات الأخرى غير اللغوية إلى التركيز على الاختلافات الدالة، أى الاختلافات والتقابلات التى تحمل المعنى. ما الذى يميز بين إحدى التحيات المهذبة والأخرى غير المهذبة؟ أو ما الذى يجعل من أحد

(٤) Course, p. 48; Cours, pp. 100 -1.

الأثواب ثوباً مسايراً للأزياء ومن ثوب آخر ثوباً غير مساير لها؟. وعندئذ سوف يصل المرء إلى دراسة نسق العلامات - ليس العلامات المستقلة فحسب - وإنما أحد أنساق التمييزات.

١ - مجال علم العلامات:

فى الواقع لم يتم احتراف اقتراحات دوسوسير المتعلقة بعلم العلامات مباشرة، حيث لم يبدأ العلماء فى التحقق من أهمية اقتراحاته الخصبة إلا فى منتصف هذا القرن تقريباً أى بعد سنوات طويلة من نشر كتاب «محاضرات فى علم اللغة العام»، وهكذا بدا الأمر كما لو كان مقدراً على فروع المعارف المستقلة تطوير تقنياتها الخاصة، وأن تعيد اكتشاف رؤى دوسوسير لحسابها الخاص قبل أن تشيع هذه الرؤى بوصفها رؤى سيميولوجية دارجة، وفى الحقيقة لم تظهر البنيوية 'Structuralisme' إلى حيز الوجود إلا حين أدرك علماء الأنثربولوجيا ونقاد الأدب وغيرهم أن الاقتداء بعلم اللغة يمكن أن يساعدهم فى توسيع ما كانوا يرغبون فى إنجازه داخل فروع معارفهم الخاصة وإثبات شرعيته، ولذلك فبمجرد أن بدأ هؤلاء فى التسليم بعلم اللغة بوصفه نموذجاً لفروع معارفهم الخاصة تيقنوا من أنهم لم يكونوا يقومون فى الواقع سوى بتطوير «علم العلامات» الذى اقترحه دوسوسير منذ زمن بعيد.

وهكذا يعرف الأنثربولوجى المشهور كلود ليفى ستروس C. Lévi Strauss الأنثربولوجيا فى الخطاب الافتتاحى لمقرر الأنثربولوجيا الاجتماعية فى الكوليج دو فرانس Collège de France عام ١٩٦١ بأنها فرع من علم العلامات، ويعلن البيعة الكاملة لدوسوسير بوصفه الرجل الذى قدم - أثناء مناقشته لعلم العلامات - أسس التصور الحقيقى للأنثربولوجيا، هذا مع أنه قبل هذا التاريخ بخمسة عشر عاماً، أى فى الفترة التى ظهر فيها مقال: التحليل البنائى فى علم اللغة والأنثربولوجيا Structural Analysis in Linguistics and Anthropology كان ليفى ستروس قد اتجه بالفعل إلى مفهومات علم اللغة ومناهجه بغاية إنشاء فرع البنيوية الخاصة به.

فى هذا المقال يتحدث ليفى ستروس عن الانتصارات التى أحرزها علم اللغة (على الأخص فى مجال علم الفونولوجى)، التى جعلت منه أحد فروع المعارف العلمية البارزة، ويقول: إن بمقدور علم الفونولوچى تقديم يد العون، وأن يقوم فى مجال العلوم الاجتماعية بالدور الإصلاحى نفسه الذى قامت به الفيزياء النووية فى مجال العلوم الدقيقة، ويقترح ضرورة اتباع عالم الأنثربولوجيا مَثَل عالم اللغة. فعالم الفونولوجى لا

يدرس «الحدود» المعزولة، وإنما يدرس العلاقات القائمة بين تلك الحدود وأنساق العلاقات، فهو ينتقل من دراسة الظواهر التى فهمها متحدثوا إحدى اللغات وعرفوها بشكل واع إلى دراسة البنية التحتية غير الواعية بها، إنه يسعى لتحديد أنساق العلاقات المعروفة بشكل غير واع فقط. ولكن ما الدرس الذى يمكن أن يخرج به العالم الأنثربولوجى من ذلك؟ يجيب ليفى ستروس: «يمكن لعالم الأنثربولوجيا اتخاذ علم الفونولوجى بوصفه مثالاً فى المنهج: يمكن لعالم الأنثربولوجيا عند تحليل الظواهر الدالة، وعند بحث الأفعال أو الموضوعات ذات المعنى التسليم بوجود نسق كامن من العلاقات والسعى لفهم ما إذا كانت معانى العناصر أو الموضوعات المستقلة تعد إحدى النتائج المترتبة على التقابلات القائمة بينها والعناصر والموضوعات الأخرى داخل نسق العلاقات الذى لم يعيه أعضاء الثقافة بعد أم لا» (٥).

لقد لخص نيكولاى تروبتسكوى N. Trubetzkoy بالفعل فى كتابه مبادئ علم الفونولوجى Principles of Phonology (١٩٣٩) المضامين الميثودولوجية للنظرية الفونولوجية بالنسبة للعلوم الاجتماعية، وقد كان هذا التلخيص انتصاراً لعلم العلامات كما اقترحه دوسوسير، فى حين يهتم عالم الصوتيات Phonetician بخواص الأصوات الكلامية الفعلية (أى بوصفها ظاهرة طبيعية)، يهتم عالم الفونولوجى Phonologist بتصوير الملامح الاختلافية (الوظيفية) للأصوات الكلامية فى إحدى اللغات (أى بوصفها ظاهرة ثقافية). والبحث (على خلاف عالم الصوتيات) عن الاختلافات الصوتية التى ارتبطت باختلافات المعانى، وعن كيفية ارتباط العناصر الاختلافية فيما بينها، وعن كيفية توافقها معاً لتشكيل الكلمات والعبارات، ويستمر تروبتسكوى قائلاً: من الواضح أنه ليس بمقدور عالم الفونولوجى إنجاز هذه المهام عن طريق مناهج العلوم الطبيعية (ومن بينها علم الصوتيات) التى تهتم بالخواص التكوينية للظواهر الطبيعية ذاتها وإنما عن طريق فهم المقدمات الاختلافية التى تعد بمثابة حوامل الدلالات الاجتماعية. بمعنى آخر لا يوجد فى العلوم الطبيعية شئ ارتبط بالتمييز بين «اللغة langue» و «الكلام parole»، فالعلوم الطبيعية لا يوجد فيها عرف أو نسق اصطلاحى يوجب دراسته، فى حين تهتم العلوم الإنسانية والاجتماعية بالاستخدام الاجتماعى للموضوعات المادية، ولذلك لا تهتم العلوم الطبيعية عادة بالتمييز بين الموضوعات ذاتها ونسق المقررات التمييزية أو الاختلافية التى تمنح تلك الموضوعات القيمة والمعنى.

(٥) يمكن العثور على مقال ليفي ستروس هذا في كتاب «الأنثربولوجيا البنائية» (١٩٦٨). أما ما يتعلق بالتقييم الدقيق لأعماله فما يختص بالعلامات انظر:

E. Leach,; Lévi Strauss; in Fontana Modern Masters.

ويناقش تروبتسكوى، تتماثل محاولات وصف هذه الأنساق تماماً مع البحث فى علم الفونولوجى، ويستشهد بدراسة الأزياء كما يجريها أحد علماء الأنثربولوجيا أو أحد علماء الاجتماع بوصفها مثالاً لهذا التماثل. فقد يكون لكثير من المعالم الفيزيائية الخام للأثواب عند مرتديها أهمية كبرى، ومع ذلك لاتشكل تلك المعالم الفيزيائية للأثواب بذاتها أية أهمية لعالم الأنثربولوجيا الذى لا يهتم سوى بالمعالم التى تنطوى على إحدى الدلالات الاجتماعية. وهكذا قد ينطوى طول الجزء السفلى للأثواب فى النسق الاجتماعى الخاص بإحدى الثقافات على قدر كبير من الدلالة، فى حين لا تنطوى المادة التى صنعت تلك الأثواب منها فى النسق الاجتماعى ذاته على أية دلالة تذكر، علاوة على ذلك قد يكون لارتدائى الملابس الكاكية اللون معنى اجتماعياً جديراً بالاعتبار، ومع ذلك فقد يقول الواقع إننى أفضل ارتداء الملابس الرمادية عن الملابس البنية، أو إننى لا أحبذ ارتداء الملابس المصنعة من الخامات الصوفية، ولذلك يتم إدراج مثل هذه التفضيلات ضمن نطاق الاختيارات الشخصية المحضة التى ليس لها أية علاقة بالدلالة الاجتماعية.

وهكذا فمثلما يحاول عالم الفونولوجى تحديد الاختلافات الصوتية التى تنطوى على معنى، وتلك الاختلافات الصوتية التى لا تنطوى على أى معنى، يحاول عالم الأنثربولوجيا (أو عالم الاجتماع) الدارس للأزياء أن يعزل المقومات التى تنطوى على الدلالة الاجتماعية عن تلك المقومات التى لا تنطوى على أية دلالة اجتماعية، أى يحاول إعادة بناء نسق العلاقات والتمييزات التى تَمثّله أعضاء المجتمع واستوعبوه، وهو النسق الذى يكشفون عنه حين يتخذون من أزياء بعينها علامة على أحد أساليب الحياة، أو على أحد الأدوار الاجتماعية أو على أحد الاتجاهات الاجتماعية السائدة. باختصار يهتم عالم الأنثربولوجيا (أو عالم الاجتماع بالمقومات التى تحولت بناء عليها الأزياء إلى علامات.

مثل عالم اللغة تماماً يحاول عالم الأنثربولوجيا (أو عالم الاجتماع) توضيح المعرفة المستترة التى تمكن أبناء المجتمعات من التواصل فيما بينهم، ومن فهم سلوك بعضهم بعضاً، فهو يحاول تفسير الحقائق المتعلقة بالمعرفة المستترة لأبناء المجتمع حين يُنظر لأحد الأفعال على أنه فعلاً مهذباً ولفعل آخر على أنه ليس كذلك. أو حين يكون أحد الأزياء ملائماً لأحد المواقف وغير ملائم لموقف آخر. فمتى وجدت معرفة أو سيطرة أياً كانت ملامحها (الاصطلاحية) وجد نسق يجب تفسيره، وهذا هو المبدأ الأساسى الذى يوجه التقدير الاستقرائى من علم اللغة إلى فروع المعارف الأخرى، شرط أن لا

تكون المعانى التى نسبها أعضاء إحدى الثقافات للموضوعات أو للأفعال بمثابة ظواهر عشوائية محضة، وبالتالى يجب أن يوجد دائماً نسق سيميولوجى من التميزات والمقولات وقواعد التراصف كى يتطلع المرء لتفسيره.

وهكذا يصبح بمقدور المرء أن يعين لعلم العلامات ميداناً عريضاً للبحث، ولكن لو عد المرء أى شئ له معنى داخل أية ثقافة بمثابة علامة، وبالتالى عده موضوعاً للبحث السيميولوجى، فسوف ينتهى الأمر بعلم العلامات إلى احتواء معظم فروع المعارف فى مجال الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، حيث يمكن فهم أى ميدان من ميادين النشاطات الإنسانية (سواء أكان الموسيقا، أم فن العمارة، أو أساليب الطبخ، أو آداب السلوك، أو الدعاية والإعلان، أو فن حياكة الملابس، أو الأدب) فى ضوء المصطلحات السيميولوجية.

قد يعترض بعض العلماء على هذا النمط من علم العلامات الاستعمارى الذى يسعى بهذا الأسلوب إلى تطويق الكثير من فروع المعارف الأخرى، على اعتبار أن الظواهر الدالة التى يصادفها المرء فى تلك الميادين المعرفية ليست متشابهة، حتى وإن عدت معظم النشاطات والموضوعات الإنسانية «علامات» فإنها ليست «علامات» متماثلة، وهو اعتراض معقول وله وجاهته بالتأكيد، لأن أحد المهام الأساسية لعلم العلامات هو التمييز بين مختلف أنماط «العلامات» والتحقق من أساليب دراستها المختلفة.

لقد تم بالفعل اقتراح عدد من نماذج العلامات، ومع ذلك لم يصمد من تلك النماذج المقترحة (استجابة لمداخل مختلفة) سوى ثلاثة نماذج أساسية: الأيقونة **icon**، الدليل **index** ،والعلامة **sign** بالمعنى الضيق للكلمة (وقد يطلق على المصطلح كلمة «رمز **symbol**» خطأ)، فكل العلامات تتكون من دال **signifier** ، ومدلول **signified**، أى تتكون من أحد الأشكال المحددة وأحد المعانى المحددة التى ارتبطت به، ومع ذلك لا تتماثل العلاقة بين «الدال» و «المدلول» فى كل نموذج منها، حيث تستخدم «الأيقونة» شبهاً حقيقياً بين الدال والمدلول، فتشير صورة الوجه (رسماً أو نحتاً) إلى الشخص الذى تمثل تلك الصورة صورة وجهه، ليس بأحد الأعراف العشوائية وإنما بالشبه، ويستخدم «الدليل» علاقة «علّية» أو «سببية» بين الدال والمدلول، فوجود الدخان يدل على وجود النار، لأن النار عموماً هى سبب الدخان، وظهور الغيوم يعنى سقوط المطر إذا كانت هذه الغيوم من نوعية الغيوم التى تمطر، وتدل آثار الأقدام على نوع الحيوان الذى تركها. أما «العلامة» بالمعنى الضيق للكلمة فهى تستخدم علاقة عشوائية واصطلاحية كلية بين الدال والمدلول، فمصافحة الأيدى بالأسلوب المتعارف عليه يدل على التحية، وحلو الطعام هو الطعام المناسب لإنهاء الوجبات وفقاً للأعراف... وهكذا.

ولكن ما المرامى التى يرمى إليها هذا التقسيم الثلاثى لعلم العلامات؟ فى الحقيقة ينحصر المرمى الرئيسى الذى يرمى إليه هذا التقسيم فى جعل العلامsign بالمعنى الضيق للكلمة الموضوع الرئيسى لعلم العلامة، واعتبار دراسة العلامات الأخرى بمثابة أحد النشاطات الثانوية المساعدة لهذا العلم، فدرس الأسلوب الذى تمثل به أحد رسومات الحصان، أو الذى تمثلت به إحدى الصور الفوتوغرافية التى التقطت للحصان ذاته قد يبدو وكأنه جزء من نشاط علم العلامات. ومع ذلك فهو لا يُدرج ضمن اختصاص علم العلامات، ذى الأساس اللغوى، وإنما يُدرج ضمن اختصاص النظرية الفلسفية للتصوير. فقد يقوم علم العلامات بتعيين هوية العلامات الأيقونية والتمييز بينها، ومع ذلك فإن درس الأيقونات ذاتها لا يُدرج ضمن النشاطات الرئيسية لهذا العلم.

أما الأدلة indices فهى من أكثر العلامات مراوغة وأقلها ثباتاً من وجهة نظر دارس العلامات، ونظراً لأنه لو أدرجها (الأدلة) فى مجال دراسته (علم العلامات) فسوف يخاطر فى الوقت ذاته بإدراج المعرفة الإنسانية كلها فى دائرة تخصصه، حيث يمكن النظر لأى علم يسعى لإقامة العلاقات العلية بين الظواهر على أنه علم يدرس الأدلة، وبالتالى سيتم إدراجه داخل نطاق علم العلامات، فقد يسعى الطب على سبيل المثال للربط بين الأمراض والأعراض، فاكتشاف أعراض أحد الأمراض لا يتم سوى بتعيين العلامات التى تدل على وجوده وبالعكس، فلتعيين مرض ما يجب تحديد الأعراض التى تمثل العلامات الخاصة به، وقد يسعى علم الأرصاد الجوية كذلك لتأسيس النسق الرابط بين أسباب الظروف الجوية ونتائجها. ومن ثم تتم قراءة الظروف الجوية بوصفها علامات لأحوال الطقس، أما الاستثمار الاقتصادى فهو يعتمد على القراءة المناسبة للعلامات الاقتصادية، حيث يساعد علم الاقتصاد فى تعيين هوية العلامات الاقتصادية وقراءتها، باختصار تحاول كل فروع المعارف حل شفرة العالم الطبيعى أو العالم الاجتماعى، وتختلف مناهجها فى هذا الشأن، ومع ذلك فليس هناك مبرر للاعتقاد فى إمكانية التوصل إلى تحقيق مساعى تلك العلوم بالفعل حين ندرجها جميعاً تحت راية علم العلامات الاستعمارى.

وتمثل «العلامات signs» بالمعنى الضيق للكلمة (أى حين تكون العلاقة بين«الدال» و «المدلول» فى العلامة علاقة عشوائية أو اصطلاحية) المجال الرئيسى لعلم العلامات، وبالفعل فإن محاولة فهم ميكانيزمات أمثال تلك العلامات يوجب دراستها سيميولوجيا، فحين تغيب الحلقة العلية بين «الدال» و «المدلول» (وهى الحلقة التى تسمح

بدراسة العلامات المستقلة) ليس أمام المرء سوى إعادة تركيب النسق السيميولوجى أو نسق الأعراف التى تشتق منه العلامات هويتها. وبتعبير أدق فلعدم اتصاف تلك العلامات (العشوائية) بالحافزية يجب على المرء إعادة بناء النسق السيميولوجى الخاص بها لأن هذا النسق وحده هو الذى يقوم بتفسيرها.

على أى حال ليس بمقدور المرء إقصاء «الأدلة» كلية عن مجال علم العلامات حيث تشكل «الأدلة» بذاتها إحدى الحالات الهامشية المهمة والمثيرة فى الوقت ذاته، وفى الحقيقة يمكن استخدام أى دليل من الأدلة بوصفه علامة من العلامات الاصطلاحية، لأنه متى تم الاعتراف بإحدى العلاقات السببية أو التدليلية بين «دال» معين و «مدلول» بعينه فى إحدى الثقافات أصبح هذا «الدال» مرتبطاً بـ «مدلوله»، واعتاد فى الوقت نفسه على استدعاء المعنى الذى ارتبط به، حتى فى الحالات التى قد تغيب فيها تلك العلاقة السببية تماماً، على سبيل المثال متى تم الاعتراف بأن الدخان يعنى النار، فقد أصبح بإمكانى استخدام الدخان للتدليل على النار، حتى وإن لم يكن الدخان الماثل فى هذه الحالة نتيجة لنار حقيقية، فلقد استخدم «الدليل» فيما يبدو بوصفه إحدى العلامات الاصطلاحية.

بطبيعة الحال يمكن بتلك الطريقة المسرحية استخدام كثير من الأدلة بوصفها علامات اصطلاحية، فلو وضعنا على وجه أحد الممثلين مكياجاً كى يبدو كما لو أنه قد أصيب بالحصبة، فنحن نقرأ البقع المصطنعة وكأنها تدل على الحصبة بأحد الأساليب الاصطلاحية، ولن نفكر فى تلك الحالة أن تلك البقع المصطنعة قد ارتبطت علَياًبالحصبة. وعلى أى حال هناك قائمة ضخمة من الأدلة التى خضعت للاصطلاح والَتى تندرج ضمن اهتمام دارس العلامات، لأنها تشكل ما يطلق عليه الميثولوجيا الاجتماعية الاصطلاحية للثقافات، وأفضل الأمثلة على تلك الأدلة الاصطلاحية هو ما يعرف باسم «رموز المكانة **status symbols**»، فكما يوحى الاسم ذاته فتلك الأدلة الاصطلاحية ليست مجرد أدلة للمكانة بل رموزاً لها، فعلى الرغم من وجود علاقة سببية أو جوهرية بين تلك الأدلة والمكانة التى تدل عليها، إلا أنها لم ترتق أو لم تُعزز إلا بفعل الأعراف الخاصة بترتيب الرموز أو منزلتها الاجتماعية، وتحميلها معنى أكبر من المعنى الذى تقتضيه طبيعتها العللية أو التدليلية. وهكذا فقد تعد السيارة الرولزرويس دليلاً على الثروة بالتأكيد، أى يجب أن يكون المرء ثرياً لكى يمتلك واحدة منها، ومع ذلك فالعرف الاجتماعى هو الذى جعل من هذه السيارة أحد رموز الثروة، أى جعل منها أحد الموضوعات الأسطورية التى تدل على الثروة بشكل أكثر هيمنة عن أى شئ آخر

قد يساويها فى الثمن الباهظ، فمن بين كل الأشياء التى تدل على الغنى الفاحش انفردت السيارة الرولزرويس بتلك الدلالة نتيجة الاستخدام الاجتماعى لها بوصفها أحد رموز الثروة، ولذلك يدرج دارس العلامات الذى يقوم بدراسة الحياة الاجتماعية بوصفها نسقاً من العلامات «الأدلة» الاصطلاحية فى مجال دراسته بالتأكيد(٦) .

علاوة على ذلك هناك طريقة أخرى يمكن لـ «الأدلة» أن تقتحم بها مجال دارس العلامات، ففى داخل العلوم تتغير معانى الأدلة وفقاً لتغير الوضع النسبى للمعرفة، على سبيل المثال تختلف قراءة الأعراض الطبية ويختلف أسلوب تأويلها من عصر لآخر وفقاً لتقدم المعرفة الطبية، حيث تتغير الأعراض الطبية ويتغير أسلوب تأويلها مع تغير العصور، وهكذا يصبح بمقدور دارس العلامات قراءة التغيرات فى الطب بوصفها أحد الأنساق التأويلية وتحديدها، وقد يسعى هذا الدارس لاكتشاف الأعراف التى تحدد الخطاب الطبى فى إحدى الفترات التاريخية أو تجيزه، أو التى تسمح بقراءة الأدلة الطبية، فى مثل هذا البحث لا يهتم دارس العلامات بالعلاقة السببية الحقيقية بين الدليل والمعنى، وإنما يهتم بقراءة الأدلة «الطبية» داخل أحد أنساق الأعراف الطبية.

إذن ما مجال علم العلامات؟ وإلى أى مدى تمتد إمبراطوريته؟

من الواضح أنه ليس لعلم العلامات حدود ثابتة، فهناك الكثير من الموضوعات التى يمكن دراستها سيميولوجياً إلا أنها لا تستلزم بالضرورة دراستها بهذا الأسلوب، وفى الحقيقة لكى يحدد المرء مجال علم العلامات عليه أن يحدد الضروب المختلفة للحالات الدالة التى قد يصادفها.

(١) يوجد فى أعماق المشروع السيميولوجى أنساق العلامات الاصطلاحية التى استخدمت بغاية الاتصال المباشر، وتشمل هذه الأنساق: أولاً: النظم الشفرية المختلفة التى استخدمت فى نقل الرسائل التى تشكلت فى إحدى اللغات الطبيعية الحية كالإنجليزية مثلاً، مثل: شفرة مورس **Morse code**، الشفرات الملوحة (التى تستعمل لتنظيم مرور القطارات)، أو شفرة بريل **Braille** ، وكل النظم الشفرية التى اخترعت بهدف التكتم والسرية، أو التى يمكن استخدامها لنقل إحدى الرسائل الإنجليزية. ثانياً: هناك سلسلة كاملة من النظم الشفرية المتخصصة التى استخدمت فى نقل نمط خاص

(٦) فيما يتعلق بهذا المظهر من علم العلامات انظر الفصل الأخير من:

Roland Barthes; Mythologies; London 1972.

من المعلومات لجماعات قد لا تشترك فى اللغة الطبيعية ذاتها، مثل الرموز الكيميائية، إشارات المرور، علامات الطرق، أختام الفحوصات الفضية، رموز الرياضيات، والعلامات المستخدمة فى المطارات واللافتات... إلخ، أو المجموعات الرمزية المبهمة من النظم الشفرية الخاصة بالنبلاء أو بالمشتغلين بالكيمياء [٧]. فكل هذه الحالات تحتوى على علامات اصطلاحية قامت على نظم شفرية صريحة، فنظراً لأنها صممت بغاية تحقيق الاتصال السهل الواضح فقد أُنتهج منهاج صريح فيما يتعلق بتشفيرها encoding وحل شفرتها decoding ، تماماً وكأننا نبحث عن إحدى المفردات فى أحد المعاجم. فتلك النظم الشفرية تمثل الأمثلة المجردة للأنساق السيميولوجية، إلا أنه وبسبب وضوح معالمها هكذا فمن السهل دائماً وصف المبادئ التى نشأت عنها. وهكذا تثبت تلك النظم الشفرية عدم أهميتها لدارس العلامات مقارنة بالأنساق الأقل وضوحاً والأكثر تعقيداً التى تندرج فى تصنيفنا التالى.

(٢) أما النظم الشفرية الأكثر تعقيداً والأقل وضوحاً فهى تلك الأنساق التى يتحقق الاتصال بها يقينا، بشرط أن يكون من الصعب تثبيتها وبشرط أن تتميز بالإبهام أو القابلية للتعديل، وهذه الأنساق نجدها - على سبيل المثال - فى الأدب، فلكى تقرأ الأدب وتفهمه فأنت مطالب بما هو أكثر من معرفة اللغة التى كتب فيها، مع أنه من الصعب جداً إثبات المعرفة الإضافية اللازمة للتأويل المرضى للأعمال الأدبية بشكل دقيق، من المؤكد أن المرء لا يعالج نوعية النظم الشفرية التى قد تنوب عنها كتب مفاتيح الرموز أو النظام الشفرى. وعلى أى حال فلأن المرء فى هذه الحالة يعالج أحد الأنساق الاتصالية الغنية والمعقدة إلى أقصى الحدود، فإن الدراسة السيميولوجية للأدب وللنظم الشفرية الجمالية الأخرى (مثل النظم الشفرية للرسم والموسيقا) تعد بذاتها إحدى الدراسات السيميولوجية المهمة إلى أبعد الحدود.

من السهل تعليل التعقيد الغامض لهذه النظم الشفرية، فلقد تم تصميم النظم الشفرية المتعلقة بالنمط الأول لإيصال الرسائل والأفكار العامة المعروفة بالفعل بأسلوب مباشر واضح تماماً، ومن ثم يقدم أى نظام شفرى منها بشكل مباشر أحد التنويتات notation المقتصدة للأفكار العامة التى تم تحديدها بالفعل، أما أسلوب التعبير الجمالى فهو يهدف إلى إيصال الأفكار، ودقائق الذهن، والتعقيدات التى لم يتم

(٧) لقد ناقش جورج مونان G. Mounin هذه النوعية من الأنساق في كتابه: مقدمة لعلم العلامات: Introduction a La Sémiologie (باريس ١٩٧٠).

صياغتها بعد، فحالما يتم إدراك أحد النظم الشفرية عموماً بوصفه نظاماً شفرياً (وبوصفه أحد أساليب التعبير عن الأفكار العامة التى اتسقت بالفعل) تميل الآثار الأدبية للفن عادة فى الانحراف عن هذا النظام الشفرى، حيث تنتبه الآثار الأدبية للنظام الشفرى وتتهكم منه وتشوهه ما دامت قد اكتشفت تحولاتها وامتداداتها الممكنة فيه، فبإمكان المرء أن يقول إن معظم تأثير الآثار الأدبية للفن يكمن فى الأساليب التى تكتشف بها تلك الآثار الأدبية النظم الشفرية ذاتها التى تستخدمها وفي كيفية تعديلها لها. وهذا ما يجعل من البحث السيميولوجى لتلك الأنساق الأدبية بحثاً مناسباً تماماً وصعباً فى الوقت نفسه.

(٣) أما النوع الثالث من النظم الشفرية الذى يجب أن يتصدى علم العلامات له فهو يغطى الممارسات الاجتماعية التى قد تظهر وكأنها لا ترتبط بالاتصال مع أنها فى الواقع ترتبت تماماً وفقاً لسلسلة كاملة من التمييزات لأجل خلق المعنى واستخدمتها بالتأكيد، حيث تمثل الشعائر والطقوس وآداب السلوك وأنساق الأعراف التى تقرر صنوف الطعام أو الملابس - كما هو واضح - أنساقاً سيميولوجية، فارتداء المرء لمجموعة من الملابس وعدم ارتدائه لمجموعة أخرى منها يقوم بإيصال شئ ما بالتأكيد وإن تم بأسلوب غير مباشر، وقد يتمادى المرء ويقر أن المبانى التى نسكنها، والأشياء التى نشتريها، والأفعال التى نؤديها تندرج جميعها ضمن اهتمام دارس العلامات لأن كل الفئات والمهام التى استثمرت فيها هى فئات ومهام سيميولوجية أساساً، ولكن هذا لا يعنى - على سبيل المثال - أن شراء أحد المنازل يعد بذاته فعلاً اتصالياً، وإنما يعنى فقط أن الاختلافات الموجودة بين المنازل قد استثمرت فيما يتعلق بمعناها داخل أحد الأنساق السيميولوجية، ومن ثم فاختيار المرء لأحد المنازل وعدم اختياره لمنزل آخر يعنى أنه يتعامل مع صورة ذهنية تجسدت فى أحد المنازل (أحد الأكواخ الريفية، إحدى الشقق أو الفيلات الحديثة، إحدى فيلات العصر الفيكتورى... وهكذا) وليس فى منزل آخر، فقد يقرر المرء شراء أحد المنازل التى قد تظهر صورته الذهنية - لأسباب عملية صرفة - غير متجانسة (لطابعه المعمارى، أو لحاجته الماسة إليه)، إلا أن المرء قد استغرق - برغم ذلك - فى أحد الأنساق السيميولوجية. وعلى أى حال تنحصر مهمة دارس العلامات عند معالجة الملابس أو الموضوعات التجارية أو أساليب التسلية وكل الكينونات الاجتماعية الأخرى فى توضيح المعانى المستترة التى تحملها، وفى إعادة بناء نسق الدلالات التى قامت تلك المعانى المستترة عليه.

(٤) وأخيراً فقد توصلنا إلى النظم الشفرية التى أغفلتها عن عمد على اعتبار أنها تتعلق بـ «الأدلة indices» وليس بالعلامات signs بالمعنى الضيق لها، فروع

المعارف المتعلقة بالعلوم الطبيعية والاجتماعية التى تحاول تأسيس علاقات السبب والنتيجة بين الظواهر التى تدرسها، والتى تنظر لمعنى الموضوع أو الفعل على أنه النتيجة المترتبة على العنصر الشرطي السببى السابق، أو تنظر إلى دلالته فى إحدى المخططات السببيةوكما وضح سابقاً أنه على الرغم من أن فروع المعارف هذه لا تعد بذاتها فروع معارف سيميولوجية، فإن ذلك لا يعنى أنها لا تندرج ضمن اهتمام دارس العلامات، فعلى الرغم من أن موضوعات دراسات العلوم الطبيعية والاجتماعية لا تعد بذاتها «علامات» بالمعنى الضيق، إلا أن هذه العلوم ذاتها بوصفها فروعاً من المعارف، وبوصفها «لغات» أو أنساقاً يمكن دراستها بوصفها أنساقاً سيميولوجية.

وهو أمر ينطبق على أى حال على وضع العلوم التى تقابل الآن بالرفض مثل علم التنجيم **Astrology**. فنتيجة لعدم اعتقادنا فى العلاقات السببية التى يقيمها المنجمون بين حركات الكواكب والأحداث الواقعة فى حياة الأشخاص، يكون من السهل دراسة علم التنجيم بوصفه نسقاً من الأعراف، وبإمكان دارس العلامات أن يتساءل فى هذه الحالة عن القواعد أو عن الأعراف التى يستخدمها المنجمون لنسب المعنى للوضع النسبى للأجرام السماوية، أو عن الأعراف التى يقرها علم التنجيم كى يصبح المرء أحد المنجمين.

ونحن لا نتردد فى التسليم فى هذه الحالة بأننا بصدد أحد أنساق العلاقات التى يمكن استنباطها: فى الحقيقة لو تأملنا المسألة فسوف نفهم أن تحليلنا السيميولوجى لن يتأثر بأى حال إذا أثبتت الاكتشافات العلمية فى المستقبل أن كل ما قاله المنجمون كان صادقاً أو لم يكن، لأن قائمة القواعد ذاتها لا تزال كامنة فى الخطاب التنجيمى سواء أكانت التنبؤات المقدمة صادقة أم كانت تنبؤات مزيفة. وهكذا يمكننا توسيع حدود علم العلامات. بإمكان علم العلامات دراسة الأعراف التى تقرر خطاب أى فرع من فروع المعارف وتأويلاته. وعند دارس العلامات لايشكل صدق قضايا أى فرع من فروع المعارف أو زيفها أية أهمية بالنسبة له، فلو أصبح كل ما يؤكده علم النبات **Botany** اليوم من إفادات – على سبيل المثال – مدحضاً فى المستقبل فلن يؤثر ذلك بأى حال فى أى تحليل سيميولوجى لأعراف علم النبات بوصفها نسقاً من العلامات، فعلم النبات لا يمثل فى الواقع حاصل جمع الإفادات الحقيقية للنباتات، وإنما هو أحد أنساق الخطاب، ففى كل العصور يوجد الكثير مما يمكن قوله بصدق حول النباتات (مثل ضرورة رعاية الزهور بشكل منظم أو ضرورة استئصال الأعشاب البرية بانتظام وما شابه ذلك) ومع ذلك لاتندرج تلك الأقوال ضمن ميدان علم النبات،

ولايهتم دارس العلامات فى العادة سوى بالأعراف التى تؤدى إلى التسليم ببعض الإفادات فى ميدان علم النبات، وإلى إقصاء بعضها الآخر. وعلى الرغم من ذلك فهناك من بين فروع المعارف من يعير نفسه بسهولة للتحليل السيمولوجى (كالطب ، الأرصاد الجوية، التحليل النفسى، علم التنجيم)، ومن ثم تهتم فروع المعارف هذه أكثر من غيرها – كما هو واضح – بقراءة العلامات وتأويلها، وفى الحقيقة فعلى هذا المستوى يمكن دراسة أى نسق من أنساق الخطابات المعرفية سيميولوجياً، لأنه يعد بذاته نسقاً من أنساق العلامات.

٢ – ملامح التحليل السيمولوجى :

لقد ساعد استخدام علم اللغة – كما اقترح دوسوسير – بوصفه نموذجاً لعلم العلامات على لفت الانتباه إلى الطبيعة الاصطلاحية للعلامات والطبيعة الاختلافية للمعنى، ومع ذلك فقد اتضح للعلماء أن بعض مفهومات التحليل اللغوى وتقنياته كانت أكثر ملائمة لبحث بعض الأنساق – نتيجة لتفرع أنساق العلامات الذى أشرت إليه – دون الأخرى. وعلى كل حال يميز المحلل فى كل الأحوال بين اللغة **langue** والكلام **parole** ، ويحاول تجاوز الأفعال والموضوعات ذاتها إلى أنساق الأحكام **rules** والعلاقات التى تسمح لها بكسب المعنى، وفى معظم الحالات سيكون بمقدوره تعيين العلاقات التراصفية **syntagmatic** والعلاقات الاستبدالية **paradigmatic** : أى العلاقات القائمة بين العناصر التى يمكن ضمها معاً لتشكيل وحدات المستوى الأعلى، والعلاقات القائمة بين العناصر التى يمكن أن تحل محل بعضها بعضاً، والتى تتضاد بالتالى فيما بينها لتوليد المعنى. ومع ذلك فقد يكون النظم **Syntax** فى بعض الأنساق ضعيفاً على نحو لايسمح بوجود العلاقات «التراصفية» غالباً. فعلامات المرور (على سبيل المثال) لاتتضمن فى العادة أكثر من وحدة واحدة حتى إن استخدمت تركيباً مكوناً من أكثر من وحدة واحدة (كما نجد أحياناً فى اللافتات التى تشير إلى أحد الأخطار والرسوم التى تعين نوعية الخطر)، وعلى ذلك تعد العلاقة التركيبية فيها علاقة مباشرة وغير ذى أهمية، وبالتبادل ففى بعض الأنساق قد تكون التضادات «الاستبدالية» الأولية محدودة إلى أقصى الحدود، فلايوجد فى شفرة مورس (على سبيل المثال) سوى تضادين اثنين فقط : الضوضاء مقابل الصمت، والقصر مقابل الطول، وفى بعض الأنساق قد تكون التضادات الاستبدالية تضادات ضعيفة من الناحية الدلالية، على سبيل المثال تسجل مبغضات ليفيتكاس **Leviticus** الحيوانات، حيوان مسموح بأكله وآخر محظور أكله. وبإمكان المرء وبشئ من البراعة إعادة بناء نسق القواعد الذى يعين

الدلالة للحيوانات منفردة، هذا مع أن هذا النسق لايولد سوى مغنيين فقط، النظيف والملوث (أو المسموح به والممنوع).

وباستثناء ذلك ففي معظم الأنساق توجد علاقات «تراصفية» وتضادات «استبدالية»، وتوجد تشكيلة متنوعة من المعاني التي يمكن توليدها بالتضادات والعلاقات المختلفة، ففي نسق الطعام – على سبيل المثال – يمكن للمرء أن يحدد على المحور التراصفي توافقات ألوان أو صنوف الطعام التي يمكنها ابتكار وجبات من كل الأنواع، ويمكن في هذا النسق شغل كل صنف من الطعام بأحد الأطباق الداخلة في تضاد استبدالي فيما بينها (ليس بمقدور المرء التوفيق بين اللحم المشوي، وقطع لحم الجمل في وجبة واحدة لأنهما بدلان في أية قائمة من قوائم الطعام) وغالباً ما تحمل الأطباق التي قد يتم التبديل بينها معان مختلفة بحيث تفيد ضمناً درجات متباينة من الترف، الأناقة ... إلخ.

على أي حال فقد تعقدت معظم الأنساق السيميولوجية بحقيقة اعتمادها في الواقع على أنساق أخرى وعلى الأخص نسق اللغة، وهكذا تعد أنساقاً من «الرتبة الثانية»، وخير ممثل لهذه الأنساق الأدب فهو يتضمن في الأساس لغة، أما الأعراف التكميلية له فهي الأعراف الخاصة بالاستخدامات المميزة للغة. وهكذا – ولنضرب أحد الأمثلة المباشرة – يمكن فهم الصور البلاغية كالاستعارة **metaphor** والكناية **metonymy** والمبالغة **hyperbole** والمجاز المرسل **synecdoche** بوصفها عمليات خاصة بأحد النظم الشفرية الأدبية من نوات المرتبة الثانية، فحين يكتب شكسبير **Shakespeare** : **but thy eternal summer shall not fade** فإن كلماته تمثل علامات لديها معناها الحرفي في النظام الشفري اللغوي للغة الإنجليزية، ومع ذلك فالصورة البلاغية للاستعارة هي التي تسمح للمرء بأن يستخدم العلامات اللغوية **eternal summer** لكي يفيد شيئاً مثل: "الجمال الواهن الذي سيبقى في ذروته دائماً" ، علاوة على ذلك يوجد في شعر الحب عرف لخلق إطراء مبالغ فيه من هذا النوع، وهو عرف يعتمد على استعارات الطبيعة والعمليات الطبيعية، بوصفها أحد الأشكال الملائمة للمديح.

والآن فمن الواضح أن نسق الأدب – أي المعرفة التي يجب على المرء أن يكتسبها علاوة على معرفة اللغة لكي يقرأ الآثار الأدبية ويؤولها – لايتضمن أيا من النظم الشفرية الصريحة التي احتوتها أنساق علامات المرور أو آداب السلوك. يستطيع المرء أن يتعلم مختلف أساليب تأويل اللغة التصويرية، والأعراف التي تقرر الأجناس الأدبية **genres** المختلفة، وأنماط البناء الأدبي أو التنظيم الأدبي. ومع ذلك فالأدب

يقوض باستمرار أساس أى شئ قد يهدده بجعله أحد النظم الشفرية الصارمة، أو قد يجعل منه مجرد قواعد صريحة للتأويل ويتهكم منه ويتملص دائماً. ففى حين لاتنتهك علامات المرور حرمة النظام الشفرى لعلامات المرور تنتهك الآثار الأدبية باستمرار حرمة النظم الشفرية للغة، وهذا لأن الأدب فى الأساس ماهو إلا اكتشاف لإمكانات *الخبرة، واستفهام عن الفئات الموجودة فيها وتعميقاً لها، وهى الإمكانات التى نشاهد* من خلالها أنفسنا والعالم عادة. ولذلك تقوم النظم الشفرية الأدبية بإحدى الأدوار المهمة بإتاحتها تلك العملية الإستفهامية والتعميقية للخبرة، ففى حين تجعل قواعد آداب السلوك – على سبيل المثال – من السلوك سلوكاً مهذباً أو سلوكاً غير مهذب. فإن الآثار الأدبية لاتستلقى كلية هكذا داخل النظم الشفرية التى تحددها، وهذا هو ما يجعل من البحث السيميولوجى للأدب مشروعاً مفنياً إلى هذا الحد [٨].

فى سلسلة من التعليقات غير المنشورة حول الخرافات الجرمانية فى القرون الوسطى يكشف دوسوسير عن اهتمامه بسيميولوجيا الأدب **Semiology of Literature** ويكشف عن وعيه ببعض المشكلات التى يطرحها هذا العلم. يكتب دوسوسير : «تتألف أية خرافة من سلسلة من الرموز التى تبقيها من بعض النواحى قائمة مستقلة بذاتها»، فلقد تقررت تلك الرموز – على الرغم من صعوبة تحديدها على الخلاف من وحدات أية لغة – بالتأكيد مثلها فى ذلك مثل العلامات الأخرى وفقاً للمبادئ ذاتها، حيث تشكل جزءاً من علم العلامات»[٩]. فى حالة الأدب كما فى حالة اللغة أو الأنساق السيميولوجية الأخرى تنحصر المشكلة الأساسية فى تحديد الهوية. فى الأدب لايعالج المرء علامات ثا[illegible] إلى حد أن شكلاً بعينه سيكون له دائماً المعنى ذاته أينما ظهر، وإنما على النقيض من ذلك يعالج علامات غير ثابتة، فالأثر الأدبى يصاغ دائماً من العلامات الأسبق فى الوجود على وجوده هو، «مؤلفاً بينها، ومنتزعاً منها معنى جديداً باستمرار». ويتوصل دوسوسير بالفعل – مع الأخذ بعين الاعتبار مشكلة الشخصيات **characters** فى الخرافات الجرمانية – إلى استنتاج أن المرء يجابه فى تلك المشكلة

(٨) فيما يتعلق بالدراسة البنيوية والسيميولوجية للأدب انظر :

J. Culler (1975) : Structuralist Poetics : Structuralism, Linguistics and the Study of Literature; London & Ithaca.

(٩) وهذا النص مقتبس من :

Jean Starobinski (1971) : Les Mos sous les mots; Paris, p. 15.

سلسلة خاصة من العناصر (الأسماء الشائعة الرموز، العلامات بين الشخصيات، التصرفات) وسنسك لما يعبر المرء عنه بوصفه إحدى الشخصيات لايمثل في الحقيقة شيئاً سوى تمثيل دور القارئ، أي أنه النتيجة المترتبة على المقارنة المتواصلة للعناصر المتفاوتة التي يصادلها القارئ حين يقـــرأ النص بالكامل وعلى عملية التوفيق بينها (١٠).

ويكشف دوسوسير في تلك الملاحظة العميقة بالمصادمة عن أحد أنساق الأعراف المهمة في الأدب، وهو أن الآثار الأدبية للشخصيات محكومة دائماً بمجموعة من النماذج الشقالية التي تمكّنا – على سبيل المثال– من الاستدلال على الدوالع من الفعل، أو الإستدلال على صفات الشخص من مظهره. وهكذا سوملنا أن إحدى الشخصيات مد تغيرت في سياق إحدى الروايات أو القصص، لإن ما نقوسه في هذه الحاسة وبلغة النماذج الأدبية للشخصية سدينا هو أن الفعلين أو الصفتين اللتين نسبتا إلى إحدى الشخصيات المحددة بالذات يشكلان تقابلين، لأنهما صتنا لران : لولقا متصوراتنا للشخصية سو لعل أحد الأشخاص في البداية x ثم لعل بعد نسك y للا نستطيع أن ندرك نسك إلا بقوسنا أن شخصية الشخص ذاته مد تغيرت.

٣ – الجناس التصحيفي ومركزية اللوجوس :

على الرغم من رؤية دوسوسير الصحيحة لسيميوطيقا الأدب إلا أن ملاحظاته حولها ظلت ملاحظات نامصة، وصع نسك كان هناك مشروع آخر وثيق الصلة بسيميوطيقا الأدب خرس دوسوسير سه نفسه في أواخر حياته، وترك لنا ملاحظات غزيرة حوله، هذا على الرغم من عدم تجرئه على نشر شئ حول هذا الموضوع، لقد طور دوسوسير النظرية التي تذهب إلى تعمد الشعراء اللاتينيين حجب الجناسات التصحيفية anagrams لأسماء الأعلام في مصائدهم. ومد اعتقد دوسوسير بنسك أنه اكتشف أحد أنساق العلامات الإضافية أو مجموعة الأعراف الحميمة اللازمة لإنتاج المعنى، ومد ملأ دوسوسير عدداً خبيراً من الكراسات بملاحظاته حول مختلف أنماط

(١٠) نقلاً عن :

D'Arco Silivio Avalle (1973) : 'La Sémiologie de la narrativité chez Saussure' in Essais de la théorie du texte, ed. C. Bouazis, Paris , p. 33.

الجناسات التصحيفية التى اكتشفها (حروف تناثرت فى متن النص text، بترتيبها الصحيح حيناً، ومع تغير فى ترتيبها حيناً آخر، ومثنى وثلاث ... إلخ أحياناً أخر) وهكذا اكتشف دوسوسير فى السطور الثلاثة عشر الأولى من قصيدة لوكرتيس Lucretius المعنونة de rerum nature (والتى احتوت أحد الابتهالات إلى فينوس Venus) ثلاثة جناسات تصحيفية للاسم اليونانى للمعبودة أفروديت[١١] Aphrodite.

وهذا المثال مثال نموذجى بالفعل، فقد بحث دوسوسير عن الجناسات التصحيفية فى أسماء الأعلام ذى الصلة بمحتوى الأبيات الشعرية، واهتم بالحالات التى تكررت فى النصوص، ولم يهتم بالحالات العرضية أو الناتجة عن الصدفة. وبالفعل لقد جمع دوسوسير بعض الحالات المثيرة للإعجاب ومع ذلك فقد أجهدته قضيتين جعلتاه يترك تأملاته غير منشورة، القضية الأولى هى قضية « القصد »، وهى إحدى القضايا الحاسمة دون شك : لو كان الجناس التصحيفى يمثل بالفعل أحد الأعراف فى الشعر اللاتينى، أى يمثل أحد الأعراف التى يتبعها الشعراء اللاتينيون، فإن السؤال عندئذ : لماذا لانعثر على أية إشارات إلى ممارسته أو على أية مناقشات حوله فى النصوص الكلاسيكية ؟ والقضية الثانية هى أن التوصية التى أخذ بها (بشأن الترجيح الإحصائى للجناسات التصحيفية من النوع الذى اكتشفه) لم تكن مقنعة، وكما كتب فى أحد الخطابات : «إننى فى حيرة فى أكثر القضايا أهمية، بمعنى هل على المرء التفكير فى الواقع ، أم عليه التفكير فى الخيال الجامح للمسألة بالكامل»[١٢].

إلا أن السؤال المهم بطبيعة الحال هو ما الذى يجب علينا نحن التفكير فيه؟ هل كان ذلك يمثل – كما أشار أحد النقاد – إحدى لحظات الجنون عند دوسوسير، أم كان – كما ناقش آخرون – انتقاداً جذرياً منه للغة وعلى الأخص للعلامة؟ هل سيطرت على دوسوسير إحدى المشكلات الوهمية، أم أنه كان يحاول بالفعل اختراع أسلوب جديد فى القراءة، وهو متحرر من قيود الشفرات اللغوية الاصطلاحية وعلاقات العلامة ؟.

(١١) فينوس : إله الحب والجمال عند الرومان.

أفروديت : إله الحب والجمال عند الإغريق.

(١٢) نقلاً عن : Starobinski, op. cit., p. 138.

ولقد نشر ستاروبينسكي مقتطفات كثيرة من ملاحظات دوسوسير حول الجناسات التصحيفية.

فى اعتقادى أنه يمكن القول وبكل صراحة أن إقتناع دوسوسير بالجناسات التصحيفية لم يكن فى ذاته نقداً للعلامة، أو محاولة منه لهدم «العرف» كى يترك للقراء حرية إنتاج المعنى أو خلقه وفقاً لأساليبهم الخاصة. لأنه افترض خضوع الجناسات التصحيفية لأعراف إضافية صارمة، وبالفعل فهو لم ينظر إلى اكتشاف الجناسات التصحيفية فى النص على أنه شكل من أشكال التعبير عن الذات، أو على أنه هروب من التقيد. وعلاوة على ذلك لم تكن الجناسات التصحيفية بالنسبة لدوسوسير تكشف عن أحد الأسرار، أو عن أحد المعانى المتهدمة وإنما كانت تدعم بالفعل كلمات أخرى – أى أسماء الأعلام – وهى الكلمات التى أكدت ماتضمنه النص فى ذلك الحين، فقد عززت تلك الكلمات المعنى الذى انطوت عليه العلامات الأخرى فى النص ولم تقوضه.

عندئذ ما الذى يمكن قوله عن نظرية دوسوسير؟ فقد ينظر المرء لنظرية دوسوسير من إحدى وجهات نظر التحليل النفسى ويقرر إنه اكتشف بالفعل إحدى الحالات الخاصة لما عُرف بـ «إلحاح الحرف فى اللاوعى» عند قراءة شئ قد كتبه المرء مرة أخرى، من المعتاد أن يكتشف المرء – دون أى معنى لذلك – أنه قد أعاد إحدى الكلمات بمعنيين مختلفين، أو أنه قد استخدم كلمات متماثلة فى الرنين فى حيز متقارب ضيق وتفسير ذلك (افتراضاً) أن الكلمة الرئيسية قد بقيت فى اللاوعى القريب، وساعدت فى تحديد اختيار الكلمات اللاحقة. لقد أوحى لنا تفسير التحليل النفسى (وعلى الأخص ذلك التفسير الذى نجده فى كتاب فرويد **S. Freud**: «علم أمراض النفس فى الحياة اليومية) بأهمية القرائن اللفظية الصرف – القرائن من نوعية التورية **punning** والجناس التصحيفى – فى أداءات الوعى. وهكذا قد يكون لدى المرء المبرر الكامل للاقتناع بأن اللغة الشعرية **poetic** – التى تخلو من أى أهداف اتصالية محددة، والتى تمثل النطاق الأكبر لعمليات تداعى المعانى – تؤثر فى الكم الأكبر لتكرار الجناس التصحيفى.

لو أن الحالات المقنعة من الجناس التصحيفى اقتضت التكرار – كما اعتقد دوسوسير – فإن بإمكان المرء عندئذ ربط الجناسات التصحيفية بالعمليات الشعرية الأخرى، ففى إحدى الأبيات الشعرية عن بودلير **Baudelaire**:

Je sentis ma gorge serrée par gla main terrible de l'hystérie

تعيد الأصوات المكتوبة بالحروف المائلة **is terri** إنتاج الكلمة النهائية فى بيت الشعر: **hystérie**، فلقد أراد الشاعر (افتراضاً) نسيجاً صوتياً غنى الأثر ولذلك خلق

جناساً تصحيفياً، ومع ذلك فإن هذا الجناس التصحيفى الكامل أقل أهمية من أصداء:

"hung.... swung..... tongue" و "king fishers catch fire"

حيث تشكل الأوزان الشعرية **rhymes** والجناس الاستهلالى**alliteration** والسجع **assonance** عناصر أساسية للجناسات التصحيفية، وحين تظهر تلك العناصر فليس هناك أهمية لما إذا كانت تلك العناصر قد أخذت شكل الجناسات التصحيفية أم لا، ذلك أن تأثيرات الخصوبة والتوكيد هى ذاتها صاحبة التأثيرات الحقيقية فى كل الحالات.

يعود سبب الاهتمام الذى أظهره بعض دارسى أنساق العلامات وسيميولوجيا الأدب ببحث دوسوسير الخاص بالجناسات التصحيفية إلى رغبتهم فى إبراز ما أطلق عليه مركزية اللوجوس **logocentrism** فى الثقافة الغربية، وإلى اعتقادهم أن دوسوسير انتقل بهذا البحث من «العلامة» إلى «الحرف». ومن ثم فقد أقلع عن التصورات المتمركزة حول اللوجوس لصالح المعنى [١٣]. باختصار يقتضى منظور «مركزية اللوجوس» الاعتقاد فى أن الأصوات ما هى إلا تمثيل (أو صورة) للمعانى الحاضرة فى وعى المتحدث. فالدال **signifier** ما هو إلا تمثيل آنى ينتقل بواسطته المرء لإدراك المدلول **signified** الذى يميل إليه المتحدث. أما الكلمة المكتوبة فهى شكل ثانوى ناقص، إنها تمثيل لإحدى المتتاليات الصوتية التى هى بذاتها أحد تمثيلات الفكر. ففى ضوء هذا النموذج يصبح «التأويل» بمثابة إحدى العمليات الشغوفة باستعادة الأوضاع الماضية واستعراضها، إنه محاولة لاكتشاف المفهومات الحاضرة فى وعى المتحدث أو الكاتب وقت الكتابة، وبالطبع تمثل «العلامة» من منظور «مركزية اللوجوس» – كما هو الحال عند دوسوسير – الوحدة الأساسية، أما الفونيمات **phonemes** والحروف **letters** فهى الوسائل المناسبة التى يمكن أن تستخدم (بالتوليف بينها) لتمثيل جوهر العلامة، أى لتمثيل المدلول.

على الرغم من جفاف ما استقر فى الفكر الغربى، فإنه يمثل بالتأكيد التقاليد المركزية فيه، وكثير من تصريحات دوسوسير يمكنها أن تضعه داخلها بالخطأ. وهناك

(١٣) فيما يتعلق بمشكلة مركزية الكلمة وعلاقتها بنظرية دوسوسير انظر:

Jacques Darrida (1970): De la grammatologie, Paris.

Julia Kristeva, 'Pour une sémioloie des paragrammes' in Semiotikè, Paris 1969. and the special issue of Recherces/ Semiotext, 'Les Deux Saussures', (number 16, September, 1974).

مبرران رئيسان يسمحان بالإفلات من هذا الوضع، المبرر الأول منطقى، والآخر أخلاقى وسياسى، يذهب البرهان الأخلاقى والسياسى إلى أن المعنى ليس هو الشئ الذى نقوم باكتشافه مباشرة، وإنما هو هذا الشئ الذى ننتجه أو نبدعه. حيث يجب على «التأويل» أن يغير العالم، وليس مجرد اكتشاف أحداث زمن مضى، وذلك لأن الاكتشاف هدف مستحيل، فليس بمقدور أى شخص فهم ما سبق أن مال إليه شخص آخر، وعلى الأخص لو كانت الفترات التى تفصل بينهما طويلة. وبالتالى يجب على المرء الترحيب – على العكس من الشروع الآثم فى مهمة مستحيلة – بضرورة التأويل الإبداعى، وأن يمعن النظر فى نفسه كما تمثل فى إحدى سلسلة العلامات والآثار التى استخدمها لتوليد الفكر والمعنى. فلم يعد عالم العلامات مستقر فى «المدلول»، غير الملموس وغير القابل للاسترداد، وإنما فى «الدال»، وعلى الأخص فى الآثار المادية للغة المكتوبة التى يمكن للمرء تأويلها بفعالية وبطريقة متحررة.

وعلى أى حال كيف يمكن لنا الربط بين بحث دوسوسير الخاص بالجناسات التصحيفية وهذا البرهان؟ وهو فى أفضل الأحوال بحث غامض. من المؤكد أن دوسوسير اعتقد أنه لن يكون لهذا البحث أية قيمة إلا إذا اكتشفنا بالفعل ما كان شعراء اللاتينية القدماء يفكرون فيه، فهو لم يبحث عن إظهار أهمية التأويل الإبداعى أو ترويجه بالتأكيد. ولقد أثبت خصوم منظور «مركزية اللوجوس» أن دوسوسير خبر كل جاذبيات التأويل الإبداعى الغريب، وهذا ما يفسر مثابرته لإنجاز مشروعه، بحيث أن هذا الشعور بالإثم وتلك الحيرة اللذان قاسى منهما قد اشتقا من موقفه التاريخى، وهما يبرهنان فى الوقت ذاته على فساد منظور «مركزية اللوجوس»: فلم يكن بمقدور دوسوسير نتيجة وقوعه فى شرك منظور «مركزية اللوجوس» – أن يقبل الطبيعة الحقيقية والمتحررة لما كان يقوم بإنجازه بالفعل، ومن ثم فهو لم يوقع نفسه فى الشكوك فقط، وإنما فرض قيوداً على ما كان يقوم بإنجازه (كقرار البحث عن الجناسات التصحيفية لأسماء الأعلام فقط)، وهى قيود لم يستطع العثور على الوسيلة التى تحرره منها.

على الرغم من اختلاف البرهان الفلسفى المعارض لمنظور مركزية اللوجوس إلا أن دوسوسير قد لعب فيه أيضاً الدور الغامض نفسه. فقد أكد دوسوسير باستمرار أسبقية اللغة المنطوقة على اللغة المكتوبة، ونظر للكتابة على أنها تمثيل ناقص وثانوى للكلام، وفى ذلك اتبع تقاليد منظور مركزية اللوجوس فى أفضل صورها. وعلى أى حال لم تعارض المبادئ الأساسية عنده منظور مركزية اللوجوس. إذن كيف يستقيم الأمر هكذا؟

أولاً: من الواضح أن المرء لا يبدأ - وفقاً لدوسوسير - من أى مفهوم أو أى جوهر عقلى على الإطلاق، وإنما يختار إحدى المتتاليات الصوتية لتصويره ثم ينتقل المرء منه إلى مفهوم مستقل آخر عليه أن يعثر له على تعبير صوتى. وكما وضحت مناقشتنا فى الفصل الثانى أن الدال **signifier** والمدلول **signified** كليهما - عند دوسوسير - شكل وليسا محتوى، فهما فى المقام الأول موضوعان اختلافيان، ولا توجد الدوال وكذلك المدلولات سوى من خلال التقابلات التى تنظم أحد المجالات، أى من خلال الاختلافات التى تشكل أحد الأنساق: «لا يوجد فى النسق اللغوى سوى الاختلافات التى ليس لها حدود موجبة».

وهكذا لم يؤمن دوسوسير بوجود المفهومات المتسقة التى يسبق وجودها على وجود أحد أنساق الدوال، ولم يسلم كذلك بالتعبير الصوتى ذاته بوصفه عنصراً أساسياً لهذا النسق من الاختلافات، حيث يمثل الصوت عنده أحد أساليب تحقيق دوال أية لغة من اللغات، وقد تحددت تلك الدوال ذاتها فى حدود تقابلية وتوافقية **combinatory** بدون أية إشارة إلى المادة الصوتية. وهكذا فلم يكن مفروضاً على دوسوسير تأكيد أسبقية اللغة المنطوقة، ومع ذلك فقد كان لنظريته نتيجة أخرى، وهى نتيجة ربما كانت أكثر أهمية لو كانت أكثر الصفات الدقيقة المميزة للعلامة - كما كتب دوسوسير - هو أنها تختلف عن العلامات الأخرى، فسوف تحمل كل علامة عندئذ - بمعنى ما - آثار كل العلامات التى تتواجد معها بوصفها كينونات تحددها. وهذا يعنى أنه لا يجب على المرء أن يسلم - كما تذهب «مركزية اللوجوس» - بوجود أى مدلول مستقل منفرد فى الوعى. فما يوجد فى الوعى هو إحدى شبكات الاختلافات. فلو نطقت كلمة **bown** فإن المفهوم الحاضر فى عقلى (إن كان هناك مفهوم حاضر فى العقل) لا يمثل بذاته جوهراً بعينه، وإنه يمثل قائمة كاملة من التقابلات. وبالفعل يمكن لنا القول وبشكل مطلق أن التصور الكامل للنسق اللغوى (التصور الكامل للغة **la langue** كما حدده دوسوسير) هو تصور لشبكات الاختلافات على مستوى «الدال» وكذلك «المدلول»، الشبكات التى أخذت موضعها الصحيح بالفعل، والتى نُقشت فى عقل الحالة المدروسة أو كُتبت فيه كيفما اتفق، ومن الواضح أن فعل التلفظ ذاته ما هو إلا أحد الأساليب المؤقتة (ومن ثم الناقصة)لاستخدام شبكة واحدة من الاختلافات (وهى اختلافات الدال) لإنتاج أحد الأشكال التى يمكن تأويلها فى حدود شبكة الاختلافات الأخرى (وهى اختلافات المدلول).

فمعنى كلمة **brown** لم يكن جوهراً بعينه موجوداً فى عقلى لحظة النطق بها، وإنما هو حيز ما فى شبكة الاختلافات البينية (أى فى النسق الدلالى للغة).

أما محاولات الاعتراض على «مركزية اللوجوس» فقد أفرزت قدراً كبيراً من المشكلات المعقدة جداً، وهى مشكلات لم تظهر على أى حال سوى فى المناقشات العويصة والمبهرة التى تميزت كتابات جاك داريدا Jacque Derride وحدها فيها بالبراعة والذكاء، وتوضح الملاحظات السابقة بعض المؤشرات الخاصة بخطوط البرهان وبموقف دوسوسير الرائد والغامض أيضاً، وذلك لأنه الرجل الذى أكد أوضاع منظور «مركزية اللوجوس» بوضوح تام، هذا مع أن أبحاثه سعت – وبأساليب عديدة – إلى اقتطاع جزء من تلك الأوضاع.

هناك مظهران فى أعمال دوسوسير تدفع المرء للتأكيد عليهما فى ضوء تلك المشكلة. المظهر الأول وهو مظهر قد أصبح الان أكثر وضوحاً وهو لماذا أصر دوسوسير على الحقيقة السيكولوجية للغة la langue، وعالجها بوصفها أحد النتاجات الاجتماعية التى يتمثلها الفرد بشكل مستتر. وكما أشرت من قبل فقد أصبح اللاوعى حيزاً من التمثيل، وأصبح النسق الكامل منقوشاً داخله. ويمكن لنا الآن رؤية أهمية هذا الرأى: حيث لا ينصرف ذهن المرء أثناء الحديث أو الكتابة إلى مجرد أحد الأشكال أو أحد المعانى التى استحضرت فى الذهن للحظة عابرة، وإنما ينصرف إلى النسق الكامل لإحدى اللغات، نسق منقوش أكثر دواماً.

ولهذا بإمكاننا أن نؤكد – كما أكد دوسوسير – أن المعنى أو المدلول لا يعد كينونة قائمة بذاتها طالما أنه يمثل تقريباً حزمة من القيم الأختلافية، أو طالما أنه يُعد حيزاً داخل أحد أنساق الاختلافات. فلكى تضفى المعنى على إحدى الكلمات أو على إحدى الجمل فأنت تملأ هذا الحيز بالعلامات الأخرى، وحرفياً فأنت تميز بين بعض تلك الاختلافات التى تحدد هذا الحيز وبعضها الآخر. (ولذلك فاضفاء المعنى على كلمة اللغة la langue، يقتضى تحديد الاختلاف بين تلك الكلمة وكلمة كلامْ parole). ولأن المدلولات غير ملموسة هكذا فنحن نبرر – وفقاً لاعتقاد راسخ – الأسبقية الممنوحة للدال الذى يستطيع المثول أمامنا بوصفه إحدى الكلمات المكتوبة المتعهدة للمعنى، والمحرضة لنا على أن نشرع فى ملاحقته. ومع ذلك علينا أن نتذكر أن تعهد المدلولات المقررة – أى المعانى التى قررها العرف – هو وحده فقط الذى يجعل من أحد الأشكال بمثابة أحد الدوال.

تحمل مشكلة «مركزية اللوجوس» المرء من جديد للنظر فى تأكيد دوسوسير على الطبيعة الاجتماعية للغة، وتأكيده على اللغة بوصفها أحد النظم الجمعية التى يتمثلها الفرد مع أنها تتعلق فى الأساس بالعالم الاجتماعى وليس بالفرد. وأنها دائماً شئ آخر

غير الفرد. وبإمكان المرء القول بأن نظرية دوسوسير توضح أخرية otherness المعنى. فما تعنيه كلماتي هو المعنى الذى تقتنيه تلك الكلمات فى هذا النسق البينى الذى انبثقت عنه. فالنسق فى الموضع الملائم بالفعل بوصفه أساساً للمعنى أو شرطاً له. وتأويل العلامات ليس سوى قراءتها داخل حدود النسق.

وقد يدفعنا ذلك إلى المضى قدماً لمواجهة الاعتراض على تورط دوسوسير فى منظور «مركزية اللوجوس»، ولكن ذلك لن يجعل من «التأويل» هذا الضرب من العملية الإنتاجية المتحررة التى يبتغيها بعض المنظرين له (أى التأويل). فى الواقع قد يحتج هؤلاء المنظرون بأن صياغتى قد أحلت أحد الأنساق السيميولوجية محل المدروس الفردى حين جعلت من النسق - وليس من الوعى الفردى - مصدراً للمعنى وكفيلاً له. والأمر هكذا بالفعل ولكن الإجابة على هذا الاعتراض هى أنه لا يمكن إنتاج معنى دون نسق، ولو افترضنا أن بمقدور المرء الإفلات من الأنساق السيميولوجية كلية، وأن بمقدوره تحرير نفسه من قيودها، فقد يكون بمقدوره حينئذ التحرر من تعيين المعنى عشوائياً ومع ذلك فلن يكون المعنى شيئاً مفتوحاً. ومن ناحية ثانية لأن من المحتم مجئ المعانى المعينة من مكان ما دون أية مقاومة فإنها لن تكون فى هذه الحالة إلا معانى سطحية ليس لها أية أهمية.

ولتلك القضية الأخيرة أهميتها الخاصة، وذلك لأنها تنطبق عموماً على طبيعة الأنساق السيميولوجية ووظائفها وذلك لأن أكثر التأويلات أهمية وتعقيداً على الإطلاق هى تلك التأويلات التى تنبثق عن الحالات التى نجد فيها أحد الأنساق السيميولوجية من ناحية، والموضوعات والأفعال والنصوص التى من الصعب تأويلها فى لغة هذا النسق من الناحية الأخرى. حيث تعد تأويلاتها بلغة النسق تأويلات غامضة ومن الواضح أنها تفلت منه. ومع ذلك ولأننا محكومون بالإلحاح السيميولوجى الإنسانى - حاول أن تخلق معنى للأشياء - فلا مفر من أن نتصارع مع الموضوع العنيد المراوغ، وأن نعمق من تصوراتنا للدلالة ونوسعها، وأن نعدل فى أحكام النسق ونوسعها، وهنا فنحن نصادف إحدى القضايا التى سبق وأن أثيرت من قبل فيما يتعلق بالنسق السيميولوجى للأدب، فلو افترضنا وجود إحدى الشفرات السيميولوجية الصريحة والمستقيمة التى يمكنها أن تقدم لنا أحد التأويلات الآلية لكل عمل أدبى، فلن يكون للأدب أية أهمية، ولكن الخطوة الأولى التى يقوم بها المؤلفون هى الاعتداء على أحكام هذه الشفرة أو تجاوزها.

والمثير فى الأمر أن الموضوعات والأفعال والنصوص قد تبدو أنها تتجنب - جزئياً على الأقل - الأنساق السيميولوجية التى ارتبطت بها، ومع ذلك فالأمر الحاسم:

إنها ارتبطت جميعها بأحد الأنساق، إن لم يكن هناك أعراف قد ألزمتنا حدودها على قراءة الموضوعات والأفعال والنصوص وتحديد معناها فى ضوئها فلن تكون هناك أى مصادر أخرى لتعيين المعنى غير المفاهيم التى أختبرناها بالفعل. وهنا فلن يكون بإمكاننا انجاز أى اكتشافات سواء تعلقت بالعالم الخارجى أو بأنفسنا. ولكن إن شرعنا فى تأويل أحد الموضوعات أو الأفعال أو النصوص – بشرط التفكير فيه على أنه يتعلق بأحد الأنساق التى لم نفهمها تماماً بعد – فلسوف نجهد أنفسنا لاكتشاف مصادر جديدة للتأويل داخل الذات، ولسوف نعثر على الأساليب التى تربط بين هذا الموضوع والنسق السيميولوجى الوثيق، ولسوف تؤدى هذه العملية – بالإضافة إلى ذلك – إلى تزايد الوعى بالذات، وإلى تحقيق الفهم الأفضل للشفرات وللعمليات التى يتم خلق المعانى بها على حد سواء.

الاستنتاجات

يقول الفيلسوف المشهور إرنست كاسيرر **E. Cassirer** «ربما لا نعثر فى كل فصول تاريخ العلم على فصل أكثر سحر وأكثر إثارة من ظهور «علم» جديد لعلم اللغة فى بداية القرن العشرين، فقد بلغ تأثير هذا العلم إلى حد التأثير الذى بلغه العلم الجديد الذى ينتسب لجاليليو **Galileo** الذى غير تصوراتنا للعالم الطبيعى فى القرن التاسع عشر». لقد سبق لنا أن لخصنا فى الفصلين الثانى والثالث من هذا الكتاب الدور الذى قام به فردينان دوسوسير فى ظهور علم اللغة الحديث وشرحنا بالتفصيل الأسباب التى جعلت من هذا العلم أحد العصور الخلابة فى تاريخ الفكر الحديث. ومع ذلك فليس من السهل تقييم تلك المقارنة الجريئة التى عقدها كاسيرر بين علم اللغة الحديث وعلم جاليليو الجديد. فما الذى يعينه كاسيرر من تلك المقارنة، وكيف يمكننا تجسيد ذلك بالفعل؟

وفقاً لما ذهب إليه كاسيرر فإن المظهر الثورى الحاسم فى علم اللغة الحديث هو التأكيد على أسبقية العلاقات وأنساقها. وبالفعل ففى تلك النقطة بالذات تمثل نظرية اللغة عند دوسوسير – بتصوراتها النظرية ومسلماتها المنهجية الأساسية – أحد التعبيرات البليغة المتميزة للاستراتيجيات الشكلية التى غيرت فى ضوئها العلوم – إبتداء من الفيزياء حتى الرسم – ذاتها فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وغدت بذلك علوماً حديثة.

وببساطة شديدة يمكننا تحديد ملامح هذه الاستراتيجيات فى التغيرات التى حدثت فى بؤر اهتمامات العلوم وانتقالها من التركيز على «الموضوعات» إلى الاهتمام بـ «العلاقات». إن «العلاقات » تخلق «الموضوعات» وتحددها وليس العكس. ولقد قدم وايتهد **Whitehead** إيضاحاً عاماً للمسألة على النحو التالى: «لم يكن الاعتقاد فى الوجود المستقل – وهو الاعتقاد الذى لازم التراث الفلسفى قروناً طويلة – سوى أحد الاعتقادات الخاطئة، حيث لم يكن هناك فى الواقع مثل هذا النموذج للوجود، وقد كان من الواجب فهم كل كينونة فى لغة الأسلوب الذى تتناسج به مع بقية الكون».

وفى كتاب «العلم والعالم الحديث» بين وايتهد كيف أدت الاكتشافات العلمية الجديدة إلى التعقيد، وكيف كان من المحتم أن تحرص فروع المعارف على تغيير منظوراتها كى تحدد ذاتها وتحدد موضوعات دراستها. فقد اكتشفت الفيزياء على سبيل المثال أن من الصعب تفسير الظواهر الكهرطيسية فى لغة الوحدات المادية المستقلة وحركاتها. وكان الحل فى عكس المشكلة: أى بدلاً من تناول المادة فى البداية ثم الشروع بعد ذلك فى تحديد القوانين التى تحكم سلوكها، لماذا لا يتم تناول الطاقة ذاتها فى البداية، ثم الشروع بعد ذلك فى تعريف المادة فى لغة القوى الكهرطيسية. وهو أمر أدى إلى اكتشاف موضوعات علمية جديدة، فلم يعد الإلكترون فى ضوء المنظور الفيزيائى الجديد احدى الكينونات الإيجابية بالمعنى القديم، وإنما أصبح نتاجاً لأحد مجالات القوة، أى أصبح يمثل احد نقاط الالتقاء فى نسق العلاقات مثله فى ذلك مثل أى فونيم **phoneme** لايمكن أن يوجد مستقلاً عن نسق العلاقات بأى حال.

وهكذا أفسحت النزعة المادية (الوضعية التى تسلم بالأسبقية الوجودية للموضوعات) الطريق للنظرية النسبية بالمعنى العريض، وكما يقول وايتهد: «على النقيض من النظرية المادية التى أبقت المادة، ومن النظرية العضوية التى احتفظت ببناء النشاط الحيوى فقط ركزت النظرية النسبية على البناءات، لقد أصبح الحدث حدثاً ليس بسبب وجوده قائما بذاته وإنما بسبب التوحد الذى يحمله داخل ذاته مع العدد الكبير من العلاقات، وبحيث لم يعد يوجد خارج أنساق العلاقات سوى العدم».

وبطبيعة الحال فتلك هى الأفكار التى قررها دوسوسير فى وضوح واقتدار، وعلى أى حال لم تكن تلك الأفكار لديه مجرد وجهة نظر فى العالم الطبيعى، وإنما كانت بمثابة المسلمات المنهجية الضرورية لتحليل «اللغة الإنسانية» على نحو دقيق. وعلى أى حال يمكن لنا وضع تصريح الرسام جورج براك **G. Braque** جنباً إلى جنب تأكيدات دوسوسير، فقد صرح: «أنا لا أؤمن بالأشياء وإنما بالعلاقات». وهو تصريح يمثل

باختصار عقيدة الحداثة. وبالفعل ماذا تكون «التكعيبية Cubism» إن لم تكن التوكيد على أسبقية العلاقات؟ ففى الرسوم التكعيبية تفقد الموضوعات عادة ترتيباتها الأولية، ولا تنبثق سوى من خلال التفاعل القائم بين الخطوط والمسطحات أو بينها وبين الفراغات ويتم تعطيل البعد الثالث الذى يدعم الموضوعات المألوفة، وذلك بهدف اظهار المنظورات أو العلاقات القائمة بينها بشكل تلقائى. وبإمكان المرء أيضاً أن يلاحظ التغير الذى أصاب الشعر والرواية فى الأدب الحداثى. فلم تعد تلك الأجناس الأدبية تهتم بتمثيل الموضوعات والمشاهد المتميزة ومحاكاتها وإنما أضحت أكثر اهتماماً بتجاوز الأشياء، وأصبحت القيم العلاقية بالتالى - سواء كانت علاقات بين كلمات، أو علاقات بين أنماط مختلفة من الألحان - تمثل المقومات الأساسية للأعمال الفنية.

لقد أدى التغير الذى حدث فى أسلوب معالجة التفاصيل - فى مختلف فروع المعارف - إلى الاهتمام بأنساق العلاقات وهذا هو ما يمثل فى الواقع أساس الإدعاء الجرئ الذى ادعاه كاسيرر لعلم اللغة الحديث: ذلك أنه فى فكر القرن العشرين لم يعد العالم بمثابة مجموعة من الكينونات أو مجموعة من الموضوعات الموجودة على نحو مستقل وإنما أصبح سلسلة من العلاقات وأنساقها.

فى الواقع كان الانتقال من الاهتمام بـ «الموضوع» إلى الاهتمام بـ «البناء» بمثابة أحد التغيرات الجوهرية التى لحقت بتصوراتنا للعالم، إلا أن هذا الانتقال لا يوضح فى حقيقة الأمر إلى أى حد يمكن لنا أن ننسب الدور الذى قام به جاليليو فى القرن السابع عشر إلى دوسوسير وعلم اللغة الدوسوسيرى. لأنه من وجهة النظر التاريخية لم تكن نظرية دوسوسير فى اللغة سوى تعبير واضح عن التغير الذى تم بشكل تلقائى فى عدد كبير من فروع المعارف وعلى ذلك فهى لم تكن سبباً أساسياً مسئول عن هذا التغير.

ومع ذلك ومع أن دوسوسير لم يقم بالفعل بدور جاليليو القرن العشرين فإن حقه فى تبوء تلك المكانة يعتمد على نموذج التفكير والتخصص الذى أوجده بالفعل، أقصد علم العلامات semiology. فقد اقنعنا دوسوسير بضرورة النظر إلى الحياة الاجتماعية والثقافية الإنسانية بوصفها سلسلة من أنساق العلامات، وقدم النموذج أو الأمثولة التى تساعدنا فى الدرس والتحليل. وهذا هو فى الواقع الإسهام الفعلى الذى يجعل دوسوسير بالفعل مساو لجاليليو.

إلا أنه من السابق للأوان الحكم على المغزى الحقيقى لدوسوسير فى تاريخ الفكر فى القرن العشرين. وذلك لأن البحث فى ميدان علم «العلامات» لم يبدأ إلا حديثاً ولم يتضح حتى الآن ما إذا كان هذا العلم سيصبح بالفعل احدى الحركات الفكرية

الرئيسية فى عصرنا الحديث أم لا. ومع ذلك فلو قدر لهذا العلم أن يكون له وجوداً رئيسياً بوصفه أحد فروع المعرفة الرئيسية فإن الفضل فى ذلك يعود إلى جهود العديد من العلماء إلى جانب دوسوسير. لأن رؤيته لعلم العلامات واصراره البالغ على اتخاذ علم اللغة نموذجاً لهذا العلم هو الذى دفع العلماء الآخرون لتقديم هذا التعبير المتناسق للمنظور السيميولوجى: «الإنسان مخلوق يعيش بين العلامات. ولذلك يجب عدم الاكتفاء بفهم معناها فقط، وإنما يجب الحرص أيضاً على فهم الأعراف المسئولة عن هذه المعانى» فدوسوسير هو صاحب هذا الادعاء الذى يسلم الكثيرون من العلماء به، ذلك أن دراسة الإنسان ليست سوى دراسة مختلف الأنساق التى ينشأ عليها وينظم بها ثقافته ويضيف بها أيضاً المعنى على العالم.

المشروع القومى للترجمة

١- اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥- ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨- مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩- التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١- مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤- التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥- الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦- أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف: أحمد عتمان
١٧- مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨- الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١- خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣- تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥- مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨- رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢- الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣- التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦- نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧- واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨- نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩- الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠- قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١- ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢- عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣- اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
٤٤- بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥- التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦- عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨- حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩- الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١- مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢- العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣- الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤- المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥- ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨- مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩- المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠- التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١- موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢- لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣- تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥- فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦- خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧- مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨- نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩- العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١- السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

العنوان	المؤلف	المترجم
٧٢- السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣- نقد استجابة القارئ	چين . ب . تومبكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤- صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
٧٥- فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦- چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨- العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩- شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠- بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١- الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢- مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣- مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤- موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥- منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦- طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧- نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨- الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩- الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠- وسم السيف	ميجل دى ثربانتس	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١- المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢- أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣- محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤- الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥- مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦- ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧- هوية فرنسا مج ١	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨- الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩- تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠- مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١- النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢- السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣- قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤- أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥- مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦- الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : د. أشرف على دعدور
١٠٧- صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩- حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠- النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١- المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢- الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣- راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦- فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١- مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير في البحث الاجتماعي	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥- موت أرتيميو كروث | كارلوس فوينتس | ت : أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء | ميجيل دى ليبس | ت : على عبدالرؤوف البمبى
١٤٧- خطبة الإدانة الطويلة | تانكريد دورست | ت : عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة (النظرية والتقنية) | إنريكى أندرسون إمبرت | ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس | عاطف فضول | ت : أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية | روبرت ج. ليتمان | ت : منيرة كروان
١٥١- هوية فرنسا مج ٢ ، ج١ | فرنان برودل | ت : بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى | نخبة من الكتاب | ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة | فيولين فانويك | ت : فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت | فيل سليتر | ت : خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكي المعاصر | نخبة من الشعراء | ت : أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى | جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو | ت : مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين | النظامى الكنوجى | ت : عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا مج ٢ ، ج٢ | فرنان برودل | ت : بشير السباعى
١٥٩- الإيديولوجية | ديفيد هوكس | ت: إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة | بول إيرليش | ت: حسين بيومى
١٦١- من المسرح الإسبانى | اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا | ت: زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة | يوحنا الآسيوى | ت: صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع | جوردن مارشال | ت: مجموعة من المترجمين
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور) | چان لاكوتير | ت: نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب | أ. ن أفانا سيفا | ت: سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل | يشعياهو ليفمان | ت: محمد محمود أبو غدير
١٦٧- فى عالم طاغور | رابندرانات طاغور | ت: شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة | مجموعة من المؤلفين | ت: شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية | مجموعة من المبدعين | ت: شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق | ميغيل دليبيس | ت: بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد | فرانك بيجو | ت: هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس | مختارات | ت: محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال | والتر ت. ستيس | ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء | ايليس كاشمور | ت: أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية | لورينزو فيلشس | ت: وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية | توم تيتنبرج | ت: جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف | هنرى ترويا | ت: حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث | نخبة من الشعراء | ت: محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب | أيسوب | ت: إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد | إسماعيل فصيح | ت: سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى | فنسنت ب. ليتش | ت: محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة | و.ب. ييتس | ت: ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما | رينيه چيلسون | ت: فتحى العشرى

١٨٤- القاهرة... حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	ت: دسوقى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت: عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة	بُزُرْج علوى	ت:علاء منصور
١٨٨- موت الادب	الفين كرنان	ت:بدر الديب
١٨٩- العمى والبصيرة	پول دى مان	ت:سعيد الغانمى
١٨٠- محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت:محسن سيد فرجانى
١٩١- الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت: مصطفى حجازى السيد
١٩٢- سياحتنامه ابراهيم بيك	زين العابدين المراغى	ت:محمود سلامة علاوى
١٩٣- عامل المنجم	بيتر أبزاهامز	ت:محمد عبد الواحد محمد
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى	مجموعة من النقاد	ت: ماهر شفيق فريد
١٩٥- شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت:محمد علاء الدين منصور
١٩٦- المهلة الأخيرة	فالتين راسبوتين	ت:أشرف الصباغ
١٩٧- الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت: جلال السعيد الحفناوى
١٩٨- الاتصال الجماهيرى	ادوين إمزى وآخرون	ت:ابراهيم سلامة ابراهيم
١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت: جمال احمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠- ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت:فخزى لبيب
٢٠١- الجانب الدينى للفسلفة	جوزايا رويس	ت: أحمد الانصار
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث ج٤	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣- الشعر والشاعرية	الطاف حسين حالى	ت:جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم	م. سولوفيتشيك، ز. روفشوف	ت: احمد محمود هويدى
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	ت:احمد مستجير
٢٠٦- الهيولية تصنع علما جديدا	جيمس جلايك	ت: على يوسف على
٢٠٧- ليل افريقى	رامون خوتاسندير	ت:محمد ابو العطا عبد الرووف
٢٠٨- شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت: محمد أحمد صالح
٢٠٩- السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٠- مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنونى	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١- فردينان دوسوسير	جوناثان كالر	ت: محمود حمدى عبد الغنى

(تحت الطبع)

الولاية
تاريخ النقد الأدبى الحديث (الجزء الرابع- القسم الثانى)
الاسلام فى السودان
العربى فى الأدب الإسرائيلى
المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر
فن الرواية
ما بعد المعلومات
علم الجمالية وعلم اجتماع الفن
عن الذباب والفئران والبشر
العولمة والتحرير
علم اجتماع العلوم
ديوان شمس
مصر أرض الوادى
الدرافيل أو الجيل الجديد
سحر مصر
رايولا
بقايا اليوم
لغة التمزق
فكرة الاضمحلال
حقول عدن الخضراء
مأزق البطل الوحيد
قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان

رقم الإيداع : ١٦١٣٧/٢٠٠٠

الترقيم الدولى / I.S.B.N. / 977 - 305 - 263 - X

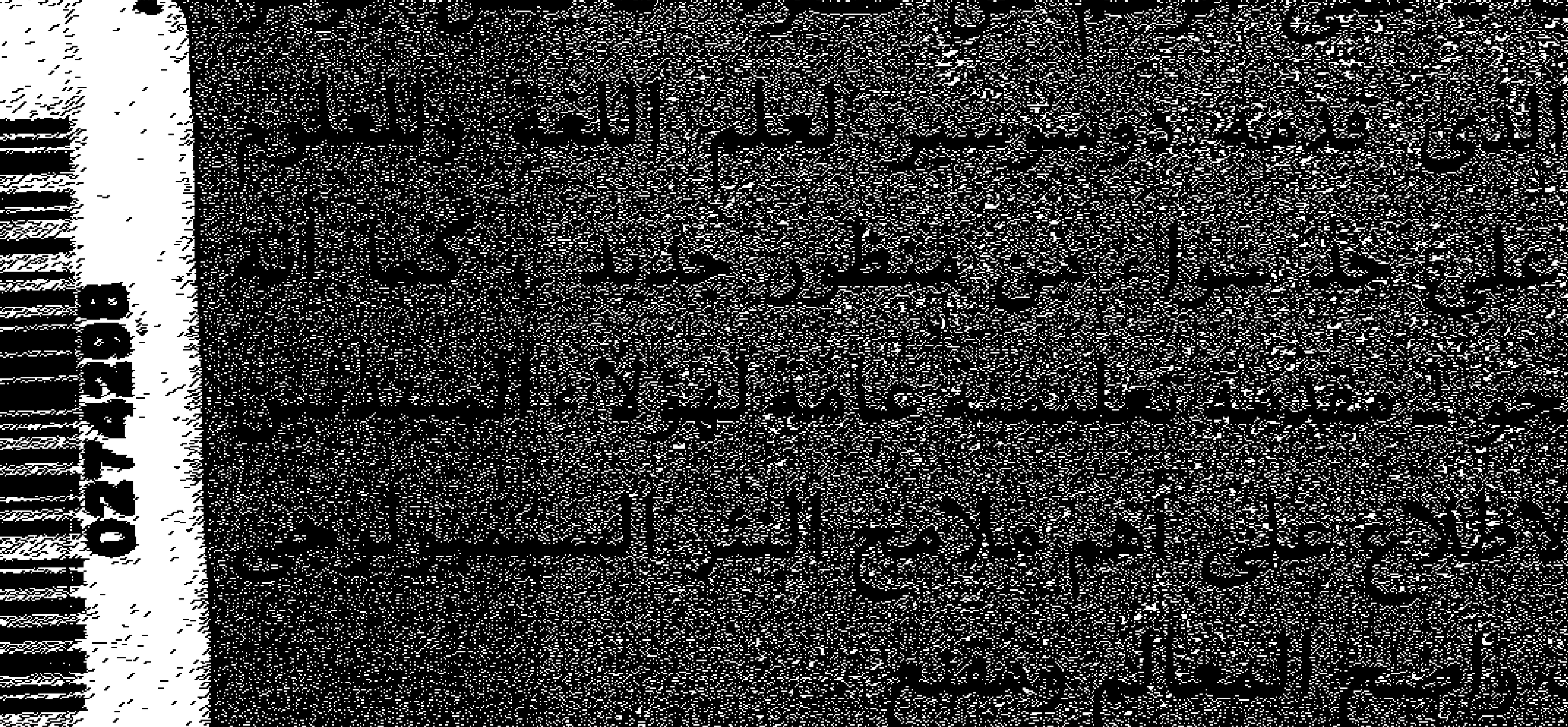
مطابع إدارة المطبوعات والنشر ق . م



SAUSSURE

Jonathan culler

مع وفاة فردينان دوسوسير F. de saussure فى أوائل هذا القرن فقدت جامعة جنيف Geneva أحد مؤرخى اللغات الهندية الأوروبية المرموقين ، الذين أنفقوا معظم حياتهم الأكاديمية فى تدريس الفيلولوجيا التاريخية والمقارنة . ومع ذلك لم يشتهر هذا «الأستاذ » أو يُذاع صيتُه بعد وفاته من هذا المنظور الفيلولوجى الأكاديمى الضيق ، وإنما بوصفه العقل المبدع الذى ظفر عن استحقاق برسم معالم الطريق الإبستمولوجى الخصيب الذى سار فيه علم اللغة الحديث ، بالشكل الذى احتفظ له بموقع الريادة والمبادأة بين مختلف فروع المعارف الإنسانية ، بلا استثناء ، تلك الفروع التى لم تجد مفراً من اتخاذ هذا العلم مصدراً للإلهام والإنارة ، والبدء بطريقة موازية لتحديد هويتها العلمية الخاصة .



إن هذا الكتاب ـ على الرغم من قصره ـ يمثل جوهر الملخص الفكرى الذى قدمه دوسوسير لعلم اللغة وللعلوم الانسانية الحديثة على حد سواء من منظور جديد ، كما أنه يمثل ـ على هذا النحو ـ مقدمة تعليمية عامة لهؤلاء المبتدئين الذين يرغبون فى الاطلاع على أهم ملامح الفكر السيميولوجى الحديث فى أسلوب واضح المعالم ومقنع .